مُنْيَةُ الطَّالبين

في

تفسيرِ القرآنِ المبينِ

تفسير علمي أدبي يحتوي على أبحاث كلامية وعقائدية وتأريخية وروائية

المجلد الخامس عشر

الفقيه المُحقِّق

الشيخ جعفر السُّبحاني مُدَّظِلُّه

دار جواد الأئمة عليه السلام

الفهرس

منية الطالبين في تفسير القرآن المبين الجزء الخامس عشر
الجزء الخامس عشر ويشتمل على تفسير السور التالية: الرعد، إبراهيم، الحجر
تفسير علمي، أدبي، يحتوي على أبحاث كلامية وعقائدية وتاريخية وروائية
تأليف الفقيه المحقّق: جعفر السبحاني
نشر مؤسسة الإمام الصادق (عليه السلام)
(الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَ قُرْآن مُبِين) الحجر:١.

سورة الرعد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (١) اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤) وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٥) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ (٦) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (٧) اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ (٨) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (٩) سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ (١٠) لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (١١) هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (١٢) وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ (١٣) لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (١٤) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (١٥) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (١٦) أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (١٧) لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٨) أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٩) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ

سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤) وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٢٥) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ (٢٦) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ (٢٧) الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ (٢٩) كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ (٣٠) وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْئَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٣١) وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٣٢) أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ (٣٤) مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ (٣٥) وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ (٣٦) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ (٣٧) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (٣٨) يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (٣٩) وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ (٤٠) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤١) وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ (٤٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣)

خصائص السورة

تسمية السورة

سُمّيت السورة بسورة «الرعد» لورود هذا اللّفظ فيها، في قوله تعالى: (وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ).(الرعد: ١٣.)

نعم ورد هذا اللفظ أيضاً في سورة البقرة في قوله تعالى:(أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ).(البقرة:١٩.)

وبما أنّ سورتنا هذه مكّية فقد سُمّيت بالرعد قبل أن تنزل سورة البقرة.

عدد آياتها ومحلّ نزولها

عدد آيات السورة ثلاث وأربعون في عدّ الكوفي، وأربع وأربعون في عدّ المدني، وخمس وأربعون في عدّ الشامي، ومن أراد الوقوف على مواضع اختلافهم في ترقيم الآيات، فليرجع إلى «مجمع البيان».

وقد ذهب جلّ المفسّرين إلى أنّ السورة مكّية، ونُقل عن بعضهم أنّ بعض آياتها مدنيّ مع شيء من الاختلاف، وهو في موضعين:

١. قوله تعالى:(وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ

لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ).(الرعد:٣١.)

فجعلوا قوله سبحانه: (وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللهِ إِنَّ اللهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ) مدنيّاً، وجزء الآية المتقدّم عليه جعلوه مكيّاً، وهذا أمر عجيب في آية واحدة.

٢. قوله سبحانه:(وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ)(الرعد:٤٣.)، فإنّه لمّا أخذوا بقول من ذكر أنّ المراد بقوله تعالى:(وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ) هو عبد الله بن سلاّم اليهودي الذي أسلم، جعلوا الآية مدنيّة.

هذا، وقد روي عن الحسن البصريّ وعكرمة وقتادة أنّ السورة مدنية إلاّ آيتين نزلتا بمكّة، وهما قوله تعالى:(وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ) وما بعده،(الرعد:٣١ـ٣٢.) ولكنّ مضامين السورة تشهد على أنّها مكيّة.

أغراض السورة

إنّ بعض المفسّرين يذكر ما ورد في السورة من محاور، ويجعله غرضاً لها، مع أنّ الغرض هو الأمر الواحد الذي تدور عليه آيات السورة أجمع، وهو لا يكون إلاّ أمراً واحداً ترجع إليه سائر الآيات، وأظن أنّه عبارة عن الدعوة إلى الإيمان بما أُنزل على النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) وما يدعو إليه من التوحيد ونبذ الشرك، ويشهد لذلك ما ورد في صدر السورة من قوله:(تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ)(الرعد:١.)، ويؤيّده ما ورد في آخر السورة، حيث يتوافق مع ما ورد في صدرها، أعني قوله تعالى:(وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ).(الرعد:٤٣.)

ولمّا كانت الدعوة إلى التوحيد في الربوبيّة وأنّ المدبِّر للكون هو الله عزّ وجلّ، استدلّ على ذلك بالنظام الدقيق الذي يسود الموجودات السماوية والأرضية.

وبذلك يتجلّى أنّ السورة مكّية، ولا ريب في ذلك.

التفسير

الآيات: الأربع الأُولى(المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ.... إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَات لِقَوْم يَعْقِلُونَ).

(المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ * اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَد تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لاَِجَل مُسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ * وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَات لِقَوْم يَتَفَكَّرُونَ * وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَاب وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَان يُسْقَى بِمَاء وَاحِد وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْض فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَات لِقَوْم يَعْقِلُونَ).

المفردات

الكتاب: القرآن المجيد.

عَمَد: واحدها عمود، وهو ما تعتمد عليه الخيمة من خشب ونحوه، أو هو اسم جمع مفردهُ عماد أي سَند.

سخّر: التسخير: التذليل والطاعة.

يفصّل: يبيّن.

الآيات: إشارة إلى الآيات التكوينية من الشمس والقمر.

مسمّى: محدّد.

مدّ الأرض: بسطها، فجعل الأرض متّسعة للسير والزرع.

رواسي: ثوابت، وصف للجبال.

زوجين اثنين: يطلق الزوج ويراد به الواحد كما يطلق ويراد به الاثنان، والتثنية دليل على أنّه أُريد به الواحد، ويكون المعنى ذكر وأُنثى، ويطلق الزوج للذكر، والزوجة لخصوص الأُنثى.

قِطَع: جمع قطعة، وهي الجزء من الشيء، تشبيهاً بها بما يقتطع.

متجاورات: متقاربات.

صنوان: النخيلات التي يجمعها أصل واحد، واحدها صنو، وهو مع التنوين جمع وبدونه تثنية.

الأُكل: ما يؤكل.

التفسير

١. (المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ):

افتتح سبحانه غير واحدة من السور تارة بـ(الم) وهي السور التالية: البقرة، آل عمران، العنكبوت، الروم، لقمان، السجدة، وأُخرى بـ(الر) وهي السور التالية: يونس، هود، يوسف، إبراهيم، الحجر.

ولكن خصّت هذه السورة فقط بالجمع بين ما صُدّرت به تلك السور، فقال: (المر)ولعلّ الجمع بينهما لغاية الإشارة بأنّ السورة تشتمل على كلّ ما في هذه السور من محاور، والله العالم.

وأمّا ما هو المقصود من هذه الحروف المقطّعة ففيه أقوال، أقواها هو الإشارة إلى أنّ مادة القرآن الكريم مؤلّفة من هذه الحروف التي هي في متناول المشركين والمنكرين، فلو كان القرآن من صنع رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)دون أن يكون وحياً من الله سبحانه لما عجزوا عن مواجهة التحدّي بالإتيان بسورة كسور القرآن الكريم، وحيث إنّهم لم يقدروا على معارضته فليعلموا أنّ الله سبحانه هو الذي أنزله، كما قال:(وَ مَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ).(يونس:٣٧.) وسوف يوافيك تفصيل القول في ذلك في تفسير سورة الأحقاف.

والذي يشهد لما اخترناه أنّ أكثر السور المفتتحة بتلك الحروف المقطّعة تحدثت آياتها الأُول عن الكتاب بأوصافه المتعدّدة، كما يقول هنا:(تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ)والمراد به القرآن الكريم، واسم الإشارة (تِلْكَ)إشارة إلى ما تقدّم نزوله قبل هذه الآية، والإشارة إليها بالبعيد لأجل التعظيم والتكريم، مثل قوله سبحانه:(ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ).(البقرة:٢.)

وعلى ما ذكرنا يكون قوله سبحانه:(وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ)إشارة إلى آيات هذه السورة وما سينزل بعدها.

ثمّ إنّه سبحانه ذكر مصدر النزول بقوله: (مِنْ رَبِّكَ) دون أن يقول: الله سبحانه، وما ذلك إلاّ للتلطّف، (الْحَقُّ): أي ما سبق نزوله من آيات الكتاب وما لحقه فهو مصحوب بالحقّ ليس للباطل إليه من سبيل، وكأنّه سبحانه يقول:(وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ) هو (الْحَقُّ) لإفادة الحصر والقصر، وأنّ هذا الكتاب هو الحق دون غيره من كتب الأساطير التي كانت تُقرأ في مجالس المشركين.

وقد ورد في تفسير قوله تعالى:(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ)(الأنفال:٣١.)، أنّها نزلت في النّضر بن الحارث حيث ادّعى أنّ القصص الدارجة عند الفرس من قصص رستم واسفنديار يعادل قصص القرآن الكريم، انظر إلى هذه الصلافة فهو يصوّر أنّ الأساطير كالقرآن الموحى، ولذلك يركّز سبحانه في غير واحدة من

الآيات على كون نزول القرآن نزولاً مصحوباً بالحقّ.

قوله تعالى: (وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ): أي لا يصدّقون ولا يتأمّلون ما فيه من بدائع المعارف والحكم والأحكام التي لا توجد حتى في الكتب المنسوبة إلى السماء.

وعلى هذا يكون عطف (وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ) على ما سبق من قبيل عطف الجزء على الجزء، والاختلاف بينهما بالسبق واللحوق.

٢. (اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِاَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الْاٰيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ):

الآية تتضمّن بيان حقائق كونية، إليك الإشارة إلى رؤوسها:

١. رفع السماوات بغير عمد.

٢. استواؤه تعالى على العرش.

٣. تسخير الشمس والقمر.

٤. حركة الشمس والقمر محدّدة مؤقّتة وليست دائمة.

٥. تدبير الكون بيد الله سبحانه.

٦. تفصيل الآيات بيد الله سبحانه.

٧. تبيين هذه الحقائق لغاية الإيمان بيوم لقاء الله تعالى.

وإليك بيان هذه الحقائق:

الأُولى: رفع السماوات بغير عمد

قال تعالى: (اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا) والرَّفع ضد الوضع، فالله سبحانه خلقها مرتفعة. والآية دليل على قدرته العظيمة وذلك إنّ رفع هذا البناء الشامخ دون الاستعانة بدعائم مرئيّة يكشف عن تناغم دقيق في عالم الخلقة، ولولاه لتداعت أركان العالم وانهارت. وهذا النظام الرائع تتقاسمه قوّة الجاذبية وقوّة الطَّرد المركزيّ، وفي ظلّ التعادل القائم بينهما تنتظم حركة النجوم والكواكب والمجرّات في مساراتها.

فالجاذبية قانون عام جار على جميع الأجسام في هذا العالم، وهي تتناسب عكسياً مع الحدّ الفاصل بين الجسمين، إذ تتعاظم كلّما تضاءلت المسافة وتتضاءل كلّما ازدادت الفاصلة، فلو دارت رحى النظام الكوني الدقيق على قوّة الجاذبية فقط لارتطمت الكواكب والنجوم بعضها مع بعض ولتداعى النظام السائد، ولكن في ظل قانون الطّرد يحصل التعادل المطلوب، وقوّة الطّرد تلك تنشأ من الحركة الدورانية للأجسام.

ومهما يكن من أمر، ففي ظلّ هاتين القوّتين تبقى الملايين من المنظومات الشمسية والمجرّات معلّقة في الفضاء دون عَمَد، وتحول دون سقوطها وفنائها، وإلى هذه الحقيقة يشير القرآن الكريم، ويقول:(اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا).

وتتّضح دلالة الآية من خلال ملاحظة أمرين:

الأوّل: إنّ قوله: (تَرَوْنَهَا) وصف لـ(عَمَد) وهي جمع عمود، ويكون محلّه الجرّ لكونه وصفاً لـ(عَمَد).

الثاني: إنّ الضمير في (تَرَوْنَهَا) يرجع إلى الأقرب الذي هو (عَمَد) لا إلى السماوات التي هي أبعد. ومعنى الآية: إنّه سبحانه رفع السماوات من دون عمد مرئية، وهو لا ينفي العمود بتاتاً، وإنّما ينفي العمود المرئيّ، ولازم ذلك أنّ السماوات مرفوعة بعمد غير مرئيّة للبشر، وهذا هو المعنى الذي اختاره ابن عباس وغيره.(انظر: التبيان في تفسير القرآن:٦/٢١٣.

ويُحتمل أن يكون قوله: (تَرَوْنَهَا) حالاً من (السَّمَاوَاتِ)، والضمير راجعاً إليها، وعندئذ يكون محلّه النصب. وهذا الاحتمال بعيد.()

وهو الظاهر ممّا رواه الحسين بن خالد، عن علي بن موسى الرضا، فإنّه(عليه السلام) قال في تفسير الآية:«أليس الله يقول: (بِغَيْرِ عَمَد تَرَوْنَهَا)؟» فقلت: بلى، قال: «ثَمَّ عَمَد لكن لا ترونها».

ويؤيّده ما روي عن الإمام علي(عليه السلام)، أنّه قال:«هذه النجوم التي في السماء مدائن مثل المدائن التي في الأرض، مربوطة كلّ مدينة إلى عمود من نور».(بحار الأنوار: ٥٥ / ٩١، رقم الرواية ٨.)

ورواه الطريحي أيضاً لكن قال:«عمودين من نور» مكان قوله:«عمود من نور».(مجمع البحرين: ٢ / ١٦٢، مادة «كوكب».)

ولعلّ المراد من العمودين هما قوّة الجاذبية، والقوّة الطاردة المركزية.

إنّ الكتاب الكريم صاغ الحقيقة المكتشفة من قبل «نيوتن»، بعبارة يسهل فهمها على عامّة الناس، وقال: (بِغَيْرِ عَمَد تَرَوْنَهَا).

وقد أشار سبحانه في غير واحدة من الآيات إلى أنّه سبحانه هو المُمْسِك للسماوات من الزوال، وقال:(إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولاَ).(فاطر:٤١.)

وكونه سبحانه هو المُمْسِك لا يمنع من وجود علل طبيعية حافظة لسقوط السماوات وزوالها، فقد جرت سنّته سبحانه على تدبير العالم من خلال العلل الطبيعية التي هي من سنن سبحانه وجنوده الغيبية.

وللإمام علي بن أبي طالب(عليه السلام) أكثر من خطبة يشير فيها إلى خلقة الأرض، منها قوله: «وَأَرْسَاهَا عَلَى غَيْرِ قَرَار، وَأَقَامَهَا بِغَيْرِ قَوَائِمَ، وَرَفَعَهَا بِغَيْرِ دَعَائِمَ».(نهج البلاغة: الخطبة ١٨.)

وقوله(عليه السلام): «فَمِنْ شَوَاهِدِ خَلْقِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ مُوَطَّدَات بِلاَ عَمَد، قَائِمَات بِلاَ سَنَد».(نهج البلاغة: الخطبة ١٨٢.)

وعلى كلّ تقدير، فالتوازن الموجود في خلق السماوات والأرض هو مظهر من مظاهر قدرته في عالم الخلقة.

الثانية: استواؤه تعالى على العرش

قال سبحانه: (ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ): أي بعد ما (رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَد تَرَوْنَهَا) تمّ استيلاؤه على العرش. وهذه الفقرة وقعت ذريعة للمجسّمة، فإنّ رفع الستر عن وجه الحقيقة يتوقّف على توضيح أمرين:

١. ما هو المراد من (الْعَرْشِ) في اللغة والقرآن؟

٢. ما هو المراد من قوله: (اسْتَوَى)؟

أمّا الأمر الأوّل: فقد أُثر عن بعض السَّلف ترك الخوض فيما يرجع إلى المعارف والعقائد والاكتفاء فيها بقراءة الآيات والأحاديث دون تحقيق، فعن سفيان بن عُيينة، قال: كلّ شيء وصف الله به نفسه في القرآن، فقراءته تفسيره، لا كيف ولا مثيل.(انظر: علاقة الإثبات والتفويض: ٩٥، الطبعة الخامسة.) وقال ابن قُدامة المقدسيّ: وعلى هذا درج السَّلَف والخَلَف (رضي الله عنهم) متّفقون على الإقرار والإمرار والإثبات لِما ورد من الصفات في كتاب الله وسنّة رسوله من غير تعرّض لتأويله.(علاقة الإثبات والتفويض: ٥٩.)

هذه العبارات وما يشابهها تدلّ على أنّهم أقفلوا باب البحث عمّا ورد من معارف في القرآن الكريم، ولذلك لا تعجب من قول مالك بن أنس ـ لمّا سُئل عن معنى الفقرة ـ الكيف غير معقول، والاستواء منه غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وإنّي أخاف أن تكون ضالاً. وأمر به فأُخرج».(عون المعبود:٧٦/٩.)

وفي ظلّ هذا النوع من التفكير نشأت فرق المشبّهة والمجسّمة وكلّ من يجري الصفات الخبرية بمعناها اللغوي على الله سبحانه، فالله سبحانه يأمر المؤمنين بالتفكّر في القرآن الكريم، ويقول: (أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوب أَقْفَالُهَا)(محمد:٢٤.)، فالسائل

كان يريد التدبّر وفهم ما ورد في القرآن الكريم غير أنّه جوبه بصرامة، ومُنع من التدبّر ووُصف سؤاله بأنّه بدعة.

فدع عنك نَهْباً صيحَ في حَجَراته *** ولكنْ حديثاً ما حديث الرواحلِ

إنّ هذه الفقرة جاءت في الذكر الحكيم في أكثر من موضع، ولذا نأتي هنا بتفسير اللفظين.

أمّا العرش فقد ذكر المفسّرون أنّه ليس له إلاّ معنى واحد، قال ابن فارس في مادة (عرش): له أصل صحيح واحد يدلّ على ارتفاع في شيء مبنيّ، ثم يستعار في غير ذلك. ومن ذلك العرش، قال الخليل: العرش: سرير المَلِك، وهذا صحيح، قال الله تعالى:(وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ)(يوسف:١٠٠) ثم استعير ذلك لأمر الرجل وقوامه: عرش. وإذا زال ذلك عنه قيل: ثُلَّ عرشُه.(معجم مقاييس اللغة:٤/٢٦٤.)

وحاصل كلامه: إنّ العرش في الأصل بمعنى الشيء المرتفع، ثم يستعار لسرير المَلِك وقوام أمر الرجل، أمّا استعماله في أصل معناه فتدلّ عليه آيات كثيرة، كقوله سبحانه:(أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَة وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا)(البقرة:٢٥٩.)، وقوله سبحانه: (أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ)(النحل:٦٨.)، وقوله سبحانه: (وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ).(الأعراف:١٣٧.)

وأمّا استعماله على نحو الاستعارة، أي في عرش الملك، فكقوله سبحانه:(وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ)(يوسف:١٠٠.)، وقوله سبحانه: (وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْء وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ).(النمل:٢٣.)

ثمّ إنّ وجه الاستعارة واضح باعتبار أنّ عرش المَلِك له مقام عال في أذهان الناس.

وأمّا أنّه ربّما يستعمل في انفصام أمر الرجل وقوامه، فيكفي في ذلك قول العرب: أظننت عرشك لا يزول؟(المفردات للراغب:٣٢٩، مادة (عرش).)

هذا كلّه حول العرش، وأمّا الاستواء، فللراغب هنا كلام جيّد، يقول: واستوى يقال على وجهين: أحدهما يسند إليه فاعلان فصاعداً، نحو: استوى زيد وعمرو في كذا، أي تساويا. وقال تعالى:(لاَ يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللهِ).(التوبة:١٩.)

والثاني أن يقال لاعتدال الشيء في ذاته نحو: (ذُو مِرَّة فَاسْتَوَى)(النجم:٦.)،

(فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ)(المؤمنون:٢٨.)،(لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ)(الزخرف:١٣.)، (فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ)(الفتح:٢٩.)، ومتى عُدّي بـ(عَلَى) اقتضى معنى الاستيلاء كقوله: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)(طه:٥.).(المفردات للراغب: ٢٥١، مادة «سوا».)

إذا تبيّن معنى اللّفظين فلنرجع إلى تفسير الفقرة، فعلى ما ذكره الراغب وغيره، فقد أُريد هنا أنّه سبحانه استوى على عرشه، لا أنّه علا عرشَه، أو جلس على عرشه.

إنّما الكلام فيما هو المراد من عرشه سبحانه، وما يناسب سياق الآية في هذا المقام وغيره أنّ المراد هو مجموع السماوات والأرض وما فيها من المجرّات والكواكب المدهشة للعقل، فالآية تدلّ على استيلائه سبحانه على عرش القدرة وتسلّطه على صفحة الوجود، بتدبيره وتنظيمه الأُمور دون أن يخرج المُلك عن سلطانه. والذي يشهد لذلك أنّه سبحانه يذكر بعد ذلك أُموراً ترجع إلى تدبير العالم من تسخير الشمس والقمر، وتدبير الأمر وتفصيل الآيات، كما يذكر بعد هذه الآية مدَّ الأرض وجعلَ الرواسي والأنهار فيها، إلى غير ذلك من الأُمور الكونية التي سيأتي تفصيلها، فذكر هذه الموارد أفضل دليل على أنّ المراد من الاستيلاء على العرش كونه قائماً بتدبير صحيفة الوجود عالياً أو سافلاً من دون حاجة إلى معين أو من دون حاجة إلى تفويضه إلى مقام آخر غيره سبحانه.

ثمّ إنّ تفسير الاستيلاء على العرش بالاستعلاء والجلوس عليه يوجب اختزال الفقرة عمّا قبلها وعمّا بعدها، حيث إنّ مجموع الآية

يتحدّث عن الخلق والتدبير، فالإخبار عن استعلائه وجلوسه على العرش فاقد للصلة بين فقرات الآية.

الثالثة: تسخير الشمس والقمر

قوله تعالى: (وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى).

الفقرة تتحدّث عن تسخير الشمس والقمر، وفي آية أُخرى تسخير ما في السماوات وما في الأرض، وقال: (أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ).(لقمان:٢٠.)

وأمّا حقيقة التسخير فهو كون الشمس والقمر مأموران بأمر الله تعالى. نعم المسخِّر هو الله سبحانه والمسخَّر له ـ كما ورد في سورة لقمان ـ هو الإنسان. وإنّما خصّ ذكر الشمس والقمر بالتسخير، مع أنّ هناك كواكب ونجوماً كثيرة أكبر من الشمس والقمر، إنّما خصّهما بذلك لعُظم الانتفاع بهما بوجه واضح.

عظمة الشمس، والفواصل الدقيقة بينها وبين سائر السيّارات

الشمس تعتبر كرة من الغازات الملتهبة، والنار المستعرة، وتصل الحرارة في داخل الشمس إلى أكثر من (٢٠) مليون درجة فهرنهايت، وأكثر من (١٢) ألف درجة فهرنهايت على السطح الخارجي، والطاقة التي تصل منها إلى الأرض كلّ ساعة تعادل احتراق (٢١) بليون طن من الفحم.

هذا ما يرجع إلى عظمة الشمس، ومن أهمّ ما يلفت النظر في المنظومة الشمسية، هو المسافات الدقيقة التي تفصل الشمس عن الكواكب التابعة لها، والحركات المنتظمة لهذه الشمس والكواكب، وما يتولّد عن ذلك، أو يترتّب عليه من الأحوال اللازمة، كالفصول، والليل والنهار، وما شابه ذلك.

فالبعد بين الشمس والأرض يبلغ حوالي (٩٣) مليون ميل، وتبعد عطارد عن الشمس، مثلاً بـ(٣٦) مليون ميل، والزُّهرة بـ(مليون) ميل، والمرّيخ بـ(١٤٢) مليون ميل، ويبعد بلوتو عن الشمس بـ(٣٦٧١) مليون ميل.

وهذه المسافات البعيدة بين الكواكب والشمس، تكشف أيضاً عن مدى سعة الفضاء، في حين تُشكّل منظومتنا الشمسية بأقمارها وكواكبها هذه جزءاً من مجرّتنا.

هذا ما يرجع إلى تسخير الشمس.

وأمّا تسخير القمر، فهو أقرب كوكب إلى الأرض، حيث يبعد عنها حوالي (٣٩٠،٠٠٠)كيلومتر.

والله سبحانه يصفه بقوله:(جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً وَالْقَمَرَ نُورًا)(يونس:٥.) ووصف الشمس بالضياء، والقمر بالنور أوضح دليل على أنّه فاقد للضياء ويكتسب النور من الشمس.

وفي آية أُخرى:(وَجَعَلَ فِيها سِراجًا وَقَمَرًا مُنيرًا).(الفرقان:٦١.)

إلى هنا تمّ الكلام في الحقيقة الثالثة، وإليك الكلام في الحقيقة الرابعة:

الرابعة: حركة الشمس والقمر محدودة، مؤقتة

قوله تعالى: (كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى)

الفقرة تثبت لكلّ من القمرين حركة إلى مدّة معيّنة.

أمّا الشمس، فلها حركة موضعية، (تدور حول محورها)، وحركة انتقالية. وهي تتحرك مع سيّاراتها وأقمارها إلى نقطة شمالية، وتبلغ سرعة حركتها نحواً من (١٩/٥) كم في الثانية.

وأمّا جريان القمر، فهو يدور حول الأرض في مدّة، تساوي (٢٩) يوماً و(١٢) ساعة.

والله سبحانه جعل جريان القمر تقويماً طبيعياً لكلّ مَن يعيش في الأرض، وعلامة لمن يسير في الليالي. وللقمر أثر خاص في حياة الإنسان بُيّن في العلوم الفلكية والطبيعيّة.

وأمّا ما هو المراد من قوله: (لِأجَلٍ مُسَمًّى)، فالظاهر أنّ المراد هو حلول يوم القيامة، يقول سبحانه: (يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ * فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ * وَ خَسَفَ الْقَمَرُ * وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ * يَقُولُ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ). (القيامة:٦ـ١٠)

حدوث العالَم وفناؤه

لقد أثبتت العلوم الطبيعية أنّ الكون يسير باتجاه موت حراري وشيخوخة يُصطلح عليها في الفيزياء بـ (الانتروبي)، فقد توصّل العالم الإنجليزي إسحاق نيوتن(١٦٤٢ـ١٧٢٧م) نتيجة تحقيقاته إلى أنّ العالم يتّجه ـ باستمرار ـ نحو التفكّك والتحلّل، والبرود، وسيأتي اليوم الذي تتساوى فيه كلّ الأجسام في حرارتها، وتغدو كالماء الذي استقرّ في الأواني المستطرقة بصورة متساوية السطوح، وحينئذ ستتوقّف كلّ حركة، ويترك الصخب والضجيج مكانهما بالجمود والسكوت، وتترك الحياة مكانها للموت.

لقد أثبت من خلال دراسته للحرارة أنّه في جميع التغيّرات الحاصلة في الحرارة يتحوّل قسم من «الطاقة ذات الوجود الحراري» إلى «طاقة غير ذات وجود حراري»، ولا يمكن العكس إلى أن تنتقل الطاقة غير ذات الوجود الحراري إلى الطاقة ذات الوجود الحراري.

إنّ وجود الحركة والحياة في هذا الكون إنّما هو نتيجة التفاوت والاختلاف الموجود بين أجزائه في الحرارة، فإذا انتقلت الحرارة من الأجسام الحرارية إلى الأجسام الأُخرى، وتساوت الحرارة في الجميع وحلّت البرودة مكان الحرارة لم يبق مجال للتفاعل الذي هو نتيجة الاصطكاك بين الأجزاء المتفاوتة، والفعل وردّة الفعل.

إنّ الكشف المذكور يعدّ دليلاً قوياً على حدوث الكون، إذ لو كان هذا العالَم الماديّ أزليّاً للزم أن تبرد فيه الحرارة منذ زمن بعيد، وأن تنعدم فيه الحياة منذ وقت طويل؛ لأنّ العالَم محدود في طاقاته، فكيف يمكن أن يكون هذا العالَم موجوداً منذ الأزل إلى الآن، وهو يفقد كلّ يوم هذه الكميّة الهائلة من حرارته نتيجة الانفجارات المتلاحقة في ذاته؟!

وبعبارة ثانية: إنّ العالَم لو كان أزليّاً لكان ينبغي أن تنعدم الحياة والحركة فيه منذ أقدم العصور نتيجة فقدان أجزائه للحرارة، وانتقال طاقاتها المتاحة إلى طاقة غير متاحة، وتوقّف العمليات الطبيعية والكيمياوية وللزم أن لا نجد على الأرض أيّ أثر للحياة والأحياء، وأن لا تبقى إلى الآن أيّة حرارة للشمس لحصول الموت الحراري الّذي أشار إليه الكشف المذكور منذ زمن بعيد، نظراً للكمية المحدودة للحرارة في الكون.

فنستنتج من ذلك أنّ لهذا الكون بداية وأنّه حادث، وليس أزليّاً، فالكون يشبه السِّراج النِّفطيّ الّذي يفقد أجزاء من وقوده عند الإضاءة باستمرار، فلا يمكن أن يكون مشتعلاً منذ الأزل، إذ يلزم من ذلك أن ينتهي نِفطه ووقوده منذ وقت طويل، لأنّ الوقود المحدود لا يمكن أن يبقى إلى الأبد.

فإذا وجدناه لا يزال مشتعلاً استنتجنا من ذلك كونه حادثاً، وعرفنا أنّ اشتعاله وإضاءته لم تكن من الأزل.

إنّ نظامنا الشمسي بل مجرّتنا ـ الّتي يعتبر هذا النظام الشمسي جزءاً صغيراً منها ـ أشبه ما تكون بالسِّراج النِّفطيّ المذكور الّذي تتناهى طاقاته، لأنّ هذه المجرّة تملك طاقات محدودة، فلو كانت هذه المجرّة قديمة في وجودها وانفجاراتها، للزم أن يكون قد انتهى كلّ ما فيها من الطاقات، وللزم أن لا نرى الآن أي أثر للعمليات والتفاعلات الطبيعية، والحال أنّنا نشاهد استمرار هذه العمليات والتفاعلات، ونلاحظ ـ تبعاً لذلك ـ استمرار مظاهر الحياة الناتجة عنها، وهذا يكشف بجلاء عن وجود بداية لهذا الكون، ويبطل القول بأزليّته وقِدَمه.

وإن شئت قلت: إنّه لو كانت المادة وانفجاراتها الملازمة لها قديمة وأزليّة، للزم أن ينفد كلّ ما فيها من الطاقات، لضرورة انتهاء كلّ طاقة محدودة إذا كانت فعّالة في زمن غير متناه وغير محدود.

ثمّ إنّ هذا البرهان على حدوث العالَم، يدلّ على فنائه أيضاً، وذلك لأنّ طاقات العالَم محدودة معيّنة، وسيأتي يوم تنتهي فيه تلك الطاقات، وتصير الأجسام من حيث الحرارة والبرودة على وجه سواء.

***

الحقيقة الخامسة: تدبير الكون بيد الله سبحانه

قوله تعالى: (يُدَبِّرُ الأمر)

التدبير: جعل الشيء عقيب الشيء وترتيب الأُمور وتنظيمها ووضع كلّ شيء في موقعه الخاص بحيث يترتّب عليه ما يُقصد به من الغرض والفائدة، يقال: دبّر أمر البيت أي نظم أُموره.

فتدبير أمر العالم تنظيم أجزائه بحيث يصل كلّ شيء إلى غايته المقصودة منه.(انظر: الميزان في تفسير القرآن: ١١ / ٢٨٩ ـ ٢٩٠.)

والمشركون كانوا موحّدين في الخالقية دون أمر التدبير، فلذلك يُعدّ التوحيد في التدبير من مراتب التوحيد، فالله سبحانه هو الخالق، وفي الوقت نفسه هو المدبّر والمتصرّف في شؤون الكون، وقد دبّ الشرك بين المشركين من تلك الناحية، فاعتقدوا بتوحيده في الخالقية، ولكنّهم فوّضوا تدبير كلّ نوع إلى ربّ خاص، على اختلافهم في تعدّد الأرباب، فالله سبحانه يؤكّد في الذكر الحكيم على التوحيد في الربوبية، ولكنّه لا ينافي الاعتراف بوجود علل طبيعية، وأسباب مادية، يؤثر كلّ في الآخر، بإذن الله سبحانه،فمَن أنكر التأثير الطبيعي، وخصّ العلّيّة بعلّة واحدة، وهو الله سبحانه، فقد خالف الذكر الحكيم، فهو يعترف ـ مع التركيز على التوحيد في التدبير ـ على وجود الصلة بين أجزاء العالم، وسيوافيك في تفسير قوله:(يُسْقى بِماء واحد) توضيحه.

ولأجل إبطال الشرك في الربوبية، وهدم الوثنية، نرى أنّ الذكر الحكيم، يُسند الأُمور الطبيعية، والظواهر المادّية، إلى الله سبحانه خلقة وتدبيراً، وما هذا إلاّ لأجل التركيز على التوحيد، ولكن في الوقت نفسه يعترف بوجود الروابط بين الموجودات الطبيعية.

هذا كلّه حول الحقيقة الخامسة، وأمّا السادسة، فأشار إليها بقوله تعالى: (يُفَصِّلُ الأيَاتِ)

الحقيقة السادسة: تفصيل الآيات

أراد سبحانه من الآيات، الآيات الكونية، التي فصّلها فيما تقدّم من آيات، وفيما يأتي.

وعلى هذا فالتفصيل بمعنى التبيين.

وربّما يقال: إنّ المراد من التفصيل هو التمييز، فالله سبحانه يميّز المتّقين من المجرمين يوم القيامة ولذلك سُمّيت القيامة بيوم الفصل وقال:(إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ)(الدخان:٤٠.)، وقال: (وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ)(يس:٥٩.)، وقال: (لِيِمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ).(الأنفال:٣٧.)

يلاحظ عليه: أنّ سياق الآية يُلهم أنّه سبحانه يقوم، فيما سبق من الآيات، بتفصيل الآيات وتبيينها، لا أنّه يقوم بهذا الأمر يوم القيامة.

على أنّ الظاهر أنّ الغاية من تفصيل الآيات هو حصول اليقين المترتّب على التفصيل المتقدّم عليه،كما يقول: (لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ)فيجب أن يكون حاصلاً في أيّام الدنيا لا في ما يتأخّر عنها.

الحقيقة السابعة: تبيين هذه الحقائق لغاية الإيمان بيوم لقاء الله تعالى

قوله تعالى: (لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ)

في هذه الفقرة احتمالان:

الأوّل: الإشارة إلى أنّ خلق السماوات والأرض وما بينهما ليس عبثاً، بل له غاية وهو: لقاء الناس ربَّهم، وكأنّ خلق العالم مقدّمة لإيصال الإنسان أو كلّ موجود إلى غايته.

الثاني: أنّه سبحانه ببيان ما مضى من عوالم الخلق، يستدلّ على قدرته على حشر الناس يوم القيامة، فالقادر على خلق تلك العوالم العظيمة، أقدر على إعادة الإنسان إلى ساحة الحياة، قال تعالى:(لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ).(غافر:٥٧.)

٣. (وَهُوَ الذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَات لِقَوْم يَتَفَكَّرُونَ):

تضمّنت الآية السابقة ذكر العوالم العُلويّة وأحوالها، واشتملت هذه الآية على العوالم السُّفليّة وأحوالها، وقد ذكر تعالى من مظاهر قدرته وتدبيره فيها ـ وهي جميعاً تبيين لقوله سبحانه:(يُدَبِّرُ الأمر) ـ الأُمور الخمسة التالية :

١. مدّ الأرض وبسطها وتوسيعها.

٢. جعل الرواسي في الأرض.

٣. جعل الأنهار فيها.

٤. جعل الثمرات زوجين اثنين، كالرَّطب واليابس، والحلو والحامض.

٥. إغشاء الليل النهار، وبالعكس.

وإليك بيان هذه المظاهر التي تسوق من يتأمّل فيها إلى الإيمان بأنّه لا مدبّر سواه جلّ شأنه، لأنّ الآلهة المكذوبة أعجز من أن تنهض بتدبيرها والقيام بها.

١. مدّ الأرض وبسطها

قوله سبحانه:(وَهُوَ الذِي مَدَّ الأَرْضَ) عطف على قوله:(اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ)وأُريد من المدّ: البسط، فالله سبحانه مدّ الأرض وبسطها لتكون صالحة لعيش الإنسان وغيره من المخلوقات، ولو كانت مملوءة بسلاسل من الجبال الشديدة الوعورة لَما تيسّر الزرع والعمران والسّعي في مناكبها.

وقد عبّر سبحانه عن مدّ الأرض بالفرش، كقوله تعالى: (وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ)(الذاريات:٤٨.)، وبالبسط تارة أُخرى كقوله:(وَاللهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا * لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا)(نوح:١٩ـ ٢٠.) وتعليل البسط بإمكان السير والسلوك فيها، دليل على أنّ المراد من بسط الأرض خلوّها من الجبال المانعة من السّير والزرع والعمران.

ثمّ إنّ مدّ الأرض لا ينافي كرويّتها لِما عرفت من أنّ المراد من بسطها كون سطحها غير مغطّىً بالجبال الوعرة، كيف؟ وإنّ قسماً من الآيات دالّ على كرويتها قال سبحانه: (فَلاَ أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ)(المعارج:٤٠.) فإنّ تعدّدهما فرع كونها كروية حتى تتعدّد فيه المشارق والمغارب، وفي الروايات إشارة إلى كرويتها قال أبو عبد الله الصادق(عليه السلام): «إنّما عليك مشرقك ومغربك».(وسائل الشيعة:ج٤، الباب٢٠ من أبواب المواقيت، الحديث٢.)

وفي رواية أُخرى عن أبي عبد الله(عليه السلام) قال:«مسّوا بالمغرب قليلاً فإنّ الشمس تغيب من عندكم قبل أن تغيب من عندنا».(وسائل الشيعة:ج٤، الباب١٤ من أبواب المواقيت، الحديث١٣.)

وبذلك يعلم أيضاً لا منافاة بين كونها كرويّة مع كونها مسطحة قال سبحانه:(وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ)(الغاشية:٢٠.) لأنّ لكلّ

جسم بأي شكل كان له سطح. نعم المسطّح يقابل الكرويّة في مصطلح المهندسين. وعلى كلّ تقدير، فمدّ الأرض وتخليتها من موانع الزرع والسير فيها من مظاهر التدبير.

٢. جعل الرواسي في الأرض

الرواسي: من رسا الشيء بمعنى ثبت واستقرّ، وهي صفة لموصوف محذوف، أي جعل فيها جبالاً راسية نظير قوله سبحانه:(وَ لَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ)(الرحمن:٢٤.): أي وله السفن الجواري. ثمّ إنّه سبحانه أشار في آية أُخرى إلى ما هو السرّ في جعل الرواسي على الأرض وقال: (وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ)(النحل:١٥.)، وفي آية ثالثة:(وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا)(النبأ:٧.). ولعلّ المراد هو أنّ الأرض بين ضغطين: ضغط داخلي لأجل الغازات التي تخرج منها بضغط شديد، وضغط خارجيّ ويتمثّل بجاذبية القمر؛ والأرض بين هذين الضغطين بحاجة إلى ما يصونها من الاضطراب والميَلان والتزلزل.

٣. جعل الأنهار في الأرض

يلفت سبحانه، في هذه الفقرة، الأنظار إلى جعل الأنهار في الأرض، وهي تحكي عن وجود صلة بين الجبال والأنهار، إذ لولا وجود الجبال لكانت الأمطار تسيل بغزارة على الأرض وتنحدر إلى البحر ويتغلب عليها الجفاف وتشتكي العطش، ولكنّ الجبال تخزن كمية وافرة من الأمطار بصورة ثلوج ثم بالتدريج تتحوّل وتذوب وتكوّن أنهاراً وجداول، يسقي منها الإنسان خلال السنة ويُروّي مزارعه، وإلى هذا يشير سبحانه بقوله:

(وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَات وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا)(المرسلات:٢٧.) حيث عطف سقي الإنسان بماء فرات على الرواسي الشامخات، وما ذلك لأنّ الرواسيَ الشامخات تحفظ الأمطار في قُللها.

٤. الزوجية في الثمرات

ظاهر الفقرة أنّه سبحانه جعل من كلّ الثمرات زوجين اثنين، بمعنى جعلها أنواعاً متخالفة، كلّ نوع يخالف الآخر كالحلو والحامض، والرَّطب واليابس .

وربّما يقال: إنّ المراد من كون الثمرات زوجين بمعنى أنّه جعل فيها من أصناف الثمرات زوجين اثنين ذكراً وأُنثى في أزهارها عند تكوّنها، فقد أظهر الكشف الحديث أنّ كلّ شجر وزرع لا يتولّد ثمره وحبُّه إلاّ من بين اثنين ذكر وأُنثى.

ثمّ إنّ عضو الذكر قد يكون مع عضو الأُنثى في شجرة واحدة كأغلب الأشجار وقد يكون عضو الذكر في شجرة والآخر في شجرة أُخرى كالنخل، وما كان العضوان فيه في شجرة واحدة، إمّا أن يكونا معاً في زهرة واحدة، وإمّا أن يكون كلّ منهما في زهرة وحده، والثاني كالقرع، والأوّل كشجرة القطن فإنّ عضو التذكير مع عضو التأنيث في زهرة واحدة.(الجواهر في تفسير القرآن الكريم لطنطاوي جوهري كما في الميزان: ١١ / ٢٩٢ .)

واختاره المراغي في تفسيره(لاحظ : تفسير المراغي: ٦٦/١٣.)، وهو أيضاً خيرة الشيخ الصادقي، الذي قال: فكلّ النابتات تحمل في ذواتها زوجين اثنين، فتضمّ أعضاء الذكورة وأعضاء الأُنوثة مجتمعة في زهرة، أو متفرّقة في العود، فهي لا تتولّد ثمارها وحبّها إلاّ بين زوجين اثنين، كما والبعض منها ـ كذلك ـ زوجان اثنان.(الفرقان في تفسير القرآن:١٥/١٤٤.)

أقول: يلاحظ عليه بما علّق به السيد الطباطبائي من أنّ ما ذُكر وإن كان من الحقائق العلمية التي لا غبار عليها إلاّ أنّ ظاهر الآية الكريمة لا يساعد عليه، فإنّ ظاهرها أنّ نفس الثمرات زوجان اثنان لا أنّها مخلوقة من زوجين اثنين، ولو كان المراد ذلك لكان الأنسب به أن يقال: وكلّ الثمرات جعل فيها من زوجين اثنين.(الميزان في تفسير القرآن:٢٩٢/١١.)

ومع ذلك نقول:إنّ قانون الزوجية في عالم المادّة كلّه، يمكن أن يُستفاد من قوله سبحانه:(وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ

تَذَكَّرُونَ)(الذاريات:٤٩). وأمّا ما هو المراد من الزوجية العامّة في صحيفة الوجود فعلى عاتق العلم. إنّ القدامى من المفسّرين يؤوّلون الآية بتركيب كلّ موجود من جوهر وعرض أو من المادّة والصورة، فلا يوجد في صحيفة الوجود شيء فاقد لهذا النوع من التركيب وإنّما البسيط من جميع الجهات هو الله سبحانه. وسيوافيك ما هو المراد من الزوجية العامّة عند تفسير سورة الذاريات، ونذكر هنا إجمال ما سيأتي تفسيره هناك.

إنّ كلّ موجود مادّيّ يتكوّن من ذرّات، وتتكوّن الذرّة ـ وهي إحدى الوحدات الأساسية لبناء المادّة ـ من ثلاثة جسيمات رئيسية، هي: الإلكترونات، والبروتونات، والنيوترونات. والإلكترون يحمل شُحنة سالبة، والبروتون يحمل شحنة موجبة. أمّا النيوترون فيحتوي ـ كما تبيّن للعلماء أخيراً ـ على كميّات متساوية من الشحنات الموجبة والسالبة.(انظر: الموسوعة العربية العالمية:١٠/٦٤٠.) ولمّا لم يكن حين نزول القرآن لدى البشر مفهوم لهذين الأمرين عبّر عنهما القرآن بالزوجية. وقد ورد في ذيل تفسير الآية حديث مرويّ عن الإمام الرضا(عليه السلام) يتكلّم فيه عن توحيد الله تعالى ـ إلى أن قال ـ :«بخلقه الأشياء عُلم أن لا شبيه له، وبمُضادته بين الأشياء عُلم أن لا ضدّ له، وبمقارنته بين الأُمورِ عُرف أن لا قرين له، ضادّ النور بالظلمة، والشر بالخير، مؤلّف بين متعادياتها، مفرّق بين متدانياتها، بتفريقها دلّ على مُفرّقها، وبتأليفها على مؤلّفها، قال الله تعالى:(وَمِنْ كُلِّ شَيْء خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ).(البرهان في تفسير القرآن: ٩ / ٢٢٧، برقم ٢ (١٠١٤٠).)

تمّ الكلام في الأمر الرابع، وإليك الكلام في الأمر الخامس.

٥. غِشيان اللّيل النّهار

ليس لليل والنهار حقيقة سوى أنّ البسيطة التي نسكنها تدور حول محورها أمام الشمس، وعندئذ يصبح النصف الذي يقابل الشمس مضيئاً ويُسمّى بالنهار، والنصف الآخر يكون مظلماً ويُسمى باللّيل. وهذه الحالة مستمرّة حتى تتمّ دورة حركة الأرض حول محورها، غير أنّ القرآن الكريم يعبّر عن هذه الحالة بتعابير مختلفة: تارة يعبر عنها باختلاف الليل والنهار ويقول:(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَات لأُولِي الأَلْبَابِ)(آل عمران:١٩٠.)، وأُخرى بالإيلاج ويقول: (ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ)(الحج:٦١.)، وثالثة بالتقليب ويقول: (يُقَلِّبُ اللهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِي الأَبْصَارِ)(النور:٤٤.) وفي آياتنا هذه يعبّر بالغشيان: (يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ). وفي هذا التعبير (غشيان الليل النهار) إشارة إلى أنّ ظلمة اللّيل أشبه بساتر يستر ضوء النهار. وبتعبير آخر: إنّ الله تعالى يغطّي بظلمة اللّيل مكان ضوء النهار على الأرض بالتدريج فيصير ليلاً. والآية تتحدّث عن غشيان الليل النهار. أمّا غشيان النهار اللّيل فتشير إليه آية أُخرى كما يقول: (وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ)(يس:٣٧.) حيث إنّ سلخ النهار يلازم كونه غاشياً للّيل.

وفي نهاية الآية يذكر سبحانه ما هي الغاية من ذكر هذه الأُمور الكونية، فيقول: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَات لِقَوْم يَتَفَكَّرُونَ) فهذا النظام الدقيق الذي يسود الكون عبر ملايين السنين أدلّ دليل على وجود مدبّر فائق في قدرته وتدبيره، وأنّ الآلهة المكذوبة أعجز من أن تدبّر أمر نفسها فضلاً عن أنّ تدبّر هذه الأُمور الكونية العظيمة.

٤. (وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَاب وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَان يُسْقَى بِمَاء وَاحِد وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْض فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَات لِقَوْم يَعْقِلُونَ):

اختلاف الثّمار ووحدة الماء والتراب

الآية عطف على قوله: (وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ)، وهي من أوّلها إلى آخرها تتضمّن الإشارة إلى بعض مظاهر تدبيره سبحانه، حيث إنّه خلق عالماً فيه مساحات من الأرض متجاورة، إمّا متشابهة أو مختلفة متباينة، بمعنى أنّ بعضها سبخة وبعضها عذبة وفيها جنات

مختلفة، والجميع يسقى بماء واحد، فما هو السبب لهذه الثّمار المختلفة نوعاً وطيباً؟ كلّ ذلك يدلّ على أنّ وراء هذا العالم وجوداً ذا قدرة عظيمة يصنع من تراب واحد وماء واحد تلك الثّمار المختلفة. وعلى هذا فالآية بصدد بيان تدبيره سبحانه وليس بصدد بيان توحيده في التدبير، ولا بصدد بيان توحيده في الخالقية، إذ لم يكن يومذاك أي منكر للخالق حتى يستدلّ عليه القرآن.

وعلى ما ذكرنا فالآية تبيين لقوله:(يُدَبِّرُ الأمرَ) أو لقوله: (يُفَصِّلُ الأيَاتِ)فقط، فالآية بصدد تبيين مظاهر التدبير فقط ، وليست بصدد بيان أنّه المدبّر دون غيره، أو أنّه الخالق دون غيره. نعم سيصل الإنسان بعد التأمُّل في هذه العوالم إلى أنّه تعالى المدبّر لا سواه، كما سيأتي.

قوله: (وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ): أي بقاع متلاصقة ومتشابهة. وربّما تُفسّر بالمختلفة، فيقال: أرض سبخة وأرض عذبة (التربة الكريمة المنبت)(المصابيح في تفسير القرآن: ٦٠٨.) ولكنّ الظاهر أنّ المراد هو الأوّل لأنّ روح البرهان ـ كما سيوافيك ـ هو وحدة الأُصول واختلاف النتائج، ولازم ذلك أن تفسّرالمتجاورات بالمتشابهات، أي قطع يشبه بعضها بعضاً، ومع ذلك الثمار فيها مختلفة(وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَاب): أي بساتين من شجيرات الكَرْم. وثمار العنب مختلفة في أحجامها ومذاقها وألوانها (وَزَرْعٌ): أي فيها زرع من كلّ نوع وصنف من الحبوب المختلفة التي تكون غذاء للإنسان والحيوان (وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ)والصِّنوان النّخلتان التّابتتان في أصل واحد (وَغَيْرُ صِنْوَان): أي مختلفة الأُصول (يُسْقَى بِمَاء وَاحِد): أي يُسقى كلٌّ من الجنّات والزرع والنخيل بماء واحد لا اختلاف في طبعه (وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْض فِي الأُكُلِ): أي المأكول. (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَات لِقَوْم يَعْقِلُونَ): أي علامات باهرة لذوي الألباب والعقول.

وحاصل البرهان: إنّ الاختلاف في الثمرات والنخلات حتّى الاختلاف في النوع الواحد لابدّ له من منشأ، فما هو؟ فالأرض متشابهة والزرع والفواكه تسقى بماء واحد، والأرض لها طبيعة واحدة، والماء كذلك، ولكنّ الآثار متنوّعة ومختلفة، فكيف حدث هذا؟ ومن أين جاء هذا التباين في الخصائص؟ إنّ العقل المتجرّد من الهوى المرديّ والتقليد المذموم لابدّ أن يردّ هذا الاختلاف في الآثار والنتائج إلى مدبّر يدبّر العالم بعلمه وحكمته. وبذلك ظهر أنّ الآية بصدد بيان دقّة تدبيره سبحانه. نعم يصل الإنسان بعد التأمُّل إلى وحدة المدبّر لأنّ الآلهة المكذوبة أعجز من أن توجد هذا النوع من التدبير.

فإن قلت: يمكن أن يفسّر الاختلاف في الآثار بالاختلاف في الطبائع، فإنّ طبيعة شجرة التفاح غير طبيعة شجرة العنب، وهكذا في الزروع، فإنّ الحبوب مختلفة الطبائع، فيتجلّى أثر الاختلاف في آثارها.

قلت: ما ذكرتَه صحيح، ولكن يُثار هنا السؤال التالي: ما هو السبب في اختلاف هذه الطبائع الداخلية؟ وما هي العلّة في إيجاد هذا التمايز في الطبائع مع أنّ المادة الأُولى مشتركة في الجميع؟ لا محيص عن القول بأنّ هذا التمايز والاختلاف يرجع إلى ربّ قادر عليم حكيم.

هذا، وللسيد جمال الدين الأسدآبادي كلام في تفسير الآية نقله صديقنا الشيخ محمد جواد مغنية في تفسيره ونحن ننقله بنصه:

إذا سُئل داروِن عن الأشجار القائمة في غابات الهند والنباتات المتولّدة فيها من أزمان بعيدة لا يحدّها التاريخ إلاّ ظنّاً، وأُصولها تضرب في بقعة واحدة، وفروعها تذهب في هواء واحد، فما السبب في اختلاف كلّ منها عن الأُخرى في بنيتها وشكلها وأوراقها وطولها وقصرها وضخامتها ورقّتها وزهرها وثمرها وطعمها ورائحتها؟ فأيّ فاعل خارجي أثّر فيها حتى خالف بينها مع وحدة المكان والماء والهواء؟ أظنّ أنّه لا سبيل إلى الجواب سوى العجز عنه. وإذا قيل له: هذه أسماك بحيرة أورال وبحر قزوين مع تشاركها في المأكل والمشرب وتسابقها في الميدان، نرى فيها اختلافاً نوعيّاً وتبايناً بعيداً في الألوان والأشكال والأعمال، فما السبب في هذا التباين والتفاوت؟ فلا أراه يلجأ في الجواب إلاّ إلى الحصر. أي الضيق.(التفسير الكاشف:٤/٣٧٦.)

ثمّ إنّ القول بأنّ الآية بصدد بيان التوحيد في الربوبية فيه خفاء، وذلك لقصور البرهان عن إثباته إذ لقائل أن يقول: إنّ وحدة الأُصول مع الاختلاف في النتائج والفروع، كما يمكن أن يكون نتيجة مدبّر واحد ممكن أن يكون نتيجة مدبّرات مختلفة، كلٌّ أخذ بتدبير كلّ نوع، وبذلك اختلفت الأشجار والثّمار.

نعم، يمكن أن يقال: إنّه سبحانه ببيان هذه الآيات ـ من رفع السماوت بغير عمد ومدّ الأرض وجعل الجبال والأنهار وخلق الأراضي المتجاورة مع جنّات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان ـ يريد ترغيب السامعين إلى دراسة سبب الاختلاف مع وحدة التربة والماء حتى ينتهي إلى الله سبحانه، وأنّه السبب دون غيره.

الآيتان: الخامسة والسادسة (وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ..... وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ).

(وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ).

المفردات

تَعْجَب: العَجَب حالة تعرض للإنسان عند الجهل بسبب الشيء، وربّما تعرض حين رؤية ما يستبعد في العادة.

الأغلال: واحدها «غُلّ»، وهو طوق من الحديد طرفاه في اليدين ويحيط بالعنق.

المَثُلات: واحدها: مَثُلة بمعنى العقوبات، وفي المصابيح: وقائع الله تعالى في الأُمم الخالية والعقوبات التي تزجر عن مثل ما وقعت لأجله.(المصابيح في تفسير القرآن :٦ و٩.)

وبعبارة أُخرى: العقوبة الشديدة التي تكون مثالاً تمثّل به العقوبات.

التفسير

٥. (وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ):

(وَإِنْ تَعْجَبْ) من شيء (فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ) التنكير هنا للتنبيه أو للتعظيم (أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ)والاستفهام في كلامهم استفهام إنكاري، وقد تكرّر هذا الاستفهام في عدّة مواضع من القرآن الكريم.(انظر: الإسراء:٤٩ و ٤٩؛ المؤمنون:٣٥؛ النحل:٦٧؛ سبأ:١٧؛السجدة:١٠؛الصافات:١٦؛ الواقعة:٤٧؛ والنازعات:١٠ و١١.) والله سبحانه أبطل إنكارهم للبعث والنشور بعدم معرفتهم لقدرة ربّهم كما يقول: (أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ): أي أنكروا قدرة ربّهم ولم يعرفوه حقّ معرفته، ولذلك تصوّروا عجزه عن إحياء الموتى.

ثم وصف مصيرهم بأُمور:

مصير المشركين يوم القيامة

١. (وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ) يوم القيامة، جزاء لهم على كفرهم الذي مبعثه العناد والشقاق.

٢. (وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ): أي الماكثون في النار.

٣. (هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ).

ففي يوم القيامة يُجرّون إلى النار وفي أعناقهم الأغلال التي تدلّ على ذلّتهم، ويمكثون فيها دائماً.

ثمّ إنّ هنا احتمالاً آخر في معنى كون الأغلال في أعناقهم يذكره السيد الطباطبائي، وهو أنّ المراد من الأغلال قيود الجهل وأغلال الجهل والإنكار، فكما أنّ الأغلال المادية تسلب الحركة عن الإنسان والسعي لواجبه، فهكذا القيود المعنوية تصدّ هؤلاء عن

التفكّر في أمر المعاد، وأنّه أمر يسير على الله سبحانه.

ثمّ إنّه سبحانه يردّ هذا الاستبعاد الواهي في غير واحدة من الآيات، فتارة يفنّده بأنّ خلق الإنسان من تراب في ضمن مراحل أدلّ دليل على إمكان إعادة خلقه من جديد، كما يقول: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ).(الحج:٥.)

وأُخرى بأنّ القادر على المبتدأ قادر على المعاد كما يقول:(وَهُوَ الذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَ لَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ).(الروم:٢٧.)

وثالثة يفنّد كون الإنسان هو العظم واللّحم والعروق والأعصاب والدماء الجارية فيها، بل هو ثوب على الإنسان الواقعي وهو روحه، ولو مات فإنّما يفسد بدنه أي الثوب المتجلّي به، وأمّا واقع الإنسان وحقيقته فهو باق عند الله لا يفسد، يقول سبحانه:(وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ).(السجدة:١٠.) فقوله سبحانه ـ حكاية عنهم ـ : (ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ) إشارة إلى شبهتهم بأنّ الموت إبطال للشخصية وليس الإنسان إلاّ مجموعة خلايا وعروق وأعصاب وعظام وجلود تعمل بانتظام، فإذا مات وصار تراباً بطلت شخصيته من الأساس.

ثمّ إنّه سبحانه أجاب بجوابين: أوّلهما: (بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ)ومعناه: أنّ إنكارهم المعاد صار سبباً لطرح هذه الشبهة ولولا هذا لما لجأوا إليها.

ثمّ أجاب بجواب ثان وهو: أمر النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) أن يقول:(قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ): أي يأخذكم ملك الموت الذي وكّل بكم، فما هو الأصل الأصيل مأخوذ لملك الموت وهو باق عندنا(ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ): أي شخصيتكم الحقيقية (وهي الروح) لا تضل أبداً وهي عندنا محفوظة، فالضال هو الذي لا صلة له بشخصية الإنسان، فكلّما تعلّقت إرادته سبحانه بإعادة الإنسان يوم القيامة يعيدها إلى بدنه، فيكون المعاد هو نفس المبتدأ. وسيوافيك توضيح ذلك في سورة السجدة عند تفسير الآية.

٦. (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاَتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ):

الطعن في رسالة النبي بالاستعجال بالسيّئة قبل الحسنة

تقدّم في الآية السابقة أنّهم طعنوا في رسالة النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) باستحالة إحيائهم بعد أن يموتوا ويصيروا تراباً. ثمّ إنّهم طعنوا في رسالته بأمر ثان، وهو الاستعجال بالسيئة قبل الحسنة. وأُريد بالسيئة وعيد الرسول على تكذيبهم، وذلك استهزاء به(صلى الله عليه وآله وسلم). وكان يُفترض أن يسألوا الرحمة والسّلامة من الأسواء، ولكنّهم ـ لكفرهم ـ، طلبوا نزول العذاب عليهم دون المغفرة!! ويظهر ذلك أيضاً من آيات غيرها، كقوله:(فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)(الأنفال:٣٢.)، وقوله: (أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا)(النمل:٤٦.)، بل يظهر من بعض الآيات أنّ الأُمم الماضية المعاندين لرسلهم كانوا يستعجلون بالسيئة قبل الحسنة، قال سبحانه ـ حكاية عن صالح(عليه السلام)ـ:(قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلاَ تَسْتَغْفِرُونَ اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)(الإسراء:٩٢.)، ولم يكن لهؤلاء المعاندين من جواب إلاّ الهراء كما يحكيه عنهم سبحانه:(قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ).(النمل:٤٧.)

ثمّ إنّه سبحانه يوبّخهم بأنّهم لو لم يروا آثار العذاب النازل على الأُمم السابقة ربّما سَهُل الأمر في استعجالهم، غير أنّهم رأوا ما نزل على أُولئك من العذاب كما يقول:(وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاَتُ): أي مضت من قبلهم العقوبات التي يقع بها الاعتبار وما حلّ

بهم من المسخ والخسف والصاعقة والغرق والريح، ومع ذلك كيف يطلبون السيئة؟

وبما أنّ تأجيل العذاب وتأخيره صار سبباً لاغترار هؤلاء وكأنّهم زعموا عجز النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) عن إنزال العذاب، فالله سبحانه يردّ على هذا الزعم بأنّ التأجيل والتأخير والإمهال لأجل (وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ): أي بما أنّ ربّك ذو مغفرة ورحمة مع ظلم هؤلاء، يؤجِّل العذاب ويؤخِّره، ولولا أنّه ذو مغفرة للناس في حالة ظلمهم، أي حالة استعجالهم العذاب لأنزل العذاب عليهم واستأصلهم، وإنّما يصدّه عن هذا كونه ذا رحمة ومغفرة. وبما أنّ هذه الفقرة قد تورث جرأة للمشركين، أردفها بقوله:(وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ). والتعبير بـ(رَبَّكَ) يدلّ على أنّ الطرف المخالف مشرك لا يقول بربوبية الله. ثمّ إنّه قال:(لَذُو مَغْفِرَةٍ)ولم يقل غافر، ولعلّه للتحرّر من أن يدلّ على فعلية المغفرة لجميع الظالمين حين ظُلمهم، فكأنّه يقول: إنّه لذو صفح عن الناس، ولكن ليس ذلك مجرّداً عن إمكان العقاب، قال النبي الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم):«لولا عفو الله وتجاوزه ما هنأ أحداً العيش، ولولا وعيد الله وعقابه لاتّكل كلّ واحد».(مجمع البيان:٦/١٣.)

غفران الذنوب بلا توبة

ذهبت المعتزلة إلى أنّ مرتكب الكبائر إذا مات بلا توبة يكون مخلّداً في النار، لأنّ الله توعّده بذلك، ولابدّ أن ينفذّ وعيده. نعم لو تاب، فالتائب من ذنبه كمن لا ذنب له، لكنّ الآية تدلّ على خلاف مذهبهم، فالله سبحانه يصف نفسه بأنّه ذو مغفرة للناس في حال ظلمهم، فالفقرة ظاهرة في إمكان شمول مغفرة الله للظالمين أنفسهم بارتكاب المعاصي، ما عدا الشِّرك، فالله سبحانه لا يغفر الشِّرك، لقوله تعالى:(إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشاء).(النساء:٤٨ و ١١٦.)

قال الشريف المرتضى(رحمه الله): في هذه الآية دلالة على جواز المغفرة للمذنبين من أهل القبلة، لأنّه سبحانه دلّنا على أنّه يغفر لهم مع كونهم ظالمين، لأنّ قوله: (عَلَى ظُلْمِهِمْ) إشارة إلى الحال التي يكونون عليها ظالمين، ويجري ذلك مجرى قول القائل: أنا أودّ فلاناً على غدره، وأصِلُه على هجْره، (وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ) لمن استحقّه.(مجمع البيان:٦/١٣.)

وأجاب صاحب الكشّاف عن الاستدلال: أنّه يريد السيئات المكفَّرة لمجتنب الكبائر، أو الكبائر بشرط التوبة، أو يريد بالمغفرة الستر والإمهال.(تفسير الكشاف:٢/١٥٩.)

يلاحظ عليه: بأنّه تأويل بلا دليل مع إطلاق قوله: (عَلَى ظُلْمِهِمْ)، فإنّ إطلاقه يشمل الصغائر والكبائر، فتخصيصه بالأُولى من قبيل تفسير الآية وفق العقيدة.

فإن قلت: لعلّ المراد من المغفرة: العقاب المؤجَّل بالدنيا، لا مطلق العقاب، فالآية ناظرة إلى أنّه سبحانه يُمهل المشركين، ولا يعاجلهم بالعذاب، وأين هذا من غفران كبائرهم يوم القيامة؟

قلت: المراد من الغفران في الآية هو غفران الذنوب يوم القيامة، بقرينة مقابله، حيث قال: (وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ). وقال: (وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ).

فذيل الآية (لَشَدِيدُ الْعِقَابِ) دليل على أنّ المراد هو غفران الذنوب التي تستوجب العقاب الشديد الذي يصيب الإنسان يوم القيامة.

روى الصَّدوق بإسناده عن إبراهيم بن العباس]الصُّوليّ[قال: كنّا في مجلس الرضا(عليه السلام) فتذاكروا الكبائر وقول المعتزلة فيها: «إنّها لا تُغفر» فقال الرضا(عليه السلام):قال أبو عبد الله(عليه السلام)(يعني الإمام الصادق(عليه السلام).):«قد نزل القرآن بخلاف قول المعتزلة، قال الله عزّ وجلّ: (وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ).(التوحيد للصدوق: ٣٩٥، الباب ٦٣، رقم الرواية٤. ٣. النساء:٤٨.)

وحاصل الكلام:انّ إمكان غفران الذّنوب الكبائر بلا توبة أمر صحيح، يدلّ عليه ـ وراء ما سبق ـ قوله تعالى: (إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ)(٣)، ومورد الآية هو الشِّرك وما دونه بلا توبة، فيفرّق بينهما، وإلاّ فمع التوبة يغفر سبحانه عامّة الذّنوب.

الآية السابعة٧. (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْم هَاد):

٧. (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْم هَاد):

مهمّة النبيّ التبليغ والإنذار لا الإجابة لكلّ مقترح

تقدّم أنّ المشركين المعاندين طعنوا في رسالة النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) تارة بزعم الاستحالة في إحياء الموتى، وأُخرى باستعجال العذاب، وثالثة بعدم الاعتداد بالآيات المنزلة على رسول الله، فاقترحوا عليه(صلى الله عليه وآله وسلم) الإتيان بنحو آيات موسى وعيسى (عليهماالسلام) بانقلاب العصا حية أو إحياء الموتى، كما يقول: (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا) عناداً (لَوْلاَ)تحضيضية (أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ) من الآيات التي نزلت على موسى(عليه السلام) وعيسى المسيح(عليه السلام) من ربّهما، فأجاب عنه سبحانه بقوله: (إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ) والقصر هنا إضافي بمعنى أنّك لم تبعث بالإجابة لكلّ ما يقترحون، وعلى هذا فلا منافاة بين كونه منذراً ومبشّراً، ثمّ يقول:(وَلِكُلِّ قَوْم هَاد) يهديهم إلى الصراط المستقيم، فلا فرق بينك وبين من سبقك من الأنبياء في أنّ مسؤوليتكم هي هداية الناس لا الإجابة لكلّ المقترحات، غير أنّ اللازم إتمام الحجّة بالآية المعجزة وهي تختلف بما يناسب حال المرسل إليهم، ولذلك اختلفت معاجز السابقين عن المعجزة الكبرى التي أتى بها النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) ; لأنّ هؤلاء القوم كانوا في القمّة من الفصاحة والبلاغة، والشعر والخطابة، فجعل الله تعالى معجزته الكبرى هي القرآن الكريم، ثم تحدّاهم فعجزوا عن المباراة من يومهم الأوّل إلى يومنا هذا.

ثمّ إنّ الظاهر من قوله: (وَلِكُلِّ قَوْم هَاد) هو الإطلاق من غير تخصيص بما سبق النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) وما تأخّر عنه، فيدلّ على وجود الهادي للأُمة المرحومة بعد رحيل النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)، وقد روى أبو جعفر الطبريّ بإسناده عن ابن عباس، قال: لمّا نزلت :(إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْم هَاد) وضع (صلى الله عليه وآله وسلم) يده على صدره، فقال: «أنا المنذر»، وأومأ بيده إلى منكب عليّ، فقال: «أنت الهادي يا عليّ، بك يهتدي المهتدون بعدي».(جامع ا لبيان(تفسير الطبري):٨/١٣٨، برقم ٢٠١٦٣.)

وأخرج ابن مردويه عن أبي برزة الأسلمي: سمعت رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)يقول: «(إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ) ووضع يده على صدر نفسه، ثم وضعها على صدر عليّ، ويقول: (وَلِكُلِّ قَوْم هَاد).(الدرّ المنثور:٤/٦٠٨.)

وأخرج ابن مردويه والضياء في المختارة، عن ابن عباس في الآية: قال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم): «المنذر أنا، والهادي علي بن أبي طالب(رضي الله عنه)».(نفس المصدر.)

وقد تضافرت الروايات من طرقنا على هذا.(انظر: البرهان في تفسير القرآن:٥/٣٠٤ـ ٣٠٥.) ونقتصر هنا على ذكر رواية واحدة منها.

روى الكليني بسند صحيح عن بُريد العجلي، عن أبي جعفر]الباقر[(عليه السلام) في قول الله عزّ وجلّ:(إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْم هَاد)فقال:«رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)المنذر، ولكلّ زمان منّا هاد يهديهم إلى ما جاء به نبيّ الله(صلى الله عليه وآله وسلم) ثم الهداة من بعده عليٌّ، ثمّ الأوصياء واحد بعد واحد».(الكافي:١/١٩١ـ ١٩٢، باب أنّ الأئمّة(عليهم السلام) هم الهداة.)

ثمّ إنّه يستفاد من قوله سبحانه:(وَلِكُلِّ قَوْم هَاد) وجود الهادي في كلّ زمان، ويؤيّده قول الإمام علي(عليه السلام):«وَلَمْ يُخْلِ اللّهُ سُبْحَانَهُ خَلْقَهُ مِنْ نَبِيٍّ مُرْسَل، أَوْ كِتَاب مُنْزَل، أَوْ حُجَّة لاَزِمَة، أَوْ مَحَجَّة قَائِمَة».(نهج البلاغة: الخطبة ١.)

وفي كلام آخر له(عليه السلام):«اللّهُمَّ بَلَى! لاَ تَخْلُو الاْرْضُ مِنْ قَائِم لِلّهِ بِحُجَّة، إِمَّا ظَاهِراً مَشْهُوراً، وَإِمَّا خَائِفاً مَغْمُوراً، لِئَلاَّ تَبْطُلَ

حُجَجُ اللهِ وَبَيِّنَاتُهُ».(نهج البلاغة: قصار الحكم، برقم١٤٧.)

والآية الكريمة والروايات تدلّ على ما عليه الإمامية من عدم خلوّ الأرض من حجّة بين ظاهر مشهور وخائف مغمور.

وقد وافق عدد من كبار محدّثي السنّة الإمامية فيما ذهبوا إليه من دلالة الروايات على ضرورة وجود الحجّة في الأرض، ومنهم: ابن حجر العسقلاني، الذي قال ـ حينما وقف على مقام المهديّ المنتظر في السنّة الشريفة ـ : في صلاة عيسى خلف رجل من هذه الأُمّة مع كونه في آخر الزمان وقرب قيام الساعة، دلالة للصحيح من الأقوال أنّ الأرض لا تخلو عن قائم لله بحجّة، والله أعلم.(فتح الباري:٦/٤٩٤، برقم ٣٤٤٨.)

معاجز النبيّ الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم) غير القرآن

قد ينقدح في أذهان البعض عندما يقرأ قوله تعالى:(لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ): أنّ النبيّ قد جاء بمعجزة خالدة وهي القرآن الكريم، فهل انحصرت معاجزه(صلى الله عليه وآله وسلم) في القرآن فقط أو أنّه جاء بمعجزات أُخرى؟

والجواب: إنّ شبهة انحصار معاجز النبي الأكرم في القرآن الكريم قد أُثيرت ولأوّل مرّة من قبل الكتّاب المسيحيّين لتقليل أهمية الدعوة المحمدية والحطّ من شأن الرسول الأكرم ومنزلته وعظمته، حيث زعموا أنّ معاجزه(صلى الله عليه وآله وسلم) كانت منحصرة في القرآن الكريم وأنّه كان يتحدّى قومه بالقرآن فقط، وكلّما طالبه قومه بأن يأتي لهم بمعجزة أحالهم على القرآن ولم يُظهر لهم أية معجزة غيره.

فهذا القسيس الألماني المعروف «فندر» صاحب كتاب «ميزان الحق» الذي كتبه حول حياة الرسول الأكرم يقول في كتابه المذكور ص ٣٧٧ منتقداً النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم): إنّ من شروط النبوّة أن يأتي مدّعيها بمعجزة لإثبات مدّعاه ولكنّ محمّداً لم يأت بأيّة معجزة قط. ثمّ استشهد على مدّعاه بالآية ٥٠ من سورة العنكبوت، والآيات ٨٩ـ ٩٣ من سورة الإسراء، والآيتان ١٠٩ و ١١٠ من سورة الأنعام، وغيرها من الآيات.

ولم ينفرد «فندر» بطرح هذه الشبهة والانتقاد، بل أثارها قساوسة آخرون، منهم مؤلّف كتاب «منار الحقّ» الذي تُرجم إلى اللغة العربية حيث أثار الشبهة في كتابه المذكور.(أنيس الأعلام:٥/٣٤٩ـ ٣٥١.)

وقد ذكر المرحوم فخر الإسلام(هو قسّ مسيحيّ، أسلم وكتب حول النصرانية وما فيها من تناقضات وخرافات كتابه القيّم «أنيس الأعلام» وغيره من الكتب القيّمة. ولد في أرومية (بإيران) سنة (١٢٦٧هـ)، وتوفّي بطهران نحو سنة (١٣٣٠هـ). انظر: معجم طبقات المتكلّمين:٥/٤٣٥، برقم ٧٢٢.):

إنّ «المسيو جورج دوروي» ألّف كتاباً حول حياة نبيّ الإسلام(صلى الله عليه وآله وسلم)رسم في الصفحة ١٥٧ منه صورة خيالية للنبيّ الأكرم وبيده ورقة من القرآن الكريم، وكتب تحت الصورة: هكذا كان محمد كلّما طالبه قومُهُ بمعجزة ردّهم قائلاً: ليس لي ان آتيكم بمعجزة إلاّ بإذن الله ولكنّ الله لم يمنّ عليّ بهذه النعمة، أي نعمة إظهار المعاجز.(أنيس الأعلام:٥/٣٥١.)

إنّ كلام هذا المستشرق يتألّف من فقرتين: الفقرة الأُولى منها هي عين الحقيقة، وهي قوله:«إنّه ليس لي أن آتيكم بمعجزة إلاّ بإذن الله».

وهذا كلام صحيح نؤمن به ونعتقده ويؤيّده القرآن الكريم، حيث قال سبحانه:(...وَمَا كَانَ لِرَسُول أَنْ يَأْتِيَ بِآيَة إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ...).(الرعد:٣٨.)

وأمّا الفقرة الثانية فهي افتراء وكذب حيث ادّعى أنّ النبيّ الأكرم قال: «ولكنّ الله لم يمنّ عليّ بهذه النعمة ولم يعطني أيّة معجزة» ولا ريب في أنّ هذا الكلام تقوّل وافتراء على الرسول الأكرم، بل دلّت الشواهد الكثيرة على أنّه(صلى الله عليه وآله وسلم) قد أتى بمعاجز كثيرة لقومه، وأنّ اللُّطف الإلهيّ ـ في هذا المجال ـ قد شمله كباقي الأنبياء والرسل(عليهم السلام).

كذلك من بين القساوسة القدامى نجد القسيس«اناركلي» مؤلّف كتاب «مشكاة الصدق» الذي طبع في لاهور عام ١٩٠١م قد سطّر هذه الشبهة في كتابه المذكور. وكان قد سبق بقية الكتّاب المسيحيين في إثارة تلك الشبهة، واستشهد بآيات من القرآن الكريم على مزعمته هذه.

ثمّ إنّ بعض كتّاب السيرة المعاصرين قد نقل تلك الشبهة وطريقة الاستدلال عليها واعتبرها من بُنات أفكاره مدّعياً أنّ الرسول الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم)كلّما واجهه قومه بطلب المعجزة منه قابلهم بالسكوت أو الانصراف، وكان يكتفي بالردّ عليهم: (إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ)(الكهف:١١٠.)، وما عليّ إلاّ البلاغ، وقوله:(إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ).(الأعراف:١٨٨.)

إنّ هذا الكاتب لم يُشر إلى جذور تلك الشبهة في أوساط الكتّاب المسيحيين، وكأنّه المؤسّس والباني لهذه الفكرة وهذا البحث!!

وخلاصة هذه الشبهة هي أنّه لم تكن لنبيّ الإسلام أية معجزة سوى القرآن الكريم، وإلاّ لما اعترض عليه المشركون بقولهم:(لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ)، لكنّ الاستدلال ضعيف جدّاً لأنّهم اقترحوا أن يكون للنبيّ الخاتم(صلى الله عليه وآله وسلم) آية من تلك الآيات التي أوتيها موسى وعيسى(عليهما السلام)، وبما أنّ معجزة كلّ نبيّ يجب أن تكون مناسبة للفنّ الرائج في زمانه، لم يقم النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) ـ بإذن الله تعالى ـ بنفس ما قام به النبيّان، وأمّا أنّه لم يؤت معجزة تكوينية غير القرآن، فليست الآية بصدد نفيه، وذلك لأنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) جاء بمعاجز أقوى وأرقى ممّا أُوتي النبيّون، نذكر منها ما يلي:

١. حادثة انشقاق القمر التي نصّ عليها سبحانه بقوله:(اِقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ * وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ)(القمر:١ـ٢.)، وشهدت بها روايات عديدة. والآية صريحة، وكذلك الروايات، في ظهور هذه الآية الكونية على يد النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)، ومع ذلك أعرض عنها المشركون المعاندون، ونسبوها إلى السِّحر.

٢. الإسراء وقد دلّت الآيات الواردة حول إسراء النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) أنّه سبحانه(أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى)(الإسراء:١.) وهي آية كونية لم يقم بها النبيّان السابقان، على أنّه يستفاد من بعض الآيات أنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) إذا قام بمعجزة كونية اعترضوا عليه بأنّه يجب عليه أن يأتي بمثل ما أُوتي رسل الله، قال سبحانه:(وَ إِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ)(الأنعام:١٢٤.) فتنكير (آيَةٌ) دليل على أنّ المراد غير القرآن الكريم بل آية كونية.

أضف إلى ذلك تواتر الروايات على صدور معاجز عن النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)وكرامات جمعها المحدّثون في كتبهم، وأجمع كتاب عندنا هو «مدينة المعاجز» للسيد هاشم البحراني (المتوفّى ١١٠٧هـ).

فخرجنا بالنتيجة التالية: أنّ الاستدلال بالآية ساقط جدّاً. وقد استعرضنا الآيات التي يمكن أن يستدلّ بها القساوسة على أنّه لم يكن للنبيّ الخاتم(صلى الله عليه وآله وسلم) معجزة غير القرآن في كتابنا «مفاهيم القرآن»، فمن أراد التفصيل فليرجع إليه.(لاحظ: مفاهيم القرآن:٤/١٢١ـ١٧٣.)

الآيات: الثامنة إلى الحادية عشرة(اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى.... وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَال).
(اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْء عِنْدَهُ بِمِقْدَار* عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ* سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْف بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ * لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْم حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْم سُوءاً فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَال).
المفردات
تغيض: الغيض: ذهاب الماء إلى جهة العمق، وغاضت المياه أي نقصت. سارب: سائر وذاهب في طريقه، يقال: خَلِّ له سَرْبَه، أي طريقه .

قال الأخنس بن شهاب:

ألا كلّ قوم قاربوا قيد فحلهم *** ونحن خلعنا قيده فهو ساربُ

معقِّبات: المعقّبات المتناوبات التي يخلف كلّ منها صاحبه، ويكون بدلاً منه. وأصل التعقيب أن يكون الشيء عقيب الآخر، ومنه العِقاب لأنّه يستحق عقيب الجرم، والعُقاب يُعقب الصيد، ويطلبه مرّة بعد أُخرى.

وال: الوالي: الذي يلي أمر أحد ويشتغل بأمره اشتغال تدبير ونفع.

التفسير

النظر في هذه المجموعة يثبت أنّها بصدد بيان سعة علم الله سبحانه لكلّ خفيّ وظاهر، وأنّه عزّ وجلّ عالم الغيب والشهادة، إنّما الكلام حول صلة هذه المجموعة بما قبلها من الآيات. ويمكن أن يقال: إنّ المشركين أنكروا إمكان المعاد بحجّة أنّ أجزاء الإنسان بعد موته تتفرّق في الأرض وتتناثر في أماكن مختلفة، فكيف يمكن أن تجمع هذه الأجزاء حتى يتشكّل منها جسم الإنسان؟ والله سبحانه ببيان سعة علمه ـ كما سيأتي ـ أبطل هذه الشبهة بأنّه عالم بما في الأرحام بشكل سيأتي توضيحه، وهو عالم بمن أسرّ القول أو جهر به، وعالم بمن هو مستخف باللّيل وساربٌ بالنهار، فبهذا العلم الوسيع يجمع ذرّات جسد كلّ إنسان تشتّتَ وتفتَّت في أنحاء الأرض، وإلى هذا الوجه يشير الطبرسيّ بقوله: اتّصلت الآية الأُولى: (اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى) بقوله تعالى: (وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ) فإنّه احتجاج للبعث، والمعنى: أنّه من كان بهذه الصفة في القدرة والعلم فإنّه يقدر على البعث.(مجمع البيان:٦/٢٠.)

وكان الأَولى أن يقول: اتّصلت مجموعة هذه الآيات بقوله:(وَإِنْ تَعْجَبْ) لا خصوص الآية الأُولى.

ثمّ إنّه ذُكرت لصلة الآية بما قبلها وجوه أُخرى أوردها الطبرسي، والأَولى ما ذكرنا.

٨ . (اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْء عِنْدَهُ بِمِقْدَار):

الآية تدلّ على علمه سبحانه بالأُمور الثلاثة التالية:

١. (مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى).

٢. (وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ).

٣. (وَمَا تَزْدَادُ).

ثمّ أردف علمه بهذه الأُمور الثلاثة بأمر رابع وهو: (وَكُلُّ شَيْء عِنْدَهُ بِمِقْدَار).

أمّا الأوّل فالظاهر منه أنّ المحور للعلوم الثلاثة هو الأرحام وأنّ الحمل والغيض والزيادة يحدث فيها، وهي الموضوع له.

وعلى هذا فالمراد من قوله: (اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى) هو الجنين الذي يحمله الرَّحم، وهل هو ذكر أو أُنثى، بل بكل خصائصه وصفاته الكامنة فيه، وهذا يختصّ بالله سبحانه.

وربما يقال: أنّ الحصر إضافي وأنّ الله سبحانه يعلم بالاستقلال والآخرون يعلمون بتعليمه، كسائر الأُمور، فإنّ علمه سبحانه على سبيل الاستقلال وغيره بتعليم منه.

يلاحظ عليه: أنّه لو أُريد ذلك لم يكن لتخصيص ذكر ما في الآية، وجه، فإنّ العلم به وإن كان غامضاً ولكن ما أكثر الغموض في عالم الخلق فالله سبحانه يعلم سرّه بالاستقلال، والآخرون بالتعليم.

فتخصيص ما ذُكر في الآية يدلّ على أنّ الوجه بذكره هو اختصاصه بالله سبحانه. وقد علمت ما هو وجه التخصيص.

ثمّ إنّ هذا النظام الدقيق للجنين أقوى دليل على علمه الوسيع وقدرته التامّة.

وأمّا الثاني أي: (وَمَا تَغِيضُ) فهو عبارة عن دم الحيض الذي يصرف في تغذية الجنين وبذلك يوصف بالغيض والنقصان.(الصحيح حذف لفظة (الحيض) لأنّ الجنين لا يتغذّى من دم الحيض، وإنّما يحصل على الغذاء والأوكسجين من دم الأُمّ من خلال المشيمة التي يتّصل بها الجنين بوساطة الحبل السّري.)

وأمّا الثالث أي: (وَمَا تَزْدَادُ) هو الدم الذي يقذفه الرّحم إمّا أيام الحمل وهو قليل، أو عند وضع الحمل كدم النفاس.

وما ذكرناه هو خيرة السيد الطباطبائي(لاحظ: الميزان في تفسير القرآن:١١/٢٦٣.)، ويظهر من السيد الرضيّ تفسير الفقرة الثانية بمثل ما مرّ حيث قال: وهذه استعارة عجيبة لأنّ حقيقة الغيض إنّما يوصف بها الماء دون غيره، يقال: غاض الماء، ولكن النطفة لما كانت تسمّى(ماء) جاز أن توصف الأرحام بأنّها تغيض في قرارها وتشمل على نقاعاتها فيكون ما غاضته من ذلك الماء سبباً لزيادته بأن يصير علقة ثم مضغة ثم خلقة مصوّرة، فذلك معنى قوله:(وَمَا تَزْدَادُ).(تلخيص البيان في مجازات القرآن:٧٥.)

ولولا قوله: فذلك معنى قوله:(وَمَا تَزْدَادُ)، يكون مطابقاً لما اختاره صاحب الميزان.

تفسير آخر للفقرات الثلاث

تضافرت الروايات عن أئمة أهل البيت(عليهم السلام)على أنّ المراد من قوله: (تَغِيضُ الأَرْحَامُ): أي ما تسقط وتنقص عن تسعة أشهر، كما أنّ المراد من قوله: (وَمَا تَزْدَادُ): أي ما زاد على التسعة. وبعبارة أُخرى:إنّ المراد من الغيض ما كان أقلّ من الحمل، ومن الزّيادة ما زاد على الحمل.(لاحظ : تفسير نور الثقلين: ٢/٤٨٥؛ البرهان في تفسير القرآن: ٥ / ٣١٢ ـ ٣١٦.)

وعلى هذا فالفقرة الأُولى ناظرة إلى بقاء الحمل بلا زيادة ولا نقيصة، والثانية إلى النقيصة، والثالثة إلى الزيادة، والله يعلم كلّ ذلك ويعلم وقت الولادة بالتحديد، وهذه التقلّبات والحالات لا يستطيع أي أحد أو أيّ جهاز أن يحدّد موعدها. وهذا العلم خاصّ بذات الله المنزّهة، وسببه واضح، لأنّ استعدادات الأرحام والأجنّة مختلفة ولا يقف أحد على هذا التفاوت.

إلى هنا تبيّن معنى الفقرات الثلاث، وأمّا الرابعة أعني قوله تعالى: (وَكُلُّ شَيْء عِنْدَهُ بِمِقْدَار)، فمقدار مصدر ميمي، والمعنى: بتقدير، أي كلّ شيء عند الله سبحانه له حدّ محدود، ولازم ذلك إحاطته به، وعدم غيبوبته عنه، فهذه الفقرة علّة لصدر الآية، أعني قوله:(اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى).

وبعبارة أُخرى: تحديد الشيء كمّاً وكيفاً لا ينفكّ عن العلم به، فلازم هذه الكبرى هو علمه بما تحمل كلّ أُنثى، وقد أُشير إليه في آية أُخرى في قوله سبحانه: (وَإِنْ مِنْ شَيْء إِلاَّ عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَر مَعْلُوم).(الحجر:٢١.)

٩. (عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ):

الآية تصف الله سبحانه بصفات ثلاث:

١. (عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ).

٢. (الْكَبِيرُ).

٣. (الْمُتَعَالِ).

أمّا الأوّل، أعني: (عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ) فهو من أسمائه سبحانه، وقد تكرّر في الذكر الحكيم عشر مرات، ويشير إلى علمه الوسيع بكلّ شيء، سواء أكان مشهوداً للناس بالأدوات الحسّية أم كان غائباً عنهم، إمّا لامتناع وقوعه في إطار الحسّ أو لضعفه.

ثمّ إنّ وصفه سبحانه بهذا الاسم وصف نسبيّ وإلاّ فالجميع بالنسبة إلى الله سبحانه شهادة لحضور الجميع عنده حضوراً محاطاً والله سبحانه محيط، ومثل ذلك يكون من قبيل الشهود، وإنّما وصف به سبحانه بالقياس إلى الإنسان، فإنّ الأشياء بالنسبة إليه إمّا مشهودة أو مغيّبة عنه.

العلم الذاتي بالغيب منحصر بالله سبحانه

إنّ وصفه سبحانه بهذا الوصف لا ينافي علم النبيّ والوليّ بالغيب، فكم من فرق بين العلمين! فإنّ ما يجري على الله سبحانه من صفات ونعوت يختلف عمّا يجري على غيره، لا بمعنى أنّ للعلم ـ مثلاً ـ معنيَين مختلفَين يجري على الواجب بمعنى، وعلى الممكن بمعنى آخر، فإنّ ذلك باطل بالضرورة، ومثله الحياة والقدرة، بل المراد اختلاف المحمول عند الجري على الواجب والممكن اختلافاً في كيفية الجري والاتّصاف، فإنّ العلم منه واجب، ومنه ممكن.. منه ذاتي، ومنه اكتسابي.. منه مطلق ومرسل عن القيود، ومنه مقيّد محدود.. منه ما هو عين الذات بلا تعدّد بين الوصف والموصوف، ومنه ما هو زائد على الذات. ومن المعلوم أنّ ما يجري على الواجب هو القسم الأشرف، وما يجري على الممكن هو القسم الأخسّ، فعند ذلك تظهر صحّة اختصاص العلم بالغيب والشهادة بالله سبحانه، فإنّ العلم الواجب، المطلق، الذي هو عين الذات، يختصّ به سبحانه، سواء أتعلّق بالغيب أم بالشهادة، وأمّا علم الشهادة فإنّما هو علم ممكن لا واجب، محدود لا مطلق، زائد على الذات لا عينها، فلا يضر ثبوته لغيره مع حصر مطلق العلم، سواء أتعلّق بالغيب أم بالشهادة عليه سبحانه .

وبذلك ظهر أنّ إطلاع الأنبياء على الغيب بإذن من الله سبحانه لا يضرّ بحصر علم الغيب بالله تعالى، فإنّ المحصور من العلم غير المشترك.(قد أشبعنا الكلام في حقيقة الغيب والشهود في موسوعتنا القرآنية: مفاهيم القرآن: ٣ / ٣٧٥ ـ ٣٨٢، الفصل السادس، فلاحظ.)

وأمّا الوصف الثاني، أعني:(الْكَبِيرُ) فقد أُريد به العظيم والعظمة لله سبحانه، كما أنّه الكبير دون غيره، ولو قيل: الله أكبر، فإنّما يُراد به أكبر من أن يوصف أو يحاط به علم، لا أنّه أكبر من كلّ شيء.

وأمّا الوصف الثالث، أعني:(الْمُتَعَالِ)، والقياس يقتضي أن يقال: المتعالي، لوجود اللاّم ولكنْ حذفت الياء لأجل حفظ الفواصل في الآيات التالية.(لاحظ: الآيات:١١ـ ١٥.)

وأُريد به العظمة، والله سبحانه أرفع من أن يُغلَب وأنزه من أن ينقص (تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)(النحل:٣.)

ووجه تعقيب قوله: (عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ) بقوله: (الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ)هو أنّ مفاد مجموع الاسمين أنّه سبحانه محيط بكلّ شيء، متسلّط عليه، ولا يتسلّط عليه شيء، ولا يغلبه شيء، فهو عندئذ يعلم الغيب كما يعلم الشهادة، (وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّة فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ)(يونس:٦١.)لأنّه (الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ).(لاحظ: الميزان في تفسير القرآن:١١/٣٠٨.)

١٠. (سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْف بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ):

صلة الآية بما قبلها واضحة، فإنّه سبحانه لمّا وصف نفسه بالإحاطة العلمية جاءت الآية كالتفريع عليها وأنّه لا فرق عنده بين من أسرّ القول ومن جهر به، كما قال:(سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ) كما لا فرق بين المتستِّر بظلمة الليل عن العيون، ومن هو سائر وذاهب في طريقه بالنهار يشهده كلّ من لقيه، فالشخصان عنده سواء، كما يقول: (وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْف بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ)، فمَن خفي عن أعين الناس أو لم يخفَ، فالجميع عنده سواء.

وبما ذكرنا يظهر أنّ معنى (سَوَاءٌ): أي مستو، أي يتساوى هذا وذاك.

روى الواحدي في أسباب نزول الآية عن ابن عباس أنّه قال: نزلت هذه الآية والتي قبلها في عامر بن الطفيل وأربد بن قيس، وذلك أنّهما أقبلا يريدان رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)، فقال رجل من أصحابه: يا رسول الله هذا عامر بن الطفيل قد أقبل نحوك، فقال دعه فإن يُرِدِ الله به خيراً يَهدِه، فأقبل حتى قام عليه، فقال: يا محمد ما لي إن أسلمت؟ قال: لك ما للمسلمين وعليك ما عليهم، قال: تجعل لي الأمر بعدك؟ قال: لا ليس ذلك إليّ إنّما ذلك إلى الله يجعله حيث يشاء، قال: فتجعلني على الوَبَر وأنت على المَدَر؟ قال: لا، قال: فماذا تجعل لي؟ قال: أجعل لك أعنّة الخيل تغزو عليها، قال: أو ليس ذلك إليّ اليوم؟

وكان أوصى أربد بن ربيعة إذا رأيتني أكلّمه فدُر من خلفه واضربه بالسيف، فجعل يخاصم رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) ويراجعه، فدار أربد خلف النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) ليضربه، فاخترط من سيفه شبراً ثم حبسه الله تعالى فلم يقدر على سلّه، وجعل عامر يومئ إليه، فالتفت رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) فرأى أربد وما يصنع بسيفه، فقال: اللّهمّ اكفنيهما بما شئت.

فأرسل الله تعالى على أربد صاعقة في يوم صائف صاح فأحرقته، وولّى عامر هارباً، وقال: يا محمد دعوت ربّك فقتل أربد، والله لأملأنّها عليك خيلاً جُرداً وفتياناً مُرداً، فقال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم): يمنعك الله تعالى من ذلك وابنا قَيْلة، يريد الأوس والخزرج.

فنزل عامر بيت امرأة سَلوليّة، فلمّا أصبح ضمّ عليه سلاحه، فخرج وهو يقول: واللاّت لئن أصحَرَ محمد إليّ وصاحبه ـ يعني ملك الموت ـ لأنفذنّهما برمحي، فلمّا رأى الله تعالى ذلك منه أرسل ملكاً فلطمه بجناحيه فأذراه في التراب، وخرجت على ركبته غُدّة في الوقت كغُدّة البعير، فعاد إلى بيت السَّلولية وهو يقول: غُدّة كغُدّة البعير وموت في بيت سلوليّة!! ثم مات على ظهر فرسه، وأنزل الله تعالى فيه هذه القصة ـ (سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ) ـ حتّى بلغ ـ (وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَل)(أسباب النزول للواحدي:١٥٦ـ ١٥٧. وانظر: تاريخ الطبريّ:٢/٣٩٨(سنة ١٠هـ).) .

أقول: إذا صحّ الخبر بنزول هذه الآيات في هذه القصة، تكون هذه الآيات مدنيّة، لأنّها حدثت في السنة العاشرة للهجرة، كما ورّخها الطبريّ.

١١. (لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْم حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْم سوءاً فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَال):

اختلف المفسّرون في تفسير الفقرة الأُولى من الآية، غير أنّ بيان ما هو المختار في معناها بحاجة إلى توضيح أُمور:

١. الظاهر أنّ الضمائر الأربع في:(لَهُ)، وفي (مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ)، وفي (يَحْفَظُونَهُ) ترجع إلى أمر واحد، والمرجع الأقرب هو الموصول المتقدّم في الآية السابقة، أعني(مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ). وما ربما يقال من أنّ الضمير في قوله: (لَهُ) يرجع إلى الله سبحانه مع عدم سبق المرجع، ضعيف، لأنّه مخالف لوحدة السياق.

٢. قوله: (مُعَقِّبَاتٌ) جمع: معَقِّبة، والتاء للمبالغة، لأنّه أُريد بها الملائكة وهم ليسوا أُناثاً، فتكون التاء للمبالغة، فالملائكة بما أنّهم يأتي كلّ واحد منهم تلو الآخر، وُصفوا بالمعّقبات، أي متعاقبات.

٣. قوله: (مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ) تعبير عن جميع جوانب الإنسان بروحه وجسمه، فالملائكة يحيطون بالإنسان من كافة الجوانب، ويحفظونه ويرعَونه، كما سيأتي في تفسير الآية.

حفظة الأعمال أو الحفظة عن البلايا

٤. قوله: (يَحْفَظُونَهُ) هل المراد حفظ الأعمال وكتابتها كما يقول سبحانه: (وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ) (الانفطار:١٠ـ ١٢.)، أو أعمّ؟ حيث إنّ الإنسان يتعرّض لحوادث شديدة الخطر وينجو منها بشكل إعجازي ربّما يتصوّر أنّه من باب المصادفة، وإنّما هناك قوى تحميه، فالإنسان منذ ولادته إلى وقت مفارقة روحه جسده، محاط بالبلايا والأخطار، فالله سبحانه يحفظ الإنسان بملائكته ممّا يصيبه، فيحفظونه من المهالك حتى ينتهوا به إلى المقادير، وعندئذ يخلّون بينه وبين المقادير التي لا تتغيّر ولا تتبدّل.

٥. قوله: (مِنْ أَمْرِ اللهِ) الذي يتبادر إلى الذّهن أنّ قوله:(مِنْ أَمْرِ اللهِ)متعلّق بـ (مُعَقِّبَاتٌ) فيكون للإنسان معقّبات أي جماعات من جند الله وأمره. ونظيره قوله سبحانه:(وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا)(الشورى:١٩.) فالمراد بالرّوح هنا القرآن وأنّ وحيه من

شأن الله تعالى وحده.

ولو قيل بأنّ قوله: (مِنْ أَمْرِ اللهِ) متعلّق بقوله:(يَحْفَظُونَهُ) فلابدّ من اختيار أحد أمرين:

١. أن يكون (مِنْ) بمعنى الباء، أي يحفظونه بأمر الله.

٢. أن يقدَّر لفظ: «بأمره»، ويقال: (يَحْفَظُونَهُ) بأمره (مِنْ أَمْرِ اللهِ)، فأُريد بالأمر الأوّل ما كتب على الإنسان من البقاء والصحّة، كما أُريد بالأمر الثاني الفناء والهلاك والبلاء، فهو أيضاً من أمر الله سبحانه، فالملائكة يحفظون الإنسان، بأمر الله سبحانه، من كلّ ما يهدّد سلامته وبقاءه، اللّذين هما أيضاً من أمر الله، فالكلّ يرجع إليه.

الظاهر أنّ المعنى الأوّل من كونه وصفاً للمعِّقبات أوضح من هذا الوجه بكلا قسميه.

إذا عرفت ذلك فنقول: إنّ الإنسان بما أنّه لا يملك لنفسه ضرّاً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، ولا يقدر على حفظ نفسه من البلايا المتعدِّدة المهدِّدة لروحه وجسمه، فمن فضل الله سبحانه أنّه يبعث ملائكة يتوارد كلٌّ مكان الآخر، كما يقول: (لَهُ): أي للإنسان المتقدّم (مُعَقِّبات): أي ملائكة متواردات (مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ): أي من كافّة جوانبه(يَحْفَظُونَهُ): أي ذلك الإنسان، وهذه الملائكة أمر من أمر الله وجند من جنود الله ـ على التفسير الأوّل ـ أو يحفظونه بأمره من أمر الله سبحانه، والله العالم.

وعلى كلّ تقدير، فلولا هؤلاء الملائكة المحامين لأسرع الفساد إلى الإنسان روحاً وجسماً، فمن ألطافه سبحانه حفظه من هذه الشُّرور بالملائكة وإن لم يشعر هو بهؤلاء الحفظة.

إنّ لله سبحانه قضاءين أو سنّتين:

١. سنّة الحفظ والصيانة مادام المقتضي موجوداً، والقيام بمقتضيات الفطرة سائدة.

٢. سنّة تبديل النعمة بالنِّقمة إذا تغيّرت أحوال العبد، واستحقّ سلب النعمة فلا راد لقضائه كما يقول:(وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْم سُوءاً) بسبب انحرافهم عن مقتضيات الفطرة (فَلاَ مَرَدَّ لَهُ): أي لقضاء الله لكونه قضاء صارماً (وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ): أي من دون الله (مِنْ وَال): أي مَن يلي أمرهم.

إنّ الإنسان المادّيّ الذي يتساوى الوجود عنده مع المادة والطاقة فقط ربّما يتصوّر أنّه مذ كان في أحضان أُمّه إلى أن يلفّه كفنه، يعيش بفضل القوى الموجودة في جسمه وروحه، وأنّه يلوذ عند طروء الأمراض إلى الدواء فقط، ولكن الوحي الإلهي كشف عن حقيقة غيبية، وهي أنّ الإنسان في الدار الدنيا محاط بالبلايا المهدّدة لروحه وجسمه، فالله سبحانه يحفظه بملائكته من هذه البلايا مادام لم يترك جانب الخير إلى جانب الشر، والطاعة إلى العصيان. روى مسعدة بن صدقة عن أبي عبد الله[الصادق](عليه السلام) في تفسير قوله:(يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ) قال: «بأمر الله» ثم قال: «ما من عبد إلاّ ومعه ملكان يحفظانه، فإذا جاء الأمر من عند الله خلّيا بينه وبين أمر الله».(البرهان في تفسير القرآن: ٥ / ٣١٥.)

وروى الصدوق بسنده عن أبي خالد الكابلي، قال: سمعت زين العابدين علي بن الحسين(عليهما السلام)يقول:«الذنوب التي تغيّر النِّعم: البغي على الناس، والزوال عن العادة في الخير واصطناع المعروف، وكفران النِّعم، وترك الشكر، قال الله عزّ وجلّ:(إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْم حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)».(معاني الأخبار:٢٧٠، برقم ٢؛ البرهان في تفسير القرآن: ٥ / ٣١٦.)

دلّت غير واحدة من الآيات على وجود الصلة بين أعمال الإنسان والنواميس الكونية، فكما أنّ شرور الأعمال تسبب تغيّراً في الظروف الجوية فتصبح قاسية خالية من نعمة الأمطار، فهكذا الأعمال الصالحة، تسبّب خلاف ذلك، يقول سبحانه:(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَات مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ)(الأعراف:٩٦.)، وقد أخبر بذلك شيخ الأنبياء نوح(عليه

السلام) وقال مخاطباً قومه: (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا).(نوح:١٠ـ١٢)

فالضابطة أمر كلّيّ من كلا الجانبين.

وقد قرأنا في كتب التاريخ أنّ هولاكو المغوليّ حين حاصر الموصل كتب إلى واليها بأنّك إن أعنتنا بالسلاح، لتركنا الموصل بيدك، وقد وصلت إلى الحاكم حين ذاك رسالة أُخرى من خليفة بغداد يطلب منه أن يرسل القَينات والمغنّيات...!(لاحظ: تاريخ الإسلام للذهبي:٤٨/٣٥؛ طبقات الشافعية الكبرى:٨/٢٦٩ـ٢٧٠)

فعندئذ تأسّف والي الموصل وقال: هؤلاء على كفرهم يطلبون السلاح منّا لمآربهم وأهدافهم، وهذا خليفة الإسلام في الوقت الذي يرى أنّ بلاد المسلمين تسقط بيد هولاكو واحداً بعد الآخر، يطلب منّي المغنّيات، فأيّ واحد منهما أحقّ بالانتصار، وقد أيقن والي الموصل بأنّ بغداد سوف تسقط بيد هولاكو، لأنّ (اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ).

ونحن نرى أنّ بعض الكتّاب المعاصرين المتأثّرين بالدعايات الكاذبة يُلقون مسؤولية سقوط بغداد بيد الكفّار الوثنيين على عاتق وزير المستنصر ابن العلقميّ وعلى حكيم الإسلام نصير الدين الطوسيّ، مع أنّهم قد غفلوا عن أنّ الهزيمة كانت مكتوبة مقدّرة على الأُمة الإسلامية التي يرأسها أمثال المستنصر وآبائه الذين لم يكن يهمّهم إلاّ الأكل والشرب والدّعة والراحة.

ثمّ لنفترض أنّ الرجلين المذكورين يتحمّلان كِبر سقوط بغداد، فمَن المسؤول عن القتل الذريع والنهب والحريق الذي بدأ من بلاد خوارزم مروراً بنيشابور التي قتل فيها الآلاف من المسلمين إلى أن وصل جيش المغول إلى أطراف بغداد؟ فهل كان لأصابع ذينك الرجلين دور في تلك الهزائم السابقة؟(مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ).

الآيتان: الثانية عشرة والثالثة عشرة(هُوَ الذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا..... وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ).

(هُوَ الذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ * وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلاَئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ).

المفردات

البرق: لمعان السَّحاب.

السَّحاب الثِّقال: السَّحاب المُثقلة بالماء.

الرَّعد: صوت السَّحاب.

الصواعق: جمع صاعقة، وهي القطعة النارية النازلة من السّماء عن برق ورعد. وسببها أنّ السُّحب قد تمتلئ بالكهربائية والأرض بكهربائية أُخرى والهواء يفصل بينهما، فإذا قاربت السُّحب وجه الأرض، تنقضّ الشرارة الكهربائية فتنزل صاعقة تُهلك الحرث والنّسل.

يجادلون: من الجَدَل، وهو شدّة الخصومة، يقال: جدلت الحبل أي أحكمت فتله.

المِحال: من مَحَل فلان بفلان إذا كايده، يقال: «رجل مَحِلّ» أي مكايد. ومنه قول عبد المطّلب:

لا يغلبنّ صليبُهم *** ومِحالُهم عدواً مِحالكْ

والميم إذا كُسرت أصلية ـ كما في الآية ـ وإذا فُتحت زائدة، مأخوذ من حلّ يحلّ.

التفسير

تقدّم منّا في صدر السورة أنّ الغرض الوحيد لها أو أحد الأغراض هو لفت انتباه المشركين وتوجيه أنظارهم وأذهانهم إلى ربوبيته

وتدبيره سبحانه، وذلك لأنّ العبادة من خواصّ الربّ، وبما أنّهم كانوا يعتقدون بربوبية الأصنام أو ربوبية أرباب الأصنام كالجنّ والملائكة وغيرها، فالله سبحانه ببيان بعض ما يجري في الكون يوجّه نظر المشركين إلى أنّه القائم بهذه الأُمور لا الأصنام التي هي جمادات ولا أرباب الأصنام الذين لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرّاً، ولا موتاً ولا حياة، ولذلك يبدأ الآية بما يفيد الحصر ويقول:(هُوَ الذِي)

١٢.(هُوَ الذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ):

أخبر سبحانه في هذه الآية عن أمرين:

١. إراءة البرق خوفاً وطمعاً.

٢. إنشاء السّحاب الثّقال.

أمّا الأوّل فعبّر عنه بالإراءة والإبصار فقال:(هُوَ الذِي) لا غيره (يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا) من صاعقته (وَطَمَعًا) في مطره وغيثه، فالمسافر يخاف والحاضر يطمع، وراكب البحر يخافه، وأهل البرّ يطمعون. والظاهر أنّ الأمرين (خَوْفًا وَطَمَعًا)حالان من الضمير المتصل في (يُرِيكُمُ): أي يريكم حال كونكم خائفين وطامعين. وعلى هذا فيمكن أن يكون الوصفان مجتمعَين في شخص واحد، فالحاضر ـ مثلاً ـ يخاف من البرق وفي نفس الوقت يطمع في نزول المطر، لكنّ الرواية عن علي بن موسى الرضا(عليه السلام)تؤيّد الوجه الأوّل، قال: «خوفاً للمسافر، وطمعا للمقيم».(تفسير نور الثقلين: ٢ / ٤٨٩.)

وقد أخذ هذا المعنى أبا الطيّب المتنبيّ، فقال:

فتىً كالسَّحاب الجَوْن تُخشى وتُرتجى *** يُرجّى الحَيا منها، وتُخشى الصّواعقُ

وأمّا الثاني، فيقول: (وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ) استخدم سبحانه لفظ الإنشاء لا الإراءة، لعدم كون الإنشاء مرئيّاً. والسَّحاب جمع سَحابة، والثّقال وصفها. وإسناد إنشاء السَّحاب الثّقال إلى نفسه تعالى لا ينافي توسّط العلل الطبيعية في إنشائها، وذلك لأنّه سبحانه بصدد تقرير توحيد الربوبية وأنّه لا ربّ غيره، ومقتضى ذلك أن يسند الظواهر إلى نفسه وإن كانت تتوسّط بينه وبينها أسباب مادّية وطبيعية لأنّها من جنوده سبحانه وأوامره، وعلامة ثقلها بطؤ حركتها بالرّياح.

١٣. (وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلاَئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ):

الآية تتضمّن الإخبار عن الأُمور التالية:

الأمر الأوّل: تسبيح الرعد مع التحميد

أخبر سبحانه عن تسبيح الرّعد بقوله: (وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ): أي ينزّه عن النقائص (بِحَمْدِهِ): أي مع حمده ووصفه بصفات الجمال والكمال. وعلى هذا فالرّعد يقوم بوصف الله سبحانه بصفات الجلال والجمال، إنّما الكلام فيما هو المراد من تسبيح الرَّعد وحمده؟

ذهب كثير من المفسّرين إلى أنّ المراد من تسبيح الرعد هو خضوعه لأمر الله سبحانه وانقياده لقدرته.

يقول الشريف الرضيّ: هذه استعارة لأنّ التسبيح في الأصل تنزيه الله سبحانه عن شبه المخلوقات وتبرئته من مدانس الأعمال وقبائح الأفعال، وهذا لا يقع حتى من الرّعد الذي هو اصطكاك السّحاب بعضه ببعض، والمراد ـ والله أعلم ـ أنّ أصوات الرّعد تقوى به الدلالة على عظيم قدرة الله سبحانه وبعده عن شبه الخليقة المقدّرة وصفات البريّة المدبَّرة.(تلخيص البيان في مجازات القرآن:٧٥.)

ومع ذلك كلّه، فليس لنا العدول عن ظاهر الآية لما سيوافيك في تفسير سورة الحديد من سريان العلم إلى كافّة الموجودات حسب درجة كمالها، وهذه حقيقة قرآنية كُشف عنها، وإن لم نصل إليها بحسّنا.

نعم، إنّ أصحاب الرياضات والكشف يدّعون سماع تسبيح الكائنات.

الأمر الثاني: تسبيح الملائكة من خيفته

أشار إليه سبحانه بقوله:(وَالْمَلاَئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ) فإن قلت: كيف يخافون مع أنّه سبحانه يصفهم بقوله: (يَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ)(النحل: ٥٠، والتحريم: ٦.) وبقوله تعالى: (وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ)(الأنبياء:٢٧.)؟ قلت:المراد أنّ الخوف حالة ذاتية لهم، ولذلك يقول: (وَالْمَلاَئِكَةُ)يسبّحون (مِنْ خِيفَتِهِ): أي في حال الخوف منه.

الأمر الثالث: إرسال الصواعق وإصابتها لمن يشاء الله

يدلّ عليه قوله تعالى: (وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ) فالبرق (الذي هو عبارة عن شرارة كهربائية عملاقة) إذا أصاب سطح الأرض ينزل صاعقة قد تؤدّي إلى صعق الإنسان، أو إلى اشتعال الحرائق. والصواعق هي من رُسُل الإنذار، فكان على المشركين، والحال هذه، أن يتّعظوا، ولكنّهم لم يكترثوا لتلك الآيات والنُّذر، بل راحوا يخاصمون أهل التوحيد، كما تشير إلى ذلك الفقرة الأخيرة من الآية.

الأمر الرابع: جدال المشركين في الله سبحانه

أشار إليه سبحانه بقوله: (وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللهِ): أي في تدبيره لا في وجوده تعالى. وليس جدالهم إلاّ أنّهم يتمسّكون بأنّ عبادة الأصنام من مسالك آبائهم، فهم في الحقيقة (يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ)(الأنفال:٦.) وقد ذكر سبحانه جدالهم في التوحيد وإنكار المعاد في سور مختلفة، ولذلك نرى أنّ سبحانه يهدّدهم بقوله (وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ): أي شديد المكر والذي هو كناية عن قدرته، فالتعبير عن قدرة الله بالمكر، من باب المشاكلة، نظير قوله سبحانه:(وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ).(آل عمران:٥٤.)

ذكر الطبرسيّ أنّه(صلى الله عليه وآله وسلم) كان إذا سمع صوت الرَّعد قال: «سبحان من يسبِّح الرَّعدُ بحمده».

وروى سالم بن عبد الله عن أبيه قال: كان رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) إذا سمع الرَّعد والصواعق قال: «اللّهم لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك».(مجمع البيان:٦/٢٣.)

الآيات: الرابعة عشرة إلى السادسة عشرة(لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ..... وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ).

(لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْء إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَل * وَللهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلاَلُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالاْصَالِ * قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لاَ يَمْلِكُونَ لاِنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا للهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْء وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ).

المفردات

دعوة الحقّ: من قبيل إضافة الموصوف إلى الصفة، أي الدعوة الحقّة في مقابل الدعوة الباطلة، فالأُولى للموحِّدين، وأُشير إليها بقوله:(لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ) والثانية للمشركين، وأُشير إليها بقوله:(وَالَّذِينَ يَدْعُونَ).

لا يستجيبون لَهُم: أي لا يجيبونهم.

كباسط كفَّيه: بَسَط الكفّ: مَدّها.

إلى الماء: يحتمل أن يراد من الماء البئر، قال الشاعر:

فإنّ الماء ماء أبي وجدّي *** وبئري ذو حفرت و ذو طويت

ضلال: الضّلال هو الخروج عن الطريق وعن سلوك ما يوصل إلى المطلوب.
كَرهًا: الكَرْه والكُرْه، واحد، نحو: الضَّعف والضُّعف، وقيل: الكُره ما يأتي به الإنسان من فعل بمشقة، والكَره ما حُمّل عليه من خارج.
بالغدوّ: الغدوّ: جمع غُدْوة، وهي أوّل النّهار، لأنّه الزمان الذي يغدو فيه الناس إلى حوائجهم.
ظلالهم: جمع ظلّ، وهو الظلام الذي يسبّبه جسمٌ ما عندما يحجب الضوء من الوصول إلى سطح ما.
الآصال: جمع أصيل، وهو آخر النّهار، أي وقت اصفرار الشمس.

التفسير

لمّا بيّنت المجموعة السابقة مظاهر تدبيره سبحانه في الكون وأن لا مدبّر ولا مؤثّر في الكون إلاّ الله سبحانه، وقد لفت أنظار الناس إلى مظاهر تدبيره في الجوّ والأرض، صار هذا سبباً للتنديد بعقيدة المشركين في هذه المجموعة، حيث إنّهم يَدْعون الأصنام وأربابها التي هي دعوة باطلة، وأمّا الدعوة الحقّة فهي دعوة الخالق العالم القادر على كلّ شيء، أو كما قال:

١٤. (لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيء إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَل):

دعوة المشرك، كمن يمدّ كفّيه إلى البئر ليصل الماء إلى فمه

قوله تعالى:(لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ) لا لغيره، لماذا؟ لأنّه (هُوَ الذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ) فشأن دعوة هذا دعوة حقّة، لأنّ الغاية من الدعوة توجيه المدعوّ إلى الداعي وهو رهن كون المدعوّ عالماً وقادراً، والله سبحانه في أتمّ العلم والقدرة، وأمّا غيره فهذا ما يشرحه بقوله:(وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ): أي من دون الله (لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ): أي لا يجيبونهم (بِشَيْء) ممّا يريدونه من نفع أو دفع ضُرّ، فشأن مثل هذه الدعوة دعوة باطلة إذ لا يترتّب عليها أيّ غرض.

ثمّ إنّه سبحانه استثنى من دعوة المشركين صورة خاصّة وقال: (إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ)الماء (بِبَالِغِهِ): أي ببالغ فمه، فدعوة الأصنام لقضاء الحاجة أشبه بحال ظمآن جالس على حافة البئر وباسط كفّيه داخلها ليبلغ الماء فاه، مع البون البعيد بينه وبين الماء.

وبهذا ظهر أنّ الاستثناء صوري، ونوع تهكّم، فإذا كان هذا حال المستثنى من الباطل، فكيف حال المستثنى منه؟!

ولأجل ذلك قال سبحانه: (وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَل) فإنّ الضلال عبارة عن الخروج عن الطريق وسلوك ما لا يوصل إلى المطلوب، ودعاء غيره خروج عن الطريق الموصل إلى المطلوب، لأنّ الغاية من الدعاء هي إيجاد التوجّه ثمّ الإجابة، فالآلهة الكاذبة إمّا فاقدة للتوجّه، وإمّا غير قادرة على الاستجابة، فأيّ ضلال أوضح من ذلك؟

روى ابن جرير الطبري بإسناده عن عليّ رضي الله عنه، في قوله:(إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ) قال: كالرجل العطشان يمدّ يده إلى البئر ليرتفع الماء إليه، وما هو ببالغه.(جامع البيان(تفسير الطبري):٨/١٦٤، رقم الرواية٢٠٢٨٨.)

١٥. (وَللهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلاَلُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ):

سجود مَن في السماوات والأرض وظلالهم

الآية تخبر عن سجود من في السماوات والأرض، ولفظة (مَنْ) دليل على أنّ الساجد مدرك وعاقل، فعلى هذا فكلّ إنسان عاقل يسجد لله سبحانه كما يقول:(وَللهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ) وأُريد من السجود هو الهُويّ إلى الأرض بقصد الخضوع (السجود التشريعي)، فأمّا المؤمن فيسجد طوعاً، وأمّا الكافر فيسجد كرهاً، ولعلّه أُريد به ما إذا حاق به البلاء، قال سبحانه: (ثُمَّ

(إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ).(النحل:٥٣.)

قد عرفت أنّ الموصول في قوله سبحانه:(مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)عام يعمّ المؤمن والكافر، غير أنّ المؤمن يسجد دائماً، والكافر عند الشدّة.

ثمّ إنّ الرازي لمّا غفل عن هذا المعنى لم يجد بُدّاً من حمل الإخبار على الإنشاء، وقال: إنّ المراد من قوله: (وَللهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ): أي يجب على كلّ مَن في السماوات والأرض أن يسجد لله، فعبّر عن الوجوب بالوقوع والحصول.(تفسير الرازي: ١٩ / ٣٠.) ولا يخفى بُعد ما ذكره.

ثمّ إنّه سبحانه يضيف إلى سجود هؤلاء سجود ظلالهم بالغدوّ والآصال وقال: (وَظِلاَلُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ) وقد خصّ الغدوّ والآصال بالذكر لأجل بيان دوام السجود، إنّما الكلام فيما هو المراد من سجود ظلال من في السماوات والأرض.

وربّما يفسّر بأنّ المعنى تمايلها من جانب إلى جانب وانقيادها بالتسخير بالطول والقصر.(مجمع البيان:٦/٢٦.)

وقد أُشير إلى سجود الظلال في سورة النّحل، قال تعالى:(أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْء يَتَفَيَّؤُا ظِلاَلُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا للهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ)(النحل:٤٨.)، والفرق بين الآيتين أنّ آيتنا تخصّ سجود ظلال العقلاء من الساجدين طوعاً وكرهاً، وهذه الآية تذكر عموم الأجسام التي لها ظلال.

وعلى ما ذكر فأُريد بظلال مَن في السماوات والأرض، هو خضوعها تكويناً، فتنبسط في الغدوّ، ثمّ تنقبض وسط النهار، ثم تبدأ بعده بالانبساط، كلّ ذلك رهن نظام دقيق يسود الكون، حيث تقصر بارتفاع الشمس وتطول بانحطاطها. وعلى هذا فسجود الظلال وخضوعها رهن وجود نظام سائد خاضع لله يسبّب خضوع الظلال، فحدوث الظلال وحركتها رهن ذلك النظام البديع في الكون. وأمّا مَن فسّره بسجود الظلال حال سجودهم، فبعيد عن مساق الآية، فتكون النتيجة تنبيهاً للمشركين، فإذا كانت ظلالهم خاضعة لأمر الله سبحانه فلماذا يترك هؤلاء السجود له سبحانه، ويسجدون لغيره؟!

وسيأتي مزيد بيان عن السجود التشريعي، والسجود التكويني، عند تفسير الآية الثامنة عشرة من سورة الحجّ.

١٦. (قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لاَ يَمْلِكُونَ لاِنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا للهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْء وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ):

سؤال المشركين مرّة بعد أُخرى

الآية من غرر الآيات، حيث أمر الله سبحانه نبيّه بسؤال المشركين مرّة بعد أُخرى إلى أربع مرّات، فتارة قال: (قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ)، وأُخرى: (قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ)، وثالثة:(قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ)، ورابعة: (قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْء).

أمر سبحانه نبيّه أن يسأل المشركين عن ربّ السماوات والأرض، وهكذا، ولعلّ صرف الخطاب عن المشركين إلى النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) لكونهم دون أن يكونوا مورد الخطاب لربّ العالمين.

إذا اتّضح ذلك فلنبدأ بتفسير الآية، فنقول: لمّا بيّن سبحانه في الآيات السابقة شيئاً من تدبيره الذي ابتدأ ببيانه بقوله: (رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَد تَرَوْنَهَا) حتى انتهى إلى قوله: (وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ) فأثبت بذلك أنّه الخالق للصنع البديع وأنّه المدبِّر له، صار بصدد الاحتجاج بما سبق على المشركين، فلذلك أمر النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)أن يسألهم عن ربّ السماوات والأرض، أي مدبِّرهما لا خالقهما، لأنّ كلمة المشركين اتّفقت على أنّه لا خالق إلاّ الله، وإنّما كانوا مختلفين في الربوبية، فقال:(قُلْ): أي اسألهم (مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)الذي يلي ربوبيتهما؟ وبما أنّ المشركين لا يسعهم إنكار عظمة تدبيره سبحانه التي دلّت عليها مظاهر التدبير

المتقدّمة، أمر النبيَّ بالإجابة عوضاً عنهم فقال: (قُلِ اللّهُ)وبذلك أتمّ الحجّة عليهم، إذ ليس بإمكانهم أن ينسبوا ربوبية ذلك النظام البديع إلى غيره سبحانه، فلازم ذلك أن يتفقوا مع النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) بأنّ الله هو ربّ السماوات والأرض، وإن لم ينطقوا بذلك.

وعلى هذا الأساس أمر سبحانه النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) أن يسألهم مرّة ثانية عمّا في اتّخاذهم غير الله أولياء من جدوى، كما قال: (أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ) الله (أَوْلِيَاءَ)من غير فرق بين الأصنام وأربابها. أمّا الأُولى فهي جمادات خشبية أو فلزية، وأمّا الثانية فهم: (لاَ يَمْلِكُونَ لِاِنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا) فهذان الأمران: أعني كون الله هو (رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ) من جانب، واتّخاذ الأولياء من دونه من جانب آخر، لا يجتمعان، فليس عليكم إلاّ الاعتراف بالربوبية.

ثم أمره أن يسألهم مرّة ثالثة: (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ) وبما أنّ عدم التسوية واضح لا يحتاج إلى جواب، صار التمثيلان رمزين للحقّ والباطل، فمَن ساوى بين ربوبيته سبحانه وربوبية الأصنام أو أربابها، فهو كمن ساوى بين الأعمى والبصير، أو بين الظلمات والنور.

وربما يقال: إنّ التمثيلين رمزان للمؤمن والكافر، فالمؤمن على بصيرة من ربّه يسير على هدى الحُجج والبيّنات، بخلاف الكافر وهو كالأعمى يمشي في الظلمات.

ولمّا أتمّ سبحانه الحجّة على المشركين بحيث لم يبق في أيديهم ما يُجعل ذريعة للشرك افترض لهم شيئاً ربّما يجعلونه سبباً لشركهم، وهو قوله: (أَمْ جَعَلُوا للهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ): أي كخلق الله فاشتبه عليهم لذلك ما خلقه الله وما خلقته الأوثان، فصار ذلك سبباً للقول بأنّ الأوثان تستحقّ العبادة.

ومن المعلوم أنّ في هذا الافتراض نوع تهكّم بهم، إذ ليس لهم، وقد جعلوا لله شركاء، إلاّ اللّجوء إلى هذا الفرض الباطل وهو أنّ الأولياء المتّخذين من دونه خلقوا مثل ما خلق الله فبذلك صاروا مستحقّين للعبادة، ولا ريب في أنّ المشركين غير قائلين بذلك.

وبما أنّ هذا الفرض باطل باتّفاق المشركين أمر الله سبحانه نبيّه أن يقول:(قُلِ اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْء)، فلا خالق سواه.

إنّ شيمة الرازي في تفسيره هذا إخضاع الآيات للعقيدة المتمثّلة فيما ذكره أبو الحسن الأشعري أو ما قبله من المحدّثين حيث زعموا أنّه سبحانه خالق كلّ شيء، وليس لغيره سبحانه أي تأثير في فعله حتى تأثيراً ضدّياً كتأثير ذي الظلّ في ظلّه، قال ردّاً على المعتزلة: اعلم أنّ أصحابنا استدلّوا بهذه الآية في مسألة خلق الأفعال من وجوه: الأوّل: أنّ المعتزلة زعموا أنّ الحيوانات تخلق حركات وسكنات مثل الحركات التي يخلقها الله تعالى، وعلى هذا التقدير فقد جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه. ومعلوم أنّ الله تعالى إنّما ذكر هذه الآية في معرض الذمّ والإنكار، فدلّت هذه الآية على أنّ العبد لا يخلق فعل نفسه.(تفسير الرازي:١٩/٣٢.)

أقول: إنّ هذا البرهان لمن لا وجدان له، فإنّ في حياة الإنسان أفعالاً لا يمكن إسنادها إلى الله سبحانه مباشرة كأكله وشربه، فهما قائمان بأعضاء الإنسان، وهل يصحّ نسبتهما إلى الله مباشرة؟ ولذلك لا محيص من تصنيف الخلق إلى استقلاليّ وتَبَعيّ، فالاستقلاليّ، أي غير المتّكئ على مقام، هو من خصائصه سبحانه. أمّا الخلق المستند إلى قدرة الله فهو من خصائص الإنسان، فهو خالق لأعماله بإرادته، وفي الوقت نفسه استمداداً من قدرة الله.

ثمّ إنّه سبحانه أتمّ الآية بقوله: (وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) فهو واحد بمعنى لا مِثل له ولا نظير، أي واحد في الخالقية والربوبية، قهّار فوق عباده، كما قال: (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ).(الأنعام:١٨.)

ثمّ إنّ القهّار من أسمائه سبحانه كالقاهر يصدقان عليه سبحانه وعلى غيره، غير أنّ بين قهره تعالى وقهر غيره فرقاً، وهو أنّ غيره

تعالى من الأشياء إنّما يقهر بعضه بعضاً وهما مجتمعان في مرتبة وجودها، فالماء والنار مثلاً موجودان طبيعيان يظهر أثر الأوّل في الثاني، والله سبحانه قاهر لا كقهر الماء للنار، بل هو قاهر بالتفوّق والإحاطة على الإطلاق، فهو تعالى قاهرٌ عبادَه لكنّه فوقهم، أي لا كقهر شيء شيئاً وهما متزاملان، وقد جاء هذا الاسم(القاهر) في كلا الموضعين (في سورة الأنعام، الآية ١٨ و ٦١) مقترناً بقوله: (فَوْقَ عِبَادِهِ)، والغالب في موارد استعمال القهر هو أن يكون المغلوب من أُولي العقل بخلاف الغلبة.(انظر: الميزان في تفسير القرآن :٣٣/٧ـ٣٤، بتصرّف.)

الآيات: السابعة عشرة إلى التاسعة عشرة(أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ... إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ).

(أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ * لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ * أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ).

المفردات

أودية: جمع واد، وهو المنخفض الذي يكون بعد الجبل أو بين الجبلين ويجتمع فيه ماء المطر.

بقدَرها: القَدَر: التقدير.

زَبَداً: الزَّبَد: ما يعلو وجه الماء كالحَبَب، وما يعلو القدر عند غليانه.

رابياً: الرابي: العالي المرتفع فوق الماء، الطافي عليه.

حلية: زينة.

متاع: كلّ ما يُنتفع به على وجه ما فهو متاع، كالأواني.

جُفاءً: باطلاً متلاشياً، وهو من جَفَأَ السَّيلُ، أي رمى بالزَّبد إلى جوانب الوادي.

استجابوا: أجابوا.

المهاد: ما مهّدوا لأنفسهم. وربّما يطلق على الفراش الذي يوطّأ لصاحبه.

التفسير

١٧.(أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ):

تمثيلان لبيان دور الحقّ والباطل

ذكرت الآية مثالين:

الأوّل: ما تضمّنه قوله: (أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا).

الثاني: ما تضمّنه قوله: (فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ).

أمّا الأوّل فالتمثيل يشير إلى أنّ الآيات وما فيها من حقائق ومعارف، توقظ الفكر وتنوّر القلب، فكلّ إنسان ينتفع بها حسب استعداده، فهي تمرّ على عامّة القلوب، لكن هناك مَن يؤمن ويستضيء قلبه بها، ومنهم مَن يقف وسط الطريق فيأخذ بالتدبّر

والتفكّر، وهناك من يستهزئ ويعاند، قال سبحانه:(فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ)(آل عمران:٧.)، فمثل الآيات كمثل المطر الغزير النازل على الجبال والتلال والأودية فكلٌّ يأخذ بقدره، فالفيض غير محدّد، وإنّما التحديد في المستفيض، فالوادي الضيق يأخذ حسب قدره بخلاف الوادي المتّسع، بل كلّ من النبات والحيوان والإنسان ينتفع حسب قدره، هذه هي حقيقة التمثيل الأوّل.

وأمّا التمثيل الثاني فحقيقته عبارة عن المقارنة بين شيئين في حالتين:

الأوّل: الماء، والزَّبَد الذي يطفو على سطحه.

الثاني: المعدن المذاب في القدر، والزّبد الذي يعلوه.

أمّا الماء وما يبقى في قاع القدر فينتفع بهما الناس، أمّا الانتفاع بالماء فواضح لأنّه عماد الحياة كما في قوله تعالى: (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيّ).(الأنبياء:٣٠.)

وأمّا الزّبد فوق الماء كالحَبَاب(الفقاقيع)، فلا يمضي وقت طويل إلاّ ويزول أثره.

وهكذا المعدن، فالذي يبقى منه في قاع القدر يصنع منه ما يُنتفع به كالأواني والسيوف، أو الحُليّ وأدوات النحاس والرصاص، وأمّا الزبد الذي يطفو فوق المعدن المذاب فلا يصلح لشيء ولا يُنتفع به.

هذا هو المثال الثاني، وفيه تشبيه الحقّ بماء الحياة وما يبقى في قاع القدر ممّا ينتفع به، وتشبيه الباطل بالزبد الذي يحمله السَّيل أو ما يطفو على سطح القدر من الخَبَث الذي لا يُنتفع به.

وإنّما أتى بمثالين لأنّ الغاية من كلّ واحد مختلفة، فالتمثيل الأوّل يستهدف بيان أنّ الفيض غير محدّد، وإنّما التحديد بسبب الظروف (الأوعية)، فكلّ قلب ينتفع حسب قابليته. وأمّا التمثيل الثاني فهو بصدد بيان أنّ الحقّ يبقى ثابتاً مستقرّاً ينتفع به الناس، وأمّا الباطل فتكون له جولة ثم يضمحلّ بسرعة.

إذا تبيّنتَ حقيقة التمثيلين، فلنشرع في تفسير الآية.

قال:(أَنْزَلَ) ولم يقل: الله أنزل، لأنّ الآية ليست بصدد بيان مراتب التوحيد الربوبيّ، بل هي بصدد بيان أمر آخر وهو تشبيه القلوب في الاستفادة من الآيات القرآنية بالأودية في تلقّي الماء، أنزل: (مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ): أي جرى الماء في الأودية (بِقَدَرِهَا): أي كلّ يأخذ بقدره، فمثل الآيات القرآنية كماء المطر كلّ ينتفع به حسب قدره واستعداده. هذا هو المثل الأوّل.

وأمّا الثاني، فقال سبحانه: (فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا): أي عالياً فوق الماء، ثمّ إنّ الزّبد لا ينحصر بالسَّيل الجارف بل يوجد طافياً على أنواع الفلزات والمعادن المذابة التي تصاغ منها الحُليّ للزينة والأمتعة كالآنية والسيوف، كما يقول: (وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ)لأجل (حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ)، (زَبَدٌ مِثْلُهُ) فقوله:(زَبَدٌ مِثْلُهُ)مبتدأ مؤخّر تقدّم خبره، وتقدير الآية: «زبد مثله ممّا يوقدون عليه في النار» لأجل الحلية والمتاع.

ثمّ إنّ البيان القرآني أخذ في الاستنتاج من المثال، وقال: (كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ): أي كذلك يصف الحقّ والباطل. وأمّا ما هي النتيجة لهذا التمثيل الثاني فيشير إليها بقوله: (فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً) حيث إنّ زبد السّيل يزول ويضمحلّ بعد مدّة قصيرة، وأمّا زَبَد القدر فيخرج منه (فَيَذْهَبُ جُفَاءً) باطلاً متلاشياً، وأمّا (مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ)، فإنّ الماء الخالص أو المعادن الخالصة ينتفع بها الناس. ثمّ إنّه سبحانه ختم الآية بقوله: (كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ): أي كذلك يبيّن الله الأمثال.

هذا ما يرجع إلى تفسير ظاهر الآية. وبما أنّ الآية من غرر الآيات القرآنية التي تتحدّث عن حقيقة الحقّ والباطل وتكونهما وكيفية ظهورهما والآثار المترتّبة عليهما، فلا بأس بالإشارة إلى ما يستفاد من كلا التمثيلين من الفوائد:

١. إنّ الماء فيض مادّي يفيضه الله سبحانه من السماء على الوديان، وكلٌّ يأخذ بمقدار سعته، فالوادي الكبير يستوعب ماء كثيراً بخلاف الوادي الصغير الذي لا يستوعب إلاّ شيئاً قليلاً، وهكذا الحال في الأرواح والنفوس فكلّ نفس تنال حظّها من المعارف الإلهية حسب قابليتها واستعدادها، فهناك نفس كعرش الرحمن، ونفس أُخرى من الضيق بمكان، يقول سبحانه:(وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا).(نوح:١٤.)

وفي الحديث النبوي:«الناس معادن كمعادن الذهب والفضة».(بحار الأنوار:٤/٤٠٥.)

وقال أمير المؤمنين(عليه السلام) لكُمَيل بن زياد النَّخعيّ: «إِنَّ هذِهِ الْقُلُوبَ أَوْعِيَةٌ، فَخَيْرُهَا أَوْعَاهَا».(نهج البلاغة: قصار الحكم، برقم ١٢٧.)

فالمعارف الإلهية كالسيل المتدفّق، والقلوب كالأودية المختلفة.

ويمكن أن يكون قوله: (بِقَدَرِها) إشارة إلى نكتة أُخرى، وهي أنّ الماء المتدفّق الذي هو ماء الحياة إنّما ينبت به الزرع والأشجار المثمرة في الأراضي الخصبة، دون الأراضي السبخة التي لا تنبت فيها إلاّ الأشواك.

٢. إنّ الإيمان والكفر من أظهر مصاديق الحقّ والباطل، ففي ظلّ الإيمان بالله تبارك وتعالى، حياة المجتمع وإحياء العدل، والعواطف الإنسانية، فالأُمّة التي لم تنل حظها من الإيمان يسودها الظلم والأنانية وانفراط الأواصر الإنسانية التي تعصف بالمجتمع الإنساني إلى الهاوية.

٣. إنّ الزَّبَد أشبه بالحجاب الذي يستر وجه الحقّ مدة قصيرة، ولكنّه سرعان ما يزول ويتلاشى ويظهر وجه الحقيقة، أي الماء والفلزات النافعة.

وهكذا الباطل، فربّما يستر وجه الحقيقة من خلال الدعايات المغرضة، ولكنّه لا يمكث طويلاً فيزول كما يزول الزَّبَد، يقول سبحانه:(وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا).(الإسراء:٨١.)

وقال تعالى: (وَيَمْحُ اللهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ).(الشورى:٢٤.)

٤. إنّ الماء والفلزات منبع البركات والخيرات، والزَّبَد خَبَث لا ينتفع منه، فهكذا الحقّ والباطل، فما هو الحقّ كالإيمان والعدل ينتفع به الناس، وأمّا الباطل كالكفر والظلم فلا ينتفع منه الناس.

٥. إنّ الماء يمكث في الأرض وينفذ في أعماقها ويبقى زماناً طويلاً حتى ينتفع به الناس من خلال استخراجه، وهكذا الحقّ فهو ثابت لا يزول، ودائم لا يضمحلّ، على طرف النقيض من الباطل، فللحقّ دولة وللباطل جولة.

٦. إنّ الباطل يتجلّى بأشكال مختلفة، كما هو الشأن في الزَّبَد، حيث يطفو فوق الماء والمعدن المذاب بأنحاء مختلفة، فالحقّ واحد وله وجه واحد، أمّا الباطل فله وجوه مختلفة حسب بُعده عن الحقّ وتضادّه معه.

٧. إنّ وجود الباطل رهن وجود الحقّ، كما أنّ وجود الزَّبَد رهن وجود الماء، فالآراء الفاسدة والعقائد الباطلة تستمدّ مقوماتها من العقائد الحقّة من خلال إيجاد تحريف في أركانها وتزييفها، فلو لم يكن للحقّ دولة لما كانت للباطل جولة، وإليه يشير سبحانه بقوله:(فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا).

٨. إنّ في تشبيه الحقّ بالماء، والباطل بالزَّبد، إشارة لطيفة إلى أنّ الباطل كالزَّبَد، فكما أنّه ينعقد في الماء الذي له هيجان واضطراب والذي لا يجري على منوال هادئ، فهكذا الباطل إنّما يظهر في الأوضاع المضطربة التي لا يسودها نظام ولا قانون.

٩. إنّ حركة الباطل وإن كانت مؤقتة إنّما هي في ظل حركة الحقّ ونفوذه في القلوب، فالباطل يركب أمواج الحقّ بغية الوصول إلى أهدافه، كما أنّ الزَّبَد يركب أمواج الماء ليحتفظ بوجوده.

١٠. إنّ الباطل بما أنّه ليس له حظّ من الحقيقة، فلو خلص منها فليس بإمكانه أن يعيش، ولو لفترة قصيرة، ولكنّه يتنفّس من

خلال الحقّ حتى يمكن له العيش في المجتمع، ولذلك فالزَّبَد يتكوّن من أجزاء مائية، فلو خلص منها لبطَل وذهب ضَياعاً، فهكذا الباطل في الآراء والعقائد.

قال أمير المؤمنين عليّ(عليه السلام):

«فَلَوْ أَنَّ الْبَاطِلَ خَلَصَ مِنْ مِزَاجِ الْحَقِّ لَمْ يَخْفَ عَلَى الْمُرْتَادِينَ؛ وَ لَوْ أَنَّ الْحَقَّ خَلَصَ مِنْ لَبْسِ الْبَاطِلِ، انْقَطَعَتْ عَنْهُ أَلْسُنُ الْمُعَانِدِينَ . وَلـكِنْ يُؤْخَذُ مِنْ هذَا ضِغْثٌ، وَمِنْ هذا ضِغْثٌ، فَيُمْزَجَانِ! فَهُنَالِكَ يَسْتَوْلِي الشَّيْطَانُ عَلَى أَوْلِيَائِهِ، وَيَنْجُو «الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ اللهِ الْحُسْنَى»». (نهج البلاغة: الخطبة ٥٠.)

١٨. (لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ):

بعد أن بيّن سبحانه حال الإيمان والكفر والحقّ والباطل، تعرّض في هذه الآية إلى مصير المستجيبين ومصير المعرضين عنه. أمّا الأوّل فقال: (لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنى) فقوله:(الْحُسْنى) مبتدأ مؤخر، تقدّم عليه الخبر، فمَن أجاب دعوة الله تعالى وآمن به فله الجنة التي هي الحسنى.

وأمّا الطائفة الثانية ـ أعني: المعرضين ـ فقد حكم عليهم سبحانه بأُمور أربعة:

١. لو ملكوا ما في الأرض ومثله معه وقدّموه كفدية، لا يُقبل منهم ذلك كما يقول: (وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْا بِهِ) تحرّراً من عذاب الله، لم يُقبل منهم. وقد جرت سنّة الله تبارك وتعالى على أنّه لا يغفر لمن أشرك.

٢. ما أشار إليه بقوله: (أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ): أي لهم الحساب السوء. ومن المعلوم أنّ الله عادل لا يجور، فماذا يراد من سوء الحساب؟ الظاهر أنّ المراد هو الحساب الذي يسوؤهم ولا يسرّهم فهو من قبيل إضافة الصفة إلى الموصوف.

٣. (وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ): أي مسكنهم جهنّم.

٤. (وَبِئْسَ الْمِهَادُ): أي بئس ما أعدّوه وهيّأوه لأنفسهم. (لاحظ: تفسير الرازي:١٩/٣٤، بتلخيص وتحليل منّا.)

١٩. (أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ):

لمّا تقدّم تقسيم الناس إلى المستجيب لله والمعرض عنه، فرّع عليه سبحانه هذه الآية وأنّه لا يستوي المؤمن والكافر، وقال:(أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ) فإذا كان الحقّ مستقرّاً في القلوب يظهر أثره على الجوارح فيكون مستجيباً لله سبحانه، بخلاف من لا يعلم، فإنّ منزلته منزلة الأعمى كما يقول:(كَمَنْ هُوَ أَعْمَى) فكما أنّه لا يهتدي إلى طريق النّجاة، فهكذا مَن لا يعلم، فكلاهما يبقيان حائرَين في ظلمات الجهل وغياهب الضلالة. نعم (إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ)ويتّعظ بهذه الأمثال (أُولُوا الأَلْبَابِ): أي ذوو العقول السليمة، فإنّ الأمثال تجسّم الحقيقة وتشرحها بلسان الفطرة.

الآيات: العشرون إلى الخامسة والعشرين(الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ...... أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ).

(الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَلاَ يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ * وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ * وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَأُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ * وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ).

المفردات

الميثاق: عَقد مؤكَّد بيمين وعهد.

يخشون: قال الراغب: الخشية خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى به، ولذلك خصّ العلماء بها في قوله:(إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)(فاطر:٢٨.). (المفردات للراغب: ١٤٩، مادة «خشي».)

يدرأون: يدفعون.

جنّات عدن: جنّات إقامة للخلود، يقال: عَدَن بمكان كذا، إذا استقرّ، ومنه المعدن لمستقر الجواهر.

التفسير

هذه المجموعة من الآيات بيان استئنافيّ، فالموصول في قوله: (الَّذِينَ يُوفُونَ) مبتدأ خبره ما يأتي: (أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ). ومن المفسّرين من جعل الموصول (الّذينَ) بدلاً من أُولي الألباب لأجل طول الفصل بين المبتدأ والخبر، ومع ذلك فالأول أظهر.

وعلى كلّ تقدير، فقد اشتملت هذه المجموعة على صفات الخير والشرّ، ومن سنن القرآن أنّه إذا ذكر شيئاً من الخير يردفه بذكر ضدّه ومقابله، فلذلك نرى أنّه ابتدأ بذكر صفات الخير بقوله: (الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ)، ثمّ ذكر ما يخالف ذلك وقال: (وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ).(الرعد:٢٥.)

وأمّا الموصوفون بصفات الخير فهم الملتزمون بما يلي:

١. الوفاء بعهد الله وعدم نقضه.

٢. صلة ما أمر الله بصلته.

٣. خشية الله تعالى.

٤. الخوف من سوء الحساب.

٥. الصبر ابتغاء وجه الله.

٦. إقامة الصلاة.

٧. الإنفاق سرّاً وعلانية.

٨. دفع السيئة بالحسنة.

وأمّا مصير هؤلاء، فهو أنّ لهم الجنّة.

صفات الخير الثمان

٢٠. (الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَلاَ يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ):

الصفة الأُولى من صفات الخير: الوفاء بما قطعوه على أنفسهم من عهد فيما بينهم وبين الله تعالى، سواء أكان العهد بالفطرة أو باللّفظ والبيان:

أمّا الأوّل، فكما في قوله سبحانه:(أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لاَ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ)(يس:٦٠.) وليس هذا العهد سوى ما فُطر عليه الإنسان وخُلق من التوحيد دون الشرك، ولذلك يقول بعده:(وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ)(يس:٦١.). فكأنّه أخذ منه العهد على أن لا يشرك بالله، ويؤيّد ذلك قوله سبحانه:(وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى).(الأعراف:١٧٢.)

وأمّا الثاني، فكلّ عهد يعطيه الإنسان بلفظه ولسانه، مضيفاً ذلك إلى الله سبحانه، ويقول: عاهدت الله على أن أفعل كذا، فهذا يجب الوفاء به إذا كان غير محرّم، فإذا وجب الوفاء حرم النقض كما يقول:(وَلاَ يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ): أي العهد الواقع على إحكام، وهو

عطف بيان على الفقرة المتقدّمة.

ثمّ إنّ الوفاء بالميثاق ممّا يستقلّ العقل بحُسنه، وأنّ نقضه ممّا يستقلّ بقبحه، ولذلك لا تجد على وجه البسيطة من لا يحسّن الأوّل ولا يقبّح الثاني، وهذا أدلّ دليل على أنّ في المدركات العقلية أُموراً يستقلّ العقل بحسنها أو بقبحها، فما عن بعض المذاهب من إنكار التحسين والتقبيح العقليين، لا اعتبار له، لأنّهم بإنكارهم هذا يعارضون قضاء فطرتهم على الأُمور الحسنة بالذات، أو القبيحة كذلك.

٢١. (وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ):

الصفة الثانية من صفات الخير: صلة كلّ ما أمر الله بوصله، ومن أبرز مصاديقه صلة الرّحم والقرابة، وقد أمر بها سبحانه في قوله:(وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ)(النساء:١.) من غير فرق بين القرابة الناشئة من جانب الأب أو جانب الأُم، فعلى المؤمن التعامل مع الأقارب بالمودّة والحسنى أوّلاً، ورفع حاجات المحتاجين منهم بإيصال الخير إليهم ثانياً، ودفع الأذى عنهم بقدر الاستطاعة ثالثاً. نعم قلنا من أبرز مصاديقه صلة الرّحم وإلاّ فمقتضى إطلاق الآية أعمّ من صلة الرحم ويشمل كلّ ما أمر الله بصلته، وقد مرّ الكلام فيه عند تفسيرنا لقوله سبحانه:(الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ)،(البقرة:٢٧.) فلاحظ.

ولعلّ في الآية تعريضاً بقريش حيث قطعوا أواصر القرابة بينهم وبين النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)، بل أساءوا إليه بأنواع الإساءات.

ثمّ إنّ الآية كما تشمل القرابة النسبية لكلّ إنسان، فهي تشمل قرابة الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) أيضاً، فالله سبحانه أمرنا بمودّتهم وقال:(قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبِى)(الشورى:٢٣.). ويؤيّد ذلك ما رواه الكليني عن عمر بن يزيد قال: قلت لأبي عبد الله]الصادق[(عليه السلام):(وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ)؟ قال:«نزلت في رحم آل محمد، وقد تكون في قرابتك»، ثم قال:«فلا تكوننّ ممّن يقول للشيء إنّه في شيء واحد».(الكافي: ٢ / ١٢٥، برقم ٢٨.)

إنّ ذيل الرواية أدلّ دليل على أنّ المورد من قبيل التطبيق، أي تطبيق الكلّي على بعض أفراده.

روى سماعة بن مهران عن أبي عبد الله(عليه السلام) قال: «وممّا فرض الله عزّ وجلّ أيضاً في المال من غير الزكاة، قوله عزّ وجلّ (وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ)».(الكافي:٣/٤٩٨، برقم ٨.)

روى جابر]بن يزيد الجُعفي[عن أبي جعفر]الباقر[(عليهما السلام) قال: «قال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم): برّ الوالدين وصلة الرحم يهوّنان الحساب» ثم تلا هذه الآية.(مجمع البيان:٦/٣٥,°)

الصفة الثالثة من صفات الخير: ما أشار إليه سبحانه بقوله:(وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ)، وقد مرّ عن الراغب أنّ الخشية خوف بتعظيم المخوف منه، وأمّا الخوف فيستعمل في ما يظن وقوع المضرّة منه، نظير قوله تعالى: (إِلاَّ أَنْ يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ).(البقرة:٢٢٩.)

هذا ما ذكره الراغب، والأولى أن يقال: إنّ الخشية عبارة عن الحالة الخاصّة العارضة على النفس إثر مشاهدة عظمة الله تبارك وتعالى وإثر الإحساس بالعبودية مع قطع النظر عن الجزاء والعقاب، ولذلك نرى أنّه سبحانه يصف حَمَلة رسالات الله بأنّهم لا يخشون إلاّ الله، قال: (وَيَخْشَوْنَهُ وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللهَ)(الأحزاب: ٣٩.)، وما ذلك إلاّ لأنّ الخشية بهذا المعنى لا تطرأ على النفس إلاّ إثر الإحساس المذكور، وليس له مورد سوى عظمة الله سبحانه.

وأمّا الخوف فهو عبارة عن الحالة التي تطرأ على النفس إثر الإحساس بالضَّرر من جانب المخوف منه، فالأنبياء وغيرهم في ذلك سواء، قال سبحانه:(وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً)(الأنفال:٥٨.)، وقال: (فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى).(طه:٦٧.)

الصفة الرابعة، من صفات الخير التي ذكرتها الآية، قوله تعالى: (وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ).

وقد تقدّم في تفسير قوله: (أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ).(الرعد: ١٨.)

ثمّ إنّ إضافة «السوء» إلى «الحساب» من باب إضافة الصفة إلى الموصوف، والتقدير: «الحساب السوء». ولكن وصف الحساب بالسوء لا لأجل وقوع الخلل في الحساب، فإنّ المحاسِب هو الله سبحانه والكتب المثبتة فيها الأعمال، فالحساب في نفسه لا ظلم فيه، فلا يُبخَس أحد حقّه، ولا يعاقب أحد إلاّ على قدر معصيته، ولكن لمّا كانت نتيجة الحساب تعود بالضّرر على صاحبه، وُصف بالسوء.

وعلى كلّ تقدير، فالمراد به المُداقّة في الحساب. وفي روايات أئمّة أهل البيت(عليهم السلام) ما يؤيّد ذلك، فعن حمّاد بن عثمان: أنّ أبا عبد الله]الصادق[(عليه السلام)قال لرجل شكاه بعض إخوانه: «ما لأخيك فلان يشكوك؟» فقال: أيشكوني أن استقصيتُ حقي! قال: فجلس مغضباً، ثم قال: «كأنّك إذا استقصيت لم تُسيء؟ أرأيت ما حكى الله تبارك وتعالى: (وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ) أخافوا أن يجور عليهم الله؟ لا والله، ما خافوا إلاّ الاستقصاء، فسمّاه الله سوء الحساب، فمَن استقصى فقد أساء».(تفسير العيّاشي: ٢/٣٨٨، برقم ٢٢١٩. ورواه الكليني في الكافي:٥/١٠٠، برقم ١.)

٢٢. (وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَأُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ):

تتضمّن الآية أربع صفات من صفات الخير وإليك بيانها.

الصفة الخامسة: الصبر في الله

قال تعالى: (وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ)وحاصل هذه الصفة الصمود أمام المشاكل والتحدّيات التي تواجه الإنسان في المجالات الحياتية التالية:

أ. الصبر على الطاعة

ب. الصبر عن المعاصي

ج. الصبر عند المصائب والنوائب

فمن الأوّل جهاد العدوّ، وهو لا يستقيم إلاّ إذا صبر المجاهدون على مضض الآلام والجراح، وثبتوا في الميدان، وبذلوا أنفسهم في طريق طاعة الله، ففي مثل هذه الحالة يكتب الفوز والنجاح للمجاهدين.

وأمّا المتزلزلون الذين يبخلون بأنفسهم في طريق دفع شرّ العدوّ، فلا يكسبون إلاّ الهزيمة، قال سبحانه:(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ * وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِقِتَال أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَة فَقَدْ بَاءَ بِغَضَب مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ).(الأنفال:١٥ و ١٦.)

وأمّا النوع الثاني من الصبر، أعني: الصبر عن المعاصي، فلا يتحلّى به إلاّ القويّ الإرادة، المالك لزمام أهوائه، المقاوم لنوازع نفسه. والمثال البارز لهذا النوع من الصبر هو يوسف الصدّيق، حيث واجه امرأة تصرّ على تلبية رغبتها وقالت له:(هَيْتَ لَكَ)(يوسف:٢٣.) وعزمت على إيقاعه في شباكها، ولكنّه(عليه السلام)وقف من هذه الدعوة المحرّمة موقفاً حازماً، فتجسّد إيمانه العميق بالله وحبّه الغامر له وقال لها: (مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ)، فلو كان خاضعاً لما تشتهيه النفس الأمّارة بالسوء لوقع في حبالها، لكنّه تمسّك بعروة الصبر، فخرج من هذه المواجهة طاهر الثوب نقيّ السَّريرة.

وأمّا النوع الثالث، أي الصبر على المصائب والنوائب، فهو من شعار المؤمنين، قال الإمام علي(عليه السلام) وهو يلي غسل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللهِ! لَقَدِ انْقَطَعَ بِمَوْتِكَ مَا لَمْ يَنْقَطِعْ بِمَوْتِ غَيْرِكَ مِنَ النُّبُوَّةِ وَالإِنْبَاءِ وَأَخْبَارِ

السَّمَاءِ. خَصَّصْتَ حَتَّى صِرْتَ مُسَلِّياً عَمَّنْ سِوَاكَ، وَعَمَّمْتَ حَتَّى صَارَ النَّاسُ فِيكَ سَوَاءً. وَلَوْلاَ أَنَّكَ أَمَرْتَ بِالصَّبْرِ، وَنَهَيْتَ عَنِ الْجَزَعِ، لَأَنْفَدْنَا عَلَيْكَ مَاءَ الشُّؤُونِ، وَلَكَانَ الدَّاءُ مُمَاطِلاً، وَالْكَمَدُ مُحَالِفاً، وَقَلاًّ لَكَ! وَلٰكِنَّهُ مَا لاَ يُمْلَكُ رَدُّهُ، وَلاَ يُسْتَطَاعُ دَفْعُهُ! بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي! اذْكُرْنَا عِنْدَ رَبِّكَ، وَاجْعَلْنَا مِنْ بَالِكَ!». (نهج البلاغة: الخطبة ٢٣٥.)

وروي عن رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) أنّه قال: «الصبر ثلاثة: صبر عند المصيبة، وصبر على الطاعة، وصبر عن المعصية؛ فمَن صبر على المصيبة حتّى يردّها بحسن عزائها، كتب الله له ثلاثمئة درجة، ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين السماء والأرض؛ ومَن صبر على الطاعة، كتب الله له ستّمئة درجة، ما بين الدّرجة إلى الدّرجة كما بين تخوم الأرض إلى العرش؛ ومن صبر عن المعصية، كتب الله له تسعمئة درجة ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين تخوم الأرض إلى منتهى العرش». (الكافي: ٢/٩١.)

الصفة السادسة: إقامة الصلاة

قال تعالى: (وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ): أي الإتيان بها مستوفية الحدود والأركان وبخضوع وخشوع، وإقامتها في الأهل والأولاد وفي مَن يتّعظون بعظة الإنسان. والصلاة هي الصلة بين الله جل شأنه وبين المصلّي، وهي عمود الدين.

الصفة السابعة: الإنفاق

قال تعالى: (وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً) فالإنفاق صلة ما بين الإنسان والمجتمع. وبما أنّ السورة مكّية فأُريد مطلق الإنفاق دون الزكاة المقرّرة، فإنّها وجبت في الفترة المدنية. ثمّ إنّ الإخلاص وصيانة كرامة ذوي الحاجة، يتجلّيان أكثر في الإنفاق سرّاً، غير أنّ دعوة الناس إلى الإنفاق وحضّهم عليه تتحقّق بالإنفاق علانية، **ولذلك تؤكّد هذه الفقرة على كلا الأُسلوبين.**

ليس الكريمُ بمانع *** خيراً بمصْبَحهِ ولَيلِهْ
إن لم يكن نَيْلٌ، فوعدٌ *** صادق يُحكى بنَيلِهْ
وعدُ الكريم وبذلُهُ *** سِيّان في جَريان سَيلِهْ
المالُ بِشْرٌ في الحياة *** لمن يُزيّنها ببذْلِهْ
والبخلُ حزنٌ في القبور *** يغمُّها بعجيج طَبْلِهْ
يا ربُّ أكرمْ بالجنانِ *** فتى النوالِ بطيب نَوْلِهْ
يا ربُّ وارحمْ قاتلاً *** للفقر، واحفظْه بقتلِهْ[1]

[1] من قصيدة للسيد محمود الموسوي، بعنوان: (الجود سيماء النُّبل). القيم الإنسانية: ١/٩٩ـ١٠٣.

الصفة الثامنة: دفع السيئة بالحسنة

قال تعالى: (وَيَدْرَأُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ)، فبهذا الدرء قد يغلق المؤمنون بعض أبواب الشرّ، ويبنون جسور التواصل مع الآخرين الذين يسيئون إليهم بالقول والفعل. ولئن كان غضّ الطرف عن الإساءة، والتغافل عن الكلام المؤذي يستأصل أشواك الكره والغلّ من صدر المسيء، فإنّ مقابلة الإساءة بالإحسان، والشرّ بالخير، والكلمة الجارحة بالكلمة الطيّبة، يبني جسور التواصل، ويهدم جُدُر القطيعة، ومن ثم تنفتح القلوب لسماع كلمة الحقّ، وتتأثّر بدعوة الحقّ الذي تجسّده رسالة السماء. وقد حضّ سبحانه على التزام هذا السلوك في مواضع من القرآن الكريم، منها: قوله تعالى: (ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ) (المؤمنون: ٩٦.)، وقوله: (ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ). (فصلت: ٣٤.)

ولا شكّ في أنّ التعامل بهذا الأسلوب (درء السيّئة بالحسنة) يتطلّب إيماناً وثيقاً، وروحاً سامقة، وصبراً جميلاً، واحتمالاً كبيراً للمكاره من أجل الله تعالى.

وأمّا ما يترتّب على مَن يجمع صفات الخير المذكورة، فالله سبحانه يخبر عنه بقوله: (أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبى الدَّارِ) والعاقبة تستعمل في الخير غالباً، قال سبحانه: (وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ).(الأعراف:١٢٨.)

بقي هنا أمران:

الأوّل: ما هو المراد من الوجه في قوله: (ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ) فإنّ إجراء الوجه بالمعنى اللُّغويّ على الله سبحانه يلازم القول بالتجسيم؟

والجواب: يمكن أن يقال إنّ المراد بالوجه هو رضا الله سبحانه كما يقول:أنت حرٌّ لوجه الله.

وعلى هذا فالمراد ابتغاء رضا الله سبحانه، قال تعالى:(وَمَا تُنْفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ).(البقرة:٢٧٢.)

بقي الكلام فيما هو السبب في كون الوجه بمعنى رضا الله سبحانه؟ يقول السيد الطباطبائي: والمراد بوجه الربّ تعالى هو الجهة المنسوبة إليه تعالى من العمل ونحوه، وهي الجهة التي عليها يظهر ويستقرّ العمل عنده تعالى، أعني: المثوبة التي له عنده الباقية ببقائه، وقد قال تعالى: (وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ)(آل عمران:١٩٥.)، وقال: (وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاق)(النحل:٩٦.)، وقال: (كُلُّ شَيْء هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ)(القصص:٨٨.).(الميزان في تفسير القرآن:١١/٣٤٤.)

ويمكن أن يراد به ذاته سبحانه بشهادة قوله سبحانه: (وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ)(الرحمن:٢٧.) حيث جُعل ذو الوجه وصفاً للوجه لا للرب وإلاّ لقال ذي الجلال والإكرام، وهذا أدلّ دليل على أنّ الوجه بمعنى الذات، أي ابتغاء ذات الله أي لا نريد إلاّ إيّاه.

ثمّ إنّ للرازي هنا كلاماً لطيفاً لمن له اهتمام بالسلوك قال: واعلم أنّ قوله: (ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ) فيه دقيقة، وهي أنّ العاشق إذا ضربه معشوقه، فربّما نظر العاشق لذلك الضارب وفرح به، فقوله: (ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ)محمول على هذا المجاز، يعني كما أنّ العاشق يرضى بذلك الضرب لالتذاذه بالنظر إلى وجه معشوقه، فكذلك العبد يصبر على البلاء والمحنة، ويرضى به لاستغراقه في معرفة نور الحقّ، وهذه لطيفة دقيقة.(تفسير الرازي:١٩/٤٣.)

***

الأمر الثاني: نرى الاختلاف في التعبير عن صفات الخير، فقد جاء الوفاء بالعهد وعدم النقض وصلة الأرحام وخشية الربّ والخوف من سوء الحساب ودرء السيئة بالحسنة بصيغة المضارع.

ولكن التعبير عن الصبر و إقامة الصلاة والإنفاق جاء بصيغة الماضي، فما هو السرّ في هذا الاختلاف؟

والجواب عن هذا الأمر من وجوه:

الأوّل: ربّما يقال: مجيء الصلة بالماضي تارة، وبالمضارع أُخرى على سبيل التفنّن في الفصاحة، لأنّ المبتدأ في معنى اسم الشرط، والماضي كالمضارع في اسم الشرط، فكذلك في أشبهه.(روح المعاني:١٣/١٤١.)

يلاحظ عليه: أنّه لو اقتصر على قوله: على سبيل التفنّن في الفصاحة، لكان له وجه، غير أنّه ذيّل كلامه (بأنّ الماضي كالمضارع في اسم الشرط) ومعنى ذلك أنّ الماضي يفيد ما يفيده المضارع، وعندئذ يَرِد عليه بأنّ الماضي وإن كان يفيد ما يفيده المضارع إلاّ أنّه يبقى الكلام في أنّه لماذا عبّر في موارد بالماضي وأُخرى بالمضارع مع أنّهما يستويان في إفادة المعنى.

الثاني: الاعتناء بالشأن، فكلّما كان أهمّ عبّر عنه بالماضي، وما لم يكن بتلك الأهمية عبّر عنه بصيغة المضارع.(لاحظ: روح المعاني:١٣/١٤١.)

يلاحظ عليه: أنّ الوفاء بالعهد إذا فسّر بالتوحيد الفطري الذي هو أساس المعارف من أهم الأُمور، فلماذا عبّر عنه بصيغة المضارع وقال: (الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ)؟

الثالث: ما يستفاد من كلام البعض الذي نقله الآلوسي، وحاصله ـ على طوله ـ أنّ ما عبّر عنه بصيغة المضارع قصد به الاستصحاب والالتباس، أي يوصفون بها في مستقبل حياتهم.

وأمّا ما عبّر عنه بصيغة الماضي فقد عُبّر عن الصبر لأنّه ملاك التكاليف، فيجب أن يكون مركوزاً في نفس الإنسان، وأمّا التعبير عن إقامة الصلاة والإنفاق بصيغة الماضي فلأنّهما لا يخلوان عن المشقّة التي لا يتحمّلها الإنسان إلاّ بالصبر.(روح المعاني:١٣/١٤١.)

الرابع: ما ذكره السيد الطباطبائي، قائلاً بأنّ مجموع قوله تعالى: (وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَأُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ) مسوق لبيان معنى واحد وهو الإتيان بالعمل الصالح، أعني إتيان الواجبات وترك المحرّمات وتدارك ما يقع فيه من الخلل استثناء بالحسنة، فالعمل الصالح هو المقصود بالأصالة، ودرء السيئة بالحسنة الذي هو تدارك الخلل الواقع في العمل مقصود بالتَّبَع كالمتمّم للنقيصة. فلو جرى الكلام على السياق السابق (التعبير بصيغة المضارع) فاتت هذه العناية وبطل ما ذكر من حديث الأصالة والتبعية.(الميزان في تفسير القرآن: ١١ / ٣٤٦.)

يلاحظ عليه: أنّ ما ذكره يصلح لتوجيه التعبير بالماضي فيما ذكر، ولكنّه لم يذكر وجهاً للتعبير بصيغة المضارع فيما تقدّم عليه من صلة الأرحام وخشية الربّ والخوف من سوء العذاب، إلاّ أن يقال: إنّ الغاية هي الاستصحاب بهذه الصفات في مستقبل الحياة، ولذلك عبّر بصيغة المضارع فيها دون الصفات المذكورة في الآية التالية، للوجه الذي ذكره.

٢٣ و ٢٤. (جَنَّاتُ عَدْن يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَاب * سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ):

جزاء المستجيبين لدعوة الرسول

لمّا أخبر سبحانه بأنّ للمستجيبين لدعوة الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) عقبى الدار، وأُريد بها الدار الآخرة، أوضحه سبحانه هنا بقوله:(جَنَّاتُ عَدْن) وهو بدل من عقبى الدار، أو مبتدأ خبره (يَدْخُلُونَهَا)، والوجه الأوّل أفضل:

(يَدْخُلُونَهَا): أي يدخلون هذه الجنّات مع مَن يرتبطون بهم بعلاقات أُسريّة إذا كانوا صالحين، كما يقول:(وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ) دون مَن فَسَدَ منهم. ومن الواضح أنّ الاجتماع مع الأحبّة فيه أُنس ومسرّة (وَالْمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَاب): أي يهنّئونهم بدخول الجنّة وأُريد بقوله:(مِنْ كُلِّ بَاب): أي من أبواب الجنة الثمانية، قائلين: (سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ)يهنّئونهميُلقون إليهم بالتحية والكرامة، ويخبرونهم بأنّ هذا النّعيم الذي أنتم فيه بسبب صبركم. وقد مرّ أنّ من أقسام الصبر: الصبر على الطاعات، وفي مقدّمتها الجهاد في سبيل الله، والصبر عن المعاصي، والصبر على المكاره والمصائب (فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ): أي فنعم الدار العاقبة، وهي الجنّة، فما أجملَ هذه العاقبة وأحسنَها.

٢٥. (وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ):

الأشقياء ومالهم من سوء العاقبة

لمّا ذكر سبحانه أوصاف السُّعداء وما أعدّ لهم من الجنّة، بيّن في هذه الآية حال الأشقياء وما لهم من سوء العاقبة، وهم الذين يعملون على خلاف ما عليه السُّعداء، وذكر من صفاتهم أُموراً ثلاثة:

١. (وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ) من غير فرق بين الميثاق الفطريّ أو الميثاق القوليّ، فهؤلاء لا يلتزمون بعهدهم من بعد إعطائهم المواثيق، ويفعلون ما ينافيه.

٢. (وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ) من الفروض التي أوجبها الله تعالى على عباده، ومن أشهرها صلة الرّحم، على ما مرّ بيانه

عند تفسير الآية(٢١) من هذه السورة. والقطع نقيض الوصل.

٣. (وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ) من غير فرق بين إفساد العقائد كالدعوة إلى الوثنية وإلى الأفكار الضالّة والمنحرفة، أو الإفساد بغيرها كإثارة الحروب والفتن، وممارسة الاستبداد، والاستئثار بالأموال والامتيازات. وبما أنّ السعداء والأشقياء يختلفون في الصفات والخصال والأعمال، فإنّهم يختلفون في المصير أيضاً، كما يقول سبحانه:(أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ): أي البُعد من رحمة الله، ويقابله في جانب المؤمنين ما مرّ من قوله:(لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَاب)، كما أنّ (وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ): أي ما يسوءهم في الدار الآخرة، وهو عذاب جهنم، ويقابله هناك: (فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ).

الآيات: السادسة والعشرون إلى التاسعة والعشرين(اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ..... طُوبى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآب).

(اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الأخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ * وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ * الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآب).

المفردات

يَقدِر: يضيّق، كما في قوله: (وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ)(الطلاق:٧.) أي ضُيّق.

متاع: تمتُّع قليل لا دوام له ولا بقاء.

أناب: الإنابة: الانقطاع عن الغير والرجوع إلى الله وترك العناد. وربّما يصل إلى درجة عالية يحكي عنها قوله(عليه السلام): «إلهي هب لي كمال الانقطاع إليك».(المناجاة الشعبانية.)

تطمئن: تسكن وتخلو عن الوجل والاضطراب.

طوبى: تأنيث أطيب، وجيء بالتأنيث لأنّه وصف للجنة، وهو بمعنى حُسنى، وغبطة لهم.

المآب: المرجع والمنقلب.

التفسير

٢٦. (اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الأخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ):

لمّا وصف سبحانه الأشقياء بقوله: (أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ)، فربّما يطرأ على بعض الأذهان هذا السؤال: إذا كان هؤلاء بعداء عن الرحمة، فكيف نرى أنّ قسماً منهم غارقين في النّعم وبحبوحة العيش؟ نظير قوله تعالى: (وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ)(يونس:٨٨.)، فأجاب سبحانه عن هذا السؤال بجوابين:

١. قوله: (اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ): أي ويُضيِّق وفقاً لمصالح وملاكات هو أعرف بها.

٢. أنّ ما أُوتي الكافرون متاع قليل لا يقاس بالنّعم الأُخروية، كما قال: (وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا)وما فيها من النّعم الزائلة(وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الأخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ) ففي الآية مقارنة بين حياتين، إحداهما حياة خالدة لا يتطرّق إليها الزوال والبطلان، والأُخرى حياة زائلة تذهب جُفاء ولا ينتفع بها الإنسان إلاّ أيّاماً قلائل، فلو مُتّع الكافر بمتاع قليل فليس بشيء في مقابل ما سيعذّب به من عذاب خالد، ولو حُرم المؤمن من متاع الدنيا في سنوات معدودة فسوف يلقى حياة طيبة خالدة لا زوال لها.

فلا الفقر دليل الهوان، ولا الغنى دليل القرب من الله، فإنّ للفقر والغنى ملاكات والله سبحانه أعرف بها، يقول الإمام علي(عليه السلام):«فَتَأَسَّ بِنَبِيِّكَ الأَطْيَبِ الأَطْهَرِ(صلى الله عليه وآله وسلم) فَإِنَّ فِيهِ أُسْوَةً لِمَنْ تَأَسَّى، وَعَزَاءً لِمَنْ تَعَزَّى. وَأَحَبُّ الْعِبَادِ إِلَى اللهِ

الْمُتَأَسِّي بِنَبِيِّهِ، وَالْمُقْتَصُّ لِاَثَرِهِ. قَضَمَ الدُّنْيَا قَضْماً، وَلَمْ يُعِرْهَا طَرْفاً. أَهْضَمُ أَهْلِ الدُّنْيَا كَشْحاً، وَأَخْمَصُهُمْ مِنَ الدُّنْيَا بَطْناً، عُرِضَتْ عَلَيْهِ الدُّنْيَا فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَهَا، وَعَلِمَ أَنَّ اللهَ سُبْحانَهُ أَبْغَضَ شَيْئاً فَأَبْغَضَهُ، وَحَقَّرَ شَيْئاً فَحَقَّرَهُ، وَصَغَّرَ شَيْئاً فَصَغَّرَهُ. وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِينَا إِلاَّ حُبُّنَا مَا أَبْغَضَ اللهُ وَرَسُولُهُ، وَتَعْظِيمُنَا مَا صَغَّرَ اللهُ وَرَسُولُهُ، لَكَفَى بِهِ شِقَاقاً لِلّه، وَمُحَادَّةً عَنْ أَمْرِ اللهِ». (نهج البلاغة: الخطبة ١٦٠.)

غير أنّ كون بسط الرزق أو ضيقه بيد الله، لا يعني ترك العمل، فقد قال الإمام الصادق(عليه السلام): «لا تكسلوا في طلب معايشكم فإنّ آباءنا كانوا يركضون فيها ويطلبونها». (الوسائل:١٢، الباب١٨ من أبواب مقدّمات التجارة، الحديث٨.)

وروي عنه(صلى الله عليه وآله وسلم) أنّه قال: «مَن وجد ماء وتراباً ثم افتقر، فأبعده الله». (الوسائل:١٢، الباب٩ من أبواب مقدّمات التجارة، الحديث١٣.)

٢٧. (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ):

طلب آية معجزة غير القرآن

جاء صدر هذه الآية في الآية السابعة من هذه السورة، إلاّ أنّ الجواب فيها يختلف عنه هنا، فأُجيب هناك بقوله: (إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ)، وأمّا هنا فأُجيب بقوله: (قُلْ إِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ).

فهذه الآية تدلّ على أنّ المشركين كانوا مستمرّين في طلب نزول آية كونية حتى يؤمنوا على ضوئها. إنّ مضمون الآية يدلّ على أنّ هؤلاء الذين يطلبون آية كونية كانوا غير مقتنعين بالمعجزة الكبرى التي أُعطيت للنبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) ـ أعني: القرآن الكريم ـ وهذا يدلّ على أنّهم كانوا من أهل الجدل والعناد في الموضوع، إذ لو كانوا من روّاد الحقيقة لاقتنعوا بالكتاب العزيز.

ثمّ إنّ على استمرارهم في هذا الطلب تكرّر صدر الآية، وكأنّهم كانوا يدّعون أنّه لو أُنزلت على النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)آية معجزة كما نزلت على الأنبياء السابقين لآمنوا به، والله سبحانه يكشف السّتر عن ضمائرهم ونواياهم بأنّه لو قام بذلك النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) لَمَا آمنوا و(لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ) (الحجر:١٥.) فالله سبحانه أمر نبيّه بأن يجيب عن سؤالهم بأنّ الهداية ليست رهن نزول الآية، وإنّما الهداية والضلالة بيد الله سبحانه كما يقول: (قُلْ إِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ) ولكن ليس إضلاله سبحانه بلا ملاك، وإنّما الإضلال رهن إعراضهم عن الحقّ، وطاعتهم للهوى، فليس نصيب هذا الإنسان إلاّ الضلال، كما أنّ الهداية رهن الرجوع إلى الحقّ وعدم الاسترسال مع الأهواء، ويشير إلى هذا المعنى بقوله: (وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ)فيكون معنى الآية: يضلّ من أعرض عنه، ويهدي من رجع إليه.

وبعبارة أُخرى: إنّ لله سبحانه هداية عامّة تشمل كلّ الناس حتى الجبابرة وفرعون وهامان وقارون، وهداية خاصّة تغمر كلّ من استضاء بالهداية الأُولى، فما في الآية من الإضلال والهداية ناظر إلى الهداية الخاصّة، فمن وضع نفسه في مهبّ الهداية تشمله الهداية الثانية، وأمّا من أعرض عن الهداية الأُولى واتّبع هواه، فلا تشمله الهداية الثانية وتنقطع صلته عنها فلا يوفّق للخير.

وبذلك ظهر أنّ الإجابتين في الآيتين السابعة، والسابعة والعشرين تختلفان في المعنى، ففي الأُولى ركّزت على أنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) بشير ونذير، ومن تكون رسالته الإنذار والتبشير ليس له إلزام الناس بالإيمان، وقد أدّى رسالته بتلاوة الآيات، وأمّا الآية الثانية فالجواب فيها يركّز على أنّ الهداية ليست بسبب نزول آية ما، وإنّما هي بيد الله لكن بشرط أن يكون الإنسان مستعدّاً للاستضاءة، غيرَ مُعرض عن دعوة الأنبياء وغيرَ معاند لها.

وليست الآية هي الآية الوحيدة في إفادة هذا المعنى، بل يشهد لذلك قوله سبحانه:(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) (الصف:٥.)، وقوله سبحانه: (وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ) (البقرة:٢٦.)، والآيتان تدلاّن على أنّ إزاغة الله سبحانه أو إضلاله ليسا أمراً ابتدائياً، وإنّما يحصلان بعد أن يزيغ الإنسان باختياره عن سبيل الهدى، ويسير في طريق الضلال.

٢٨. (الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ):

تعريف المنيبين

قوله:(الَّذِينَ آمَنُوا) وصف لقوله: (مَنْ أَنَابَ)(الرعد: ٢٧.)، والجملة خبر لمبتدأ محذوف، أي أُولئك(الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ)، وأمّا قوله: (وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ) فتفسير للإيمان، والمراد من الإيمان ليس مجرد الإدراك بل اليقين الذي ينوّر القلب ويباشر الروح، ولذلك عبّر عنه بصيغة المضارع مشيراً إلى استمراره عبر حياتهم.

لمّا خصّ سبحانه الاستضاءة بالهداية الخاصّة بمَن أناب ورجع إليه، جاء البيان القرآني لتبيينه وتوضيحه وأنّ المنيب عبارة عمّن يجتمع فيه أمران:

١. (الَّذِينَ آمَنُوا) بالله تعالى ووحدانيّته وبنبوّة نبيّه إيماناً راسخاً غامراً لكلّ وجودهم.

٢. (وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ) والمراد أطمأنّت قلوبهم بذكر الله، غير أنّه عبر بصيغة المضارع لدلالته على تجدّد الاطمئنان واستمراره وأنّه لا يتخلّله شكّ ولاتردّد، فمَن جمع بين الإيمان واطمئنان القلب بذكر الله فهو من أناب إلى الله سبحانه، وعند ذلك يتهيّأ العبد ويستعدّ لاستقبال الإفاضات الإلهية.

وعلى هذا فالمراد بالذكر هو ذكر الله سبحانه لا ذكر القرآن كما عليه بعض المفسّرين، وإن سُمّي القرآن بالذكر في قوله:(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)(الحجر:٩.) ؛ وذلك لأنّ في ذكر الله سبحانه ذكر كلّ ما يمتّ إليه بصلة ممّا في الدنيا والآخرة، ويدخل فيه القرآن. والظاهر أنّ قوله:(أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ): أي لا بغيره ممّا تميل إليه النفوس، ضابطة كلّية تصدق في عامّة الأجيال والأزمنة وفي عامّة الشرائع، ولو خُصّ الذّكر بالقرآن الكريم لانحصرت بالأُمّة المرحومة.

وهذا حثّ للعباد على تسكين القلب إلى ما وعد الله به من النعيم والثواب والطمأنينة إليه، فإن وعده سبحانه وتعالى صادق، ولا شيء تطمئنّ النفس إليه أبلغ من الوعد الصادق.

ثمّ إنّ هنا سؤالاً وهو أنّه سبحانه وصف المؤمن هاهنا بأنّه يطمئنّ قلبه إلى الله، ووصفه في موضع آخر بأنّه إذا ذكر الله تعالى وَجِل قلبه(قال تعالى:(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ)(الأنفال:٢).) فكيف يتمّ التوفيق بينهما؟ وأُجيب عنه بالقول: إنّ المراد بالأوّل أنّه يذكر ثوابه وإنعامه وآلاءه التي لا تُحصى وأياديه التي لا تُجازى فيسكن إليه، والمراد بالثاني أنّه يذكر عقابه وانتقامه فيخافه ويَوجَل قلبه.(انظر: التبيان في تفسير القرآن:٦/٢٤٩ـ٢٥٠.)

وعقّب عليه السيد الطباطبائيّ بقوله: وهذا الوجه أوفق بتفسير مَن فسّر الذّكر في الآية بالقرآن الكريم وقد سمّاه الله تعالى ذكراً في مواضع كثيرة من كلامه كقوله: (وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ)(الأنبياء:٥٠.)، وقوله: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ)(الحجر:٩.)، وغير ذلك.

وأضاف: لكنّ الظاهر أن يكون المراد بالذّكر أعمّ من الذّكر اللّفظي، وأعني به مطلق انتقال الذهن والخطور بالبال، سواء كان بمشاهدة آية، أو العثور على حجّة، أو استماع كلمة، ومن الشاهد عليه قوله بعده: (أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) فإنّه كضرب القاعدة يشمل كلّ ذِكر سواء كان لفظياً أو غيره، وسواء كان قرآناً أو غيره.(الميزان في تفسير القرآن:٦/٣٥٥.)

وسيوافيك ما هو الحقّ في الجمع بين الأمرين بعد الفراغ من تفسير الآية التاسعة والعشرين.

٢٩. (الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ):

الظاهر أنّ الآية بصدد تهنئة المؤمنين الذين اطمأنت قلوبهم وملأتها السكينة وإخبار عن حسن عاقبتهم فيقول: (الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ): أي لهم الخير الكامل ؛ لأنّ قلوبهم اطمأنّت بذكر الله، فهم في عيش طيّب، أمّا في الدنيا فبالاطمئنان، وأمّا في الآخرة فمصيرهم مصير حسن في نعمة دائمة كما يقول:(وَحُسْنُ مَآبٍ)، وبذلك يعلم أنّ لفظة طوبى مبتدأ وفي الوقت

نفسه وصف لموصوف مقدّر أي حياة طوبى أو معيشة طوبى.

وقوله: (الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) مبتدأ خبره (طُوبَى لَهُمْ). وقوله:(وَحُسْنُ مَآب) عطف على الخبر.

إلى هنا تمّ تفسير هذه المجموعة، ولكن بقي الكلام في أُمور:

الأوّل: أنّه سبحانه ذكر في هذه الآية معيشة طوبى لمن آمن واطمأن قلبه، وجاء في آية أُخرى أنّ معيشة ضنكاً(ضيّقة) تنتظر من أعرض عن ذكر الله وقال:(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)(طه:١٢٤.)

فذِكرُ الله سبحانه والإعراض عنه لهما نتيجتان متضادّتان، هما: الحياة الطيّبة، والمعيشة الضّنك، فلو أُريد بها الحياة الأُخروية فهو واضح، وأمّا لو أُريد بها الحياة الدنيوية فكذلك أيضاً، كما سيوافيك بيانه.

الثاني: أنّه سبحانه جعل سكون القلوب من آثار الإيمان، وقد مرّ أنّ قوله: (وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ) تفسير للإيمان المباشر للروح والقلب، ومع ذلك جعل الخوف والوَجَل من آثار الذّكر وقال: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ)(الأنفال:٢.) .

والجواب: لا منافاة بينهما، لأنّ الوجل المذكور يطرأ على القلب قبل الاطمئنان، فالاطمئنان هو المنزل الأخير للسالك ويدلّ عليه قوله سبحانه:(اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ)(الزمر:٢٣.)، فالآية تدلّ على أنّ الاطمئنان الذي يدلّ عليه قوله: (ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ)يحصل بعد الوجل والاضطراب.(الميزان في تفسير القرآن:١١/٣٥٤.)

نعم، أجاب الرازي عن الجمع بين الأمرين بوجه آخر، قال ـ بعد مقدّمة ـ : كلّما توجّه إلى مطالعة عالم الأجسام حصل فيه الاضطراب والقلق والميل الشديد إلى الاستيلاء عليها والتصرّف فيها، أمّا إذا توجّه القلب إلى مطالعة الحضرة الإلهية حصل فيه أنوار الصمدية والأضواء الإلهية، فهناك يكون ساكناً، فلهذا السبب قال: (أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ).(تفسير الرازي:١٩/٥٠.)

الثالث: تدلّ الآية بوضوح على أنّ ذكر الله يورث الاطمئنان، فما هو الدليل على تلك الملازمة؟

أقول: إنّ للقلق واضطراب النفس عوامل متعدّدة نذكر شيئاً منها حتى يتّضح أنّ ذكر الله سبحانه بما أنّه عالم وقادر ورحيم ورؤوف، يطرد القلق عن نفس المؤمن ويحلّ مكانه الاطمئنان والاستقرار، وإليك بيانه:

١. الحيرة في المبدأ والمنتهى

لم يزل الإنسان يعيش وفي ذهنه أسئلة ثلاثة، مازال يبحث عن جواب لها، وهي:

أ. من أين جاء؟

ب. لماذا جاء؟

ج. إلى أين يذهب؟

وبعبارة أُخرى: يفكّر في أنّه من أين؟ و في أين؟ و إلى أين؟ فالمادّيّ لا يجد جواباً شافياً لهذه الأسئلة، ولذا يغشاه القلق كلّما فكّر فيها، وهذا بخلاف الموحّد المعتقد بالله سبحانه، فيعتقد أنّه المبدأ لوجوده في الدنيا، وقد خلقه لغاية خاصّة وهو بلوغه الكمال الممكن. ثمّ ينتقل من هذه الدنيا إلى حياة أُخرى، فالموت ليس إعداماً لحياة الإنسان بل جسراً يعبره من حياة أدنى إلى حياة أشرف .

وبعبارة أُخرى: إنّ الإيمان بالله يورث الثقة بأنّ الموت باب لحياة أفضل، ولذلك نرى أنّ المجاهدين يتسابقون إلى الموت في ميدان الحرب والجهاد، بخلاف المادّيّ فإنّه يعيش في قلق بسبب المستقبل المظلم.

٢. إذا تقطّعت بالإنسان الأسباب

لم يزل الإنسان يعيش وتحيط به مصاعب ومشاكل ربّما ترتفع بمعالجات يسيرة سهلة، وربّما تتضخّم على وجه ييأس معه الإنسان من علاجها بالأدوات المتاحة، ويعرض له اليأس.

فالمادّيّ بما أنّه تقطّعت به الأسباب لم يزل يعيش في قلق، وأما الموحِّد المعتقد بأنّ وراء هذه الأسباب الظاهرة سبب آخر يعلو فوقها، وهو الإله الحيّ القادر فيتوكّل عليه قائلاً:(وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ)(الطلاق:٣.) فيجد في نفسه ارتياحاً وانبساطاً، وهو على يقين بأنّ الله لا يتركه وشأنه...

٣. الحرص الشديد على المال و المناصب

إنّ من عوامل القلق حبّ الدنيا وما فيها من الأموال والجاه والنساء والمناصب، فرُبَّ إنسان لا يبلغ ما يتمنّاه وإن بذل في طريقه كلّ طاقاته وجهوده، فعندئذ يعرض له القلق الذي ربّما ينتهي إلى الجنون، وما هذا إلاّ لأنّه جعل الدنيا أكبر همّه ونهاية مقصده.

وأمّا الإنسان الإلهيّ الذي يرى أنّ الدنيا مقدّمة للحياة الأُخروية، ولو قصرت يده عنها، يرى ذلك تقديراً من الله سبحانه، الذي هو أعرف بمصالح العباد.

قال الإمام علي(عليه السلام):« وَإِنَّ دُنْيَاكُمْ عِنْدِي لأَهْوَنُ مِنْ وَرَقَة فِي فَمِ جَرَادَة تَقْضَمُهَا».(نهج البلاغة: الخطبة ٢٢٤.)

نقل الشريف الرضيّ عن عبدالله بن عباس رحمه الله تعالى أنّه قال:

دخلت على أَميرالمؤمنين(عليه السلام) بذي قار وهو يخصِف نعله، فقال لي: ما قيمة هذا النّعل؟ فقلت : لا قيمةَ لها! فقال(عليه السلام) : «وَاللهِ لَهِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ إِمْرَتِكُمْ ، إِلاَّ أَنْ أُقِيمَ حَقّاً ، أَوْ أَدْفَعَ بَاطِلا».(نهج البلاغة، في مقدمة الخطبة:٣٣.)

ولأئمّة أهل البيت(عليهم السلام) ـ خصوصاً أوّلهم ـ كلمات مضيئة حول الدنيا وقيمتها، والهدف من الجميع هو أن يتّخذ المؤمن الدنيا وسيلة لكسب رضا الله تعالى ومرضاته، ومزرعة لآخرته، وأفضل تعبير يُفصح عن مقام الدنيا لدى العارفين، هو قول الإمام(عليه السلام):«وَمَنْ أَبْصَرَ بِهَا بَصَّرَتْهُ، وَمَنْ أَبْصَرَ إِلَيْهَا أَعْمَتْهُ».(نهج البلاغة: الخطبة ٨٢.)

الآيات: الثلاثون إلى الثانية والثلاثين(كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّة قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ.... فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ).

(كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّة قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ * وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ للهِ الأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللهِ إِنَّ اللهَ لاَ يُخْلِفُالْمِيعَادَ * وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُل مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ).

المفردات

خلَتْ: مضَت.

متاب: أصله متابي حذفت الياء تخفيفاً وبقيت الكسرة دليلاً على المحذوف، ومعناه: مرجعي، من تاب يتوب توبة ومتاباً.

سُيّرت به الجبال: قُلعت من أُصولها. والتسيير: تصيير الشيء بحيث يسير.

قُطّعت: التقطيع: تفصيل المتّصل، وأُريد جعل الأرض قطعة قطعة.

ييأس: قيل بمعنى يعلم، واستشهد بقول الشاعر:

أقول لهم بالشّعب إذ يأسَرونني *** ألم تيأسوا أنّي ابنُ فارسِ زَهْدَمِ[1]

[1] البيت لسُحيم بن وَثيل اليربوعي، لاحظ: مجاز القرآن:١/٣٣٢.

وقيل: هو لغة هوازن.

قارعة: من القرع، وهو ضرب جسم بجسم آخر، يقال: قرع الباب إذا ضربه بيده بحلقة، وأُريد في المقام: الحادثة المفجعة التي تقرع القلوب.

تحُلّ: من الحلول بمعنى النزول، يقال حَلَّ المكان وبالمكان: نزل فيه.

فأمليْتُ: فأمهلتُ.

التفسير

٣٠. (كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ):

روى ابن جرير الطبري، في سبب نزول الآية، عن مجاهد، قال: هذا لمّا كاتب رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) قريشاً في الحديبية كتب: «بسم الله الرّحمن الرّحيم»، قالوا: لا تكتب الرحمن، وما ندري ما الرحمن، ولا تكتب إلاّ باسمك اللّهمّ! قال الله:(وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ)..الآية.(جامع البيان(تفسير الطبري):١٩١/٨، رقم الرواية٢٠٣٩٩.)

وروى نحوه عن قتادة.(نفس المصدر: رقم الرواية٢٠٣٩٨.)

والظاهر عدم صحّة ذلك، لأنّ الآية والسورة مكّية، وصلح الحديبية كان في الفترة المدنية، في العام السادس من الهجرة. وسيوافيك ما هو الوجه لذكر الرحمن في الآية.

الظاهر أنّ الآية جواب ثان لقولهم: (لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ)، وفي الوقت نفسه تمهيد لردّ ما يقترحون عليه في الآية التالية من أُمور ثلاثة:

١. تسيير الجبال.

٢. شقّ الأرض.

٣. تكليم الموتى.

فجاءت الآية ردّاً على ما مضى ولما يأتي، وفي الوقت نفسه تطييب لنفس النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) وهو أنّ رسالتك كرسالة مَن قبلك، وهي تلاوة ما أُنزل إليك من ربّك، حتى يتدبّروا في آياته ويتّعظوا بها من دون خضوع لكلّ ما يقترحونه من المعاجز، إذ غاية ما يجب على النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) إقامة الدليل على صدق دعوته، ويكفيك في ذلك القرآن الكريم، وأمّا الزائد عليه فليس عليك إتيانه.

إذا تبين ذلك فلنفسر الآية.

قوله تعالى: (كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ) الظاهر أنّ (كَذَلِكَ) إشارة إلى ما يأتي بعده من الإرسال في قوله: (أَرْسَلْنَاكَ) نظير قوله: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا)(البقرة:١٤٣.)، وعلى هذا فالمشبَّه والمشبَّه به في هذه المقامات شيء واحد.

وهناك احتمال آخر، وهو أنّ قوله تعالى: (كَذَلِكَ) إشارة إلى ما جرت عليه سنّة الله تعالى في الأُمم السابقة بأن يُضلّ ويهدي بالوحي لا بالآيات المقترحة، فكذلك أيضاً فعلنا في أُمّتك هذه، وأرسلناك إليهم بالوحي لا بالآيات المقترحة، فنهدي من نشاء ونضلّ من نشاء.(المحرر الوجيز لابن عطية الأندلسي:٣١٢/٣.)

قوله: (فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ): أي خلت وتقدّمت عليها أُمم، وأمّا الغاية من الإرسال فهي: (لِتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ) وهذا يكفي في إثبات التحدّي وصدق دعوتك، لكن هؤلاء (وَ هُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ): أي يكفرون برحمة إلهية عامّة

تضمن لهم سعادة دنياهم وأُخراهم لو أخذوا وعملوا به.

ثم أمر النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) بالثبات على خط التوحيد وقال له: (قُلْ هُوَ رَبِّي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ)فهو الربّ وربّ كلّ شيء، وليس لغيره أي ربوبية وتدبير.

وبما ذكرنا يظهر سبب الإتيان بلفظ «الرحمن» دون «الرحيم»، وهو أنّ الثاني مشتقّ من الرحمة المختصّة بالمؤمنين بخلاف الأوّل، والمفروض أنّ القوم كافرون ومشركون.

٣١. (وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ للهِ الأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللهِ إِنَّ اللهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ):

تعليق إيمانهم بمقترحات يدلّ على رسوخ العناد في نفوسهم

نقل الطبرسي في سبب نزول الآية عن ابن عباس قال: نزلت الآية في نفر من مشركي مكّة، منهم: أبو جهل بن هشام، وعبدالله بن أبي أُميّة المخزومي، جلسوا خلف الكعبة، ثم أرسلوا إلى النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) فأتاهم، فقال له عبد الله بن أبي أُميّة: إن سَرّك أن نتّبعك فسيّرْ لنا جبال مكّة بالقرآن، فأذهبْها عنا حتى تنفسح فإنّها أرض ضيّقة، واجعل لنا فيها عيوناً وأنهاراً، حتى نغرس ونزرع، فلستَ كما زعمتَ أهون على ربّك من داود(عليه السلام)، حيث سخّرَ له الجبال تسبّح معه، أو سخِّرْ لنا الريح فنركبها إلى الشام فنقضي عليها ميرتنا وحوائجنا، ثمّ نرجع من يومنا، فقد كان سليمان سُخّرت له الريح، فكما زعمت لنا، فلستَ أهون على ربّك من سليمان، وأحيِ لنا جدّك قصيّاً أو من شئت من موتانا، لنسأله أحقّ ما تقول أم باطل، فإنّ عيسى(عليه السلام) كان يحيي الموتى، ولستَ بأهون على الله منه، فأنزل الله سبحانه:(وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا) الآية.(مجمع البيان:٦/٤٣. وانظر: جامع البيان (تفسير الطبري): ٨ / ١٩١ ـ ١٩٣ للوقوف على رواياته في شأن اقتراحات مشركي قريش على رسول الله، عن كلٍّ من: ابن عباس، ومجاهد، وعبد الله بن كثير، وقتادة، وابن زيد.)

والآية تقرّر أنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) لو قام بما يقترحون لَمَا آمنوا به، وهذا دليل على رسوخ العناد والمكابرة في نفوسهم.

وأمّا المقترحات التي قدّموها فعبارة عن الأُمور التالية:

١. تسيير الجبال بقلعها من أماكنها حتى تكون أرض مكة فسيحة كما يقول:(وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ).

٢. تشقيق الأرض وإخراج مياهها، كما يقول: (أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ).

٣. إحياء مَن مات من آبائهم وأجدادهم وتكليمهم، كما يقول: (أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى).

وأمّا جواب «لو» فمحذوف، وتقديره: لَمَا آمنوا، وكثيراً ما يحذف جواب الشرط لوضوحه، نظير قوله سبحانه: (وَلَوْ تَرى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ)(الأنعام:٢٧.)، وقوله سبحانه: (وَلَوْ تَرى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُؤُوسِهِمْ).(السجدة:١٢.)

ثمّ إنّ الزمخشريّ ذكر جواباً آخر لحرف الشرط وقال: لو أنّ قرآناً (سيّرت به الجبال) عن مقارّها وزعزعت عن مضاجعها (أو قطّعت به الأرض) حتى تتصدّع وتتزايل قطعاً (أو كُلّم به الموتى) فتسمع وتجيب، لَكان هذا القرآن لكونه غاية في التذكير ونهاية في الإنذار والتخويف.(تفسير الكشّاف:٢/٢٨٨.)

وقد أُشير إلى مضمون الآية مع ذكر الجواب في قوله تعالى:(وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْء قُبُلاً مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا)(الأنعام:١١١.)، وبما أنّهم طلبوا من النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) أن يقوم بهذه الأُمور بالقرآن كما يحكي عنه سبحانه بقوله: (وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا)، جاء البيان القرآني أنّ الأمر ليس بيد القرآن ولا بيد الآيات التي تقترحونها، (بَلْ للهِ الأَمْرُ

جَمِيعًا)فجميع الأُمور بيده سبحانه حتّى أسباب الهداية والضلالة، فهو يُضلّ من يشاء ويهدي إليه من أناب.

ثمّ إنّه سبحانه أخبر عن عدم إيمانهم على القطع واليقين، ومع ذلك فإنّ بعض المؤمنين كانوا يرجون هداية المشركين، لوجود أواصر الصلة والمودّة بينهم، فكأنّهم سألوا النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) أن يدعو الله تعالى حتّى يوفّقهم للإيمان، فجاء البيان القرآني ليقطع هذا الرجاء بالقول:(أَفَلَمْ يَيْأَسِ): أي يعلم (الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا)بالجبر والإكراه؟ وبما أنّ الهداية الجبرية لا تعدّ كمالاً للإنسان الذي كرّمه تعالى بالعقل وجعله فاعلاً مختاراً، وإنّما الكمال هو أن يؤمن بالله ورسله عن تدبّر وتعقّل، فإنّ الله سبحانه لم يشأ، كما تقتضي حكمته، أن يفعل ذلك بإرادته التكوينية، لأنّ الإيمان النابع عن هذه الإرادة إيمان جبريّ شاءوا أم لم يشاءوا. وما ذكرنا من تفسير الآية مبنيّ على أنّ قوله: (يَيْأَسِ) بمعنى: يعلم، وقد مرّ في المفردات ما استُشهد به من الشعر على هذا المعنى، ومنه أيضاً قول رباح بن عديّ:

ألم ييأس الأقوام أني أنا ابنه *** وإن كنتُ عن أرض العشيرة نائيا

قوله تعالى: (وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا) إنّ التأمّل في هذه الفقرة يرشدنا إلى أنّهم كانوا يستهزئون بالنبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) باستعجال العذاب الذي وُعِدوا به، والله سبحانه يلفت نظرهم إلى وجود أمرين:

١. ما يصيب المشركين خارج الحرم من قوارع وحوادث مفجعة كالحروب وشنّ الغارات، كما يقول: (وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُواتُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ) وظاهر الآية أنّ سبب هذه الحوادث القارعة كفرُهم وشركُهم أو إنكارهم الرحمن، فيكون المراد (بِمَا صَنَعُوا) هو هذه الأُمور.

٢. ما ينزل من قوارع وكوارث شديدة، قريباً من دارهم كما يقول:(أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ) وهم أهل الحرم من قريش، حيث تقع الكوارث قريباً من دارهم فتصيبهم معرّتها وسائر آثارها السيئة.(انظر: الميزان في تفسير القرآن:١١/٣٦٢.)

وأمّا تفسير الفقرة بسرايا المسلمين التي كانت تهدّد قريش فهو غير صحيح، لأنّ السورة مكّية.

وعلى كلّ تقدير، ففي هذه الحوادث خارج الحرم أو داخله، عبرة لقريش.

غير أنّ الأمر لا ينتهي عند هذا الحدّ، بل سوف يشملهم العذاب الإلهي كما يقول: (حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللهِ إِنَّ اللهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ) وأُريد بوعد الله ما أصابهم في غزوة بدر وغيرها من القتل والأسر، ولعلّه إلى ذلك يشير قوله سبحانه:(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ).(. آل عمران:١٢.)

نقل الرازي عن القاضي عبد الجبار بن أحمد(المتوفّى ٤١٥هـ) رئيس المعتزلة في عصره: أنّ الآية تدلّ على بطلان قول من يجوّز الخلف على الله تعالى في ميعاده، وهذه الآية وإن كانت واردة في حقّ الكفّار إلاّ أنّ العبرة بعموم اللّفظ لا بخصوص السبب، إذ بعمومه يتناول كلّ وعيد ورد في حقّ الفسّاق.(تفسير الرازي:١٩/٥٤.)

يلاحظ عليه: أنّ مورد الآية هو المشركون وإلغاء الخصوصية غير صحيح في المورد، لأنّ موردها ما إذا كان غير المورد، نظير المورد، دون ما كان أضعف، فالإخبار عن عموم خُلف الميعاد في حقّ الوثنيّين لا يمكن إلغاء الخصوصية فيه، خصوصاً مع قوله سبحانه:(إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ).(النساء:٤٨.)

والظاهر أنّ المراد من قوله: (حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللهِ) ما ذكرنا، لا العذاب الأُخروي. نعم ورد الإنذار به في سورة يونس لعامّة الكفّار كما يقول سبحانه: (وَ لِكُلِّ أُمَّة رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ)(يونس:١,٤٧) ؛ لأنّ هذه الآية تهدّد عامّة المشركين، وأمّا آياتنا هذه فتختصّ بقريش.

وعلى كلّ تقدير، فالآية بصدد التهويل والتهديد حتى يكفّوا عن استعجال العذاب و التهكّم وغير ذلك من الأُمور التي تؤذي

روحية النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) وأتباعه، فإنّ وقوع الكوارث الهائلة خارج الحرم وداخله، يشير إلى فقدان الأمن لهؤلاء الذين انكبّوا على عبادة الأصنام والأوثان.

ثم بعد ذلك سيصيبهم ما وعد اللهُ رسولَه من نصر الإسلام والتوحيد على الكفر والشِّرك.

٣٢. (وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ):

الآية بصدد تسلية النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) عمّا كان يلقاه من المشركين من التهكّم والاستهزاء. وحاصل الآية: إنّ استهزاء المشركين ليس مختصّاً بك بل كان أمراً مطّرداً في الأُمم السابقة، كما يقول:(وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا) فهو من الإملاء بمعنى الإمهال، أي فأمهلت الذين كفروا، ومنه قوله سبحانه:(وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا)(مريم:٤٦.) وقوله سبحانه: (وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ)(الأعراف: ١٨٢ ـ ١٨٣.) فالله سبحانه يُمهل الكفّار ولا يعاجلهم بالعقوبة في الدنيا، حتى إذا تمادَوا في غيّهم وضلالهم مغترّين بنعمه الظاهرة أخذهم بما فعلوا، كما يقول:(ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ): أي عقابي إيّاهم.

قال الإمام علي(عليه السلام):«كَمْ مِنْ مُسْتَدْرَجٍ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ، وَمَغْرُورٍ بِالسَّتْرِ عَلَيْهِ، وَمَفْتُونٍ بِحُسْنِ الْقَوْلِ فِيهِ! وَمَا ابْتَلَى اللهُ أَحَداً بِمِثْلِ الْإِمْلاَءِ لَهُ».(نهج البلاغة، قصار الحكم، برقم ١١٦.)

الآيات: الثالثة والثلاثون إلى الخامسة والثلاثين(أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْس بِمَا..... وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ).

(أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْس بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا للهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَاد * لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ وَاق * مَثَلُ الْجَنَّةِ التي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ).

المفردات

قائم: رقيب ومتول للأُمور.

تنبِّئونه: تُخبرونه.

بظاهر من القول: أي بباطل من القول، ويستشهد لهذا المعنى بقول أبي ذؤيب الهُذَليّ:

وعيّرها الواشون أنّي أُحبُّها *** وتلك شَكاةٌ ظاهرٌ عنكِ عارُها[1]

[1] شرح أشعار الهُذَليّ:٧٠، وغيره.

ويمكن أن يُحمل على ما هو المتبادر من لفظ (ظاهر)، أي القول الظاهر الذي لا حقيقة له ولا اعتبار.

السبيل: طريق الحقّ.

واق: الواقي: الحافظ.

التفسير

٣٣. (أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْس بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا للهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَاد):

وجود «الفاء» في قوله: (أَفَمَنْ)دليل على التفريع على ما تقدّم، والظاهر أنّه تفريع على قوله: (قُلْ هُوَ رَبِّي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ)(الرعد:٣٠.) والاستفهام إنكاري جوابه محذوف تدلّ عليه الفقرة التالية ـ كما سيوافيك ـ وحاصل السؤال:(أَفَمَنْ هُوَ

قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْس) رقيب عليها، خالق وحافظ لها، عالم (بِمَا كَسَبَتْ)فيجزي كلّ عامل بعمله، كمن هو ليس كذلك؟ فالله سبحانه هو الخالق الرّازق المدبّر للكون، الرّقيب على كلّ نفس، العالم بما عملت، فهل يستوي وهو بهذه الصفات مع أصنامهم التي لا تسمع ولا تبصر ولا تدفع عن نفسها ولا عن غيرها ضرّاً ولا تجلب نفعاً؟ هذا هو الجواب، وقد دلّ عليه قوله:(وَجَعَلُوا للهِ شُرَكَاءَ).(يُسمّي علماء البيان هذا النوع من الحذف: الإضمار على شريطة التفسير، أي أن يُحذف من صدر الكلام ما يُؤتى به في آخره، فيكون الآخر دليلاً على الأوّل.) وعلى هذا فقوله: (قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْس)كلمة جامعة تشمل الخلق والرِّزق والحفظ والعلم بأحوال كلّ نفس. وهذا يثير العجب!! كيف أنّ هؤلاء الجهّال يساوون بينه وبين معبوداتهم في العبادة بل في التدبير؟!

ثمّ إنّ قوله:(وَجَعَلُوا للهِ شُرَكَاءَ) في موضع الحال، أي مع أنّ الحالة كذلك والتساوي باطل من أصله، فهؤلاء الأغبياء جعلوا مَن لا يخلق ولا يرزق ولا يعلم شريكاً لله سبحانه.

الاحتجاج على المشركين بوجوه ثلاثة

بعدما أبطل سبحانه فكرة التساوي بينه و بين معبوداتهم، احتجّ عليهم بوجوه ثلاثة بديعة في موردها، بمعنى أنّه سبحانه افترض لهم أعذاراً في حال التساوي، وهي:

الأوّل:(قُلْ سَمُّوهُمْ) أمر النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) أن يسألهم عن أسماء هؤلاء الشركاء لتتبيّن أوصافهم ومنزلتهم من العلم والقدرة. ومن المعلوم أنّهم سيحجمون عن تسميتهم، إذ أنّهم لو سمّوا آلهتهم (كاللات وهُبَل) التي هي أخشاب وأجسام بلا روح، لانكشفت بلاهتهم وخفّة عقولهم، بتسوية هذه الجمادات مع الله الواحد القهّار.

الثاني: (أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ): أي تُخبرون الله تعالى بشركاء خفَوا عنه سبحانه؟ ومن المعلوم أنّ هذا الافتراض باطل، إذ كيف يكون الشريك غافلاً عن عمل شريكه خصوصاً في مسألة التدبير، فإنّ صحيفة الوجود شيء واحد تتّصل أجزاء بعضه ببعض، فلو قام موجود بتدبير قسم منه لَعلمَ به سبحانه، خصوصاً أنّه سبحانه عالم لا تَخفى عليه خافية، قال سبحانه:(وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَة إِلاَّ يَعْلَمُهَا)(الأنعام:٥٩.)، وأُشير إلى هذا الاحتجاج في آية أُخرى، قال تعالى: (أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ).(يونس:١٨.)

الثالث:(أَمْ بِظَاهِر مِنَ الْقَوْلِ): أي تنبّئونه بأنّ له شركاء ولكن(بِظَاهِر مِنَ الْقَوْلِ): أي بما لا حقيقة له؟ فما جعلتموه آلهة ليس لهم من الأُلوهية إلاّ الاسم دون الحقيقة، قال سبحانه: (إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ).(النجم:٢٣.)

وعلى ما ذكرنا لا حاجة لتفسير (بِظَاهِر مِنَ الْقَوْلِ) بباطل منه، كما مرّ في المفردات، بل يمكن القول: أيّ قول له ظاهر وليس له حقيقة.

ثمّ إنّه سبحانه أضرب عن الاحتجاج بهذه الوجوه الثلاثة التي تضمّنت بطلان أُلوهية كلّ معبود سواه، وأخذ في وصف هؤلاء الكفّار بأمرين، يتجلّى من خلالهما سبب انتشار الشرك بينهم، وهما:

الوصف الأوّل: أنّ المكر قد زُيّن لهم، كما يقول:(بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ) وحَسُن في أنفسهم افتراؤهم على الله بأن جعلوا له شركاء في التدبير والعبادة.

الوصف الثاني: أنّهم مُنعوا عن طريق الحقّ والهدى، كما يقول: (وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ) والذي صدّهم عنه أنفسهم التي زيّنت لهم هذا المكر، والشيطان المضلّ الذي وسوس لهم وأغواهم بتلك الأوهام والخرافات. وفي نهاية الآية أكّد سبحانه ضلالهم بقوله: (وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَاد)وأُريد بالإضلال الحيلولة بينهم وبين الهداية الثانية (الهداية الخاصّة) التي لا تُنال إلاّ بتوفيق الله ومعونته، وهي رهن استعداد القلب للانفتاح على الهداية الأُولى (الهداية التشريعية) التي تتحقّق ببعث الأنبياء وإنزال الكتب

وإقامة الحجج المسفرة، فإذا عميَ الناس عنها وأعرضوا عمّا يدعو إليه الأنبياء، صار ذلك سبباً لحرمانهم من الهداية الثانية التي هي بمعنى الإضلال.

٣٤. (لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ وَاقٍ):

تقدّم في قوله سبحانه تهديد المشركين وراء ما يصيبهم خارج الحرم وداخله من القوارع بقوله: (حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللهِ) فلو أُريد بالوعد هو العذاب الأُخروي تكون الآية شارحة له، وأمّا لو حملناه على ما يصيبهم في الغزوات كبدر وأُحد والأحزاب، كانت الآية بياناً استئنافياً ناشئاً عمّا مرّ من قوله:(وَمَنْ يُضْلِلِ اللّهُ)فنتيجة الإضلال أمران:

١. (لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) على أيدي المجاهدين المؤمنين في الغزوات والسّرايا.

٢. (وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ) وكيف لا يكون أشقّ وهو عذاب أليم شديد دائم؟ وربّما يحتمل أن يكون هؤلاء مشمولين بشفاعة الشافعين، فجاء البيان القرآني رافضاً لهذا الاحتمال، وقال: (وَمَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ وَاقٍ)ولا يؤذن لأحد بالشفاعة في حقّ من ماتوا على كفرهم.

٣٥. (مَثَلُ الْجَنَّةِ التي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبى الْكَافِرِينَ النَّارُ):

أوصاف الجنّة الثلاثة

لمّا تقدّم في الآية السابقة بيان مصير المشركين بأنّ لهم عذابين في الدنيا والآخرة، تطرّق هنا إلى بيان مصير المؤمنين وما لهم من مستقبل زاهر وهو الخلود في الجنّة وقال: (مَثَلُ الْجَنَّةِ التي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ): أي وصف الجنة التي وعدها الله سبحانه للمتّقين هو ما يلي:

أ. (جنّة)(كأنها خبر محذوف لقوله:(مَثَلُ الْجَنَّةِ التي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ).) (تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ): أي من تحت قصورها. ويحتمل أن يكون المراد جريان الأنهار في جوانبها.

ب. (أُكُلُهَا دَائِمٌ): أي مأكولاتها من الفواكه والمطاعم والمشارب لا تنقطع ولا تبيد.

ج. (وَظِلُّهَا) دائم كذلك. ووجود الظلّ دليل على وجود الشمس، لكن لأجل التفاف الأشجار بعضها ببعض حتى انعدمت الفراغات بينها صار سبباً لدوام الظلّ. وأمّا قوله سبحانه: (لاَ يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلاَ زَمْهَرِيرًا)(الإنسان :١٣.) فأُريد من الشمس بقرينة الزمهرير، الحرارة المؤذية.

وبعد أن تمّ وصف الجنّة بأوصافها الثلاثة، أشار إلى أنّ هذه النعمة الكبرى هي عاقبة المتقين وقال: (تِلْكَ عُقْبى الَّذِينَ اتَّقَوْا)، وأمّا عاقبة الكافرين فذكرها بقوله: (وَعُقْبى الْكَافِرِينَ النَّارُ).

الآيات: السادسة والثلاثون إلى التاسعة والثلاثين(وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ.... وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ).

(وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ وَلاَ أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَآبِ * وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ وَاقٍ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ * يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ).

المفردات

الأحزاب: جمع حزب، وهم الطائفة المجتمعة لأمر من الأُمور، سياسيّاً كان، أو اقتصاديّاً، أو اجتماعيّاً.

مآبِ: مآبي: مرجعي، من آب يؤوب، أي رجع يرجع.

أجل: الأجل: الوقت والمدّة.

كتاب: الكتاب هنا: الحُكم المعيّن الذي تقتضيه حكمته سبحانه.

أُمّ الكتاب: أصله، الذي يرجع إليه.

التفسير

كان المحور في الآيات السابقة هو الاحتجاج على المشركين وبيان مصيرهم في الدنيا والآخرة، وأمّا هذه المجموعة فتصف أهل الكتاب وأنّهم انقسموا بعد بعثة الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) إلى فئتين: فئة فرحت بنزول القرآن واستقبلوه وآمنوا به، وفئة أنكروه أو أنكروا بعضه.

٣٦. (وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ وَلاَ أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَآبِ):

الآية تصنّف أهل الكتاب إلى صنفين:

أ. صنف نفضوا غبار التعصُّب عن عقولهم فآمنوا بما أتى به الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) إيماناً مقروناً بالفرح لأنّهم وجدوا شواهد على صدق دعوته في كتبهم السماوية، قال تعالى: (وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ). وربّما تُفسَّر الآية بمن آمن من اليهود كعبد الله بن سلام وأصحابه،

ولكنّه غير صحيح، لأنّ الآية والسورة مكية. ويحتمل أنّه أُشير بها إلى نصارى الحبشة، فقد قدم على رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) وهو بمكة عشرون رجلاً من النصارى حين بلغهم خبره من الحبشة، مبعوثين من قبل أساقفتها لتقصّي الحقائق بمكّة، والتعرّف على الإسلام، فوجدوا رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) في المسجد، فجلسوا إليه، وكلّموه وسألوه عن مسائل.

فلمّا فرغوا من مسألة رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) عمّا أرادوا، دعاهم النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) إلى الله عزّ وجلّ وتلا عليهم آيات من القرآن الكريم، فكان لها من التأثير البالغ في نفوسهم بحيث عندما سمعوه فاضت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا له وآمنوا به وصدّقوه، بعد ما عرفوا منه ما كان يوصَف في كتابهم (الإنجيل) من أمره.(انظر:السيرة النبوية:١/٣٩٠ـ ٣٩٣.)

هذا حال مَن اتّصل بالنبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) وشاهد ما عليه من المعارف والتعاليم.

ب. وهناك صنف من أهل الكتاب انطلق من عقلية حزبية منغلقة، فأنكروا بعض ما أتى به النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم). ولعلّ المراد بهم البُعداء من اليهود والنصارى، ممّن كان يقيم بنجران أو اليمن، فربّما سمع النصارى بالنبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)، وأنّه يدعو إلى التوحيد مكان التثليث، أو سمع به اليهود وأنّه (صلى الله عليه وآله وسلم) يحرّم الرِّبا، فوقفوا ممّا أُنزل عليه موقف المنكِر، كما يقول: (وَمِنَ الأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ) لكن الظاهر من ذيل الآية، أعني قوله: (قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ وَلاَ أُشْرِكَ بِهِ) أنّ المنكرين هم النصارى الذين عبدوا الأقانيم الثلاثة، ودعوا إلى التثليث. ويختم سبحانه كلامه بقوله: (إِلَيْهِ أَدْعُوا): أي إلى الإله الواحد (وَإِلَيْهِ مَآبِ): أي مرجعي ومصيري يوم القيامة.

ولا يخفى ما في ذيل الآية من الإشارة إلى الأُصول الثلاثة للإسلام، فقوله: (إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ)يشير إلى التوحيد، وقوله (إِلَيْهِ أَدْعُوا)يشير إلى مهامّ الرسالة، وقوله: (وَإِلَيْهِ مَآبِ) يشير إلى البعث .

وأمّا تفسير الفئة المنكرة بما ورد من أنّ كعب بن الأشرف خرج في سبعين راكباً من اليهود إلى مكة بعد وقعة أُحد ليحالفوا قريشاً على رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) وينقضوا العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)،(مجمع البيان:٣/١٢٣.) فغير صحيح ؛ لأنّ ذلك وقع في الفترة المدنية،(لاحظ تفسير قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ

بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاَءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا)(النساء:٥١-٥٢). والآيات التي نحن بصدد تفسيرها مكيّة.

وللرازي في تفسير قوله: (إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ وَلاَ أُشْرِكَ بِهِ) كلمة، يقول فيها: هذا الكلام جامع لكلّ ما ورد التكليف به وفيه فوائد:

أوّلها: أنّ كلمة (إِنَّمَا) للحصر ومعناه: إنّي ما أُمرت إلاّ بعبادة الله تعالى، وذلك يدلّ على أنّه لا تكليف ولا أمر ولا نهي إلاّ بذلك.

وثانيها: أنّ العبادة غاية التعظيم، وذلك يدلّ على أنّ المرء مكلّف بذلك.

وثالثها: أنّ عبادة الله تعالى لا تمكن إلاّ بعد معرفته ولا سبيل إلى معرفته إلاّ بالدليل، فهذا يدلّ على أنّ المرء مكلّف بالنظر والاستدلال في معرفة ذات الصانع وصفاته، وما يجب ويجوز ويستحيل عليه.

ورابعها: أنّ عبادة الله واجبة، وهو يبطل قول نفاة التكليف، ويبطل القول بالجبر المحض... إلى آخر ما ذكره.(تفسير الرازي:١٩/٦٠-٦١.)

ولكنّه لم يبيّن لنا ما هو الفرق بين الجبر وبين الجبر المحض؟

أقول: لمّا كان القول بالجبر عقيدة مردودة في العقل الحصيف، عاد الرازي إلى تقسيمه إلى الجبر المحض وغير المحض، فالأوّل عنده مردود دون الثاني، وأراد به ما إذا كان الله خالقاً لأفعال العباد وهم كاسبون لأفعالهم فاشتهر بينهم: الله خالق والعبد كاسب، ومع ذلك فلم يظهر منهم أي تفسير صحيح للكسب؛ وذلك لأنّ الكسب أيضاً فعل من أفعال العباد والله خالقه، فعاد المحذور، ولذلك صار القول بالكسب أحد المبهمات الثلاثة التي لم يقف أحد على حقيقتها. وفي ذلك يقول الشاعر:

ممّا يقال ولا حقيقة عنده *** معقولة تدنو إلى الأفهام

الكسب عند الأشعري والحال *** عند البهشمي وطفرة النّظّام[٢]

[٢] القضاء والقدر لعبد الكريم الخطيب:١٨٥.

تطبيق لا شأن نزول

قد ورد في بعض الروايات أنّ المراد من قوله:(وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ) هو علي بن أبي طالب(عليه السلام)(مناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب: ٣/٦٠.)، وهذا من باب الجري والتطبيق.

٣٧. (وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ وَاقٍ):

تأييد النبي الأكرم بإنزال الكتاب

جرت سنّة الله تعالى على تأييد الأنبياء العظام بإنزال الكتب، التي فيها هدىً ونور، معهم، يقول سبحانه:(وَكَذَلِكَ): أي كما آتينا الكتاب كالتوراة والإنجيل النبيَّ موسى والمسيح(عليهما السلام)، كذلك (أَنْزَلْنَاهُ)الضمير عائد إلى (مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ) في قوله:(يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ) يعني القرآن الكريم (حُكْمًا عَرَبِيًّا) أُريد بالحكم: الحكمة، لقوله سبحانه: (وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا)(مريم:١٢.)، وأُريد بقوله (عَرَبِيًّا) نزوله بلغة العرب، وإلاّ فالحكمة لا تقسّم إلى عربية وغير عربية، وإنّما أُنزل بها لأنّ سنّة الله جرت على إرسال الرسل بلغة أقوامهم، قال تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ)(إبراهيم:٤.)، ويقول سبحانه: (وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ)(الشعراء:١٩٢-١٩٥.). أمّا وجه إرسال الرسل بلغة أقوامهم فواضح، غير أنّ في إرسال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) بلسان قومه نكتة أُخرى، وهي أنّ قومه(صلى الله عليه وآله وسلم) كانوا يملكون نفسيّة خاصة وهي عدم خضوعهم واستجابتهم بسهولة لعادات غيرهم وألسنتهم، فلو أنزل الله سبحانه كتابه إليهم بغير لسانهم لما آمنوا به كما قال سبحانه:(وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ* فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ)(

الشعراء:١٩٨ـ ١٩٩.)، فلأجل ذلك بعثه الله سبحانه بلسان قومه حتى يسدّ باب الذريعة عليهم.

ولأجل هذه المهمة الاجتماعية يجب على الرسول أن يصرف همّته أوّلاً في هداية قومه وإنقاذهم حتى يتسنّى له هداية الآخرين، وهذه سنّة متّبعة في الأُمور اليسيرة، فضلاً عن المهمّة.

ولمّا تقدّم في قوله سبحانه: (لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ)، جاء البيان القرآني يذكّر النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) وينهاه عن اتّباع أهوائهم. حتى لا يطلب من الله سبحانه نزول آية غير القرآن الكريم، ويقول:(وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ)

ومع ذلك يحتمل أن تكون الفقرة ناظرة إلى أمر آخر، وهو أنّ قسماً من أهل الكتاب ـ أعني: الذين عبّر عنهم سبحانه بقوله:(وَمِنَ الأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ) ـ كانوا يطلبون من النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) أن يتّبع أحكامهم المنسوخة في الإسلام، فنهاه سبحانه عن اتّباع أهواء أهل الكتاب. وسيأتي في الآية التالية ما هو وجه التثّبت على ما أوحى إليه، فإذا كان هذا حال النبيّ مع ما له من المنزلة عند الله فما حال غيره؟ وعلى كلّ حال فجزاء المبتغي قوله تعالى: (مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيّ) ينصرك من دون الله (وَلاَ وَاق) يقيك من بأسه. والفقرة من مقولة: «إيّاكِ أعني واسمعي يا جارة».

ونظير الآية قوله سبحانه:(وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَة مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِع قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِع قِبْلَةَ بَعْض وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ).(البقرة:١٤٥.)

هذا، وذهب المفسّرون كالشيخ الطبرسي والشيخ المراغي وغيرهما إلى أنّ الخطاب في كلا الموردين للنبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) والمراد به الأُمّة(مجمع البيان:٦/٥٠.)، لكن الظاهر من السيد الطباطبائي كون الخطاب في المقام للنبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)وهو المراد به دون الأُمّة.(الميزان في تفسير القرآن:١١/٣٤٧.) مع أنّه(قدس سره) ذكر في تفسير آية البقرة أنّ الخطاب من باب: إيّاكِ أعني واسمعي يا جارة، وعندئذ يقع الكلام: ما هو الفرق بين الآيتين حيث جعل آيتنا هذه أنّ المراد هو النبيّ دون الأُمّة بخلاف آية البقرة؟ فتأمّل.

٣٨. (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُول أَنْ يَأْتِيَ بِآيَة إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ لِكُلِّ أَجَل كِتَابٌ):

نقد ما اعترض به المشركون على رسالة النبي الأعظم(صلى الله عليه وآله وسلم)

عاد البيان القرآني إلى ردّ ما ينكره بعض المشركين وأهل الكتاب من رسالة النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)، فالآية تشتمل على أُمور ثلاثة:

الأوّل: ما يكرّره المشركون غير مرّة بأنّ شأن النبوة أعلى من أن ينالها البشر، وهذا المدّعي للنبوّة(محمد(صلى الله عليه وآله وسلم)) يعيش كسائر الناس يتزوّج وتكون له ذرية!! وقد جاء هذا الاعتراض أيضاً في سورة الفرقان، (مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ)(الفرقان:٧.)، وقد جاء الردّ على هذه الفكرة في السورة نفسها بقوله: (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ)(الفرقان: ٢٠.)، وفي سورتنا هذه يقول: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً).

وبما أنّ الآية مكّية، فلعلّ المشركين أرادوا من كلامهم زواج الرسول من خديجة التي توفّيت قبل الهجرة بثلاث سنين. ثم تزوّج بعدها سَودة بمكّة المكرّمة قبل الهجرة.

وهذا الإشكال أوهن من بيت العنكبوت، فبشريّة الرسول لا ريب فيها ومن ثمّ له ما لغيره من سائر البشر من حاجات، فهو إذاً بحاجة إلى الأكل والشرب واتّخاذ الزوجة وغيرها، وإنّما يسمو على سائر الناس بالعصمة والعلم والوحي وسائر الفضائل الأخلاقية.

نعم، لم يتزوّج المسيح(عليه السلام) لمصلحة هو أعرف بها، وكان يحيى(عليه السلام)حصوراً كذلك، غير أنّ عامّة الأنبياء كانوا متزوّجين واحدة من النساء أو أكثر كداود وسليمان(عليهما السلام).

ولقد كان أبو الأنبياء متزوّجاً حواء، يقول سبحانه:(يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ).(البقرة: ٣٥.)

ويظهر من بعض الآيات أنّ هذه الفكرة الباطلة كانت ذريعة لإنكار الرسالة، في الأُمم السابقة، يقول سبحانه: (وَقَالَ الْمَلأَ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الاْخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ * وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ).(المؤمنون:٣٣ـ ٣٤)

الثاني: اقترحوا على النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) أن يأتي بآية كونية غير القرآن الكريم، نظير ما أتى به النبيّ موسى وعيسى(عليهما السلام) من الآيات كالعصا وشفاء المرضى وإحياء الموتى، فأجابهم سبحانه بقوله:(وَمَا كَانَ لِرَسُول أَنْ يَأْتِيَ بِآيَة إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ)، فالمعاجز كلّها بيد الله سبحانه، فليس له أن يأتي بآية ويترك آية أُخرى من جانب نفسه.

الثالث: قوله سبحانه: (لِكُلِّ أَجَل كِتَابٌ) أراد بالأجل، الوقت المحدّد، فلكلّ زمان حُكم مقضيّ من الله سبحانه، لا يجري فيه إلاّ ما قضاه. وفي هذه الفقرة إجابة عن أمرين:

أحدهما: ما مرّ في قوله سبحانه:(وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ)(البقرة:١٢٠) حيث طلبوا من النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) أن يتّبع أحكام العهدين، ويترك ما أُنزل إليه.

الثاني: أنّ المشركين طلبوا من النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) أن يجيء بآية كونية، كما جاء بها موسى وعيسى(عليهما السلام). فمعنى قوله سبحانه: (لِكُلِّ أَجَل كِتَابٌ): أي لكلّ وقت حُكم مقضيّ مكتوب، فالظروف السائدة في زمن الأنبياء السابقين غير الظرف السائد في عصر النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)، ولذلك ليس للنبيّ أن يترك ما نُزّل إليه من الأحكام ويتّبع ما شرّع في العهدين، لأنّ المقتضيات والمصالح مختلفة، فلكلّ عصر شريعة خاصة تناسبه.

وفي هذه الفقرة أيضاً إجابة عن تبديل آية بآية، وذلك لأنّ المعاجز يجب أن تكون موافقة للعلوم الرائجة في عصر النزول، فالفنّ الرائج في عصر النبيّ موسى(عليه السلام) كان هو السحر، وكان السحرة في قمّة المهارة في هذا الفنّ، وهذا أوجب أن يتحدّاهم موسى (عليه السلام) بالعصا، واليد البيضاء، كما أنّ عصر النبيّ المسيح(عليه السلام)كان يسود فيه علم الطب ومداواة الأمراض الصعبة، فاقتضى أن تكون معجزته مشابهة للعلم الرائج، وأمّا عصر النبيّ محمد(صلى الله عليه وآله وسلم)فكان يختلف عنهما، فالرائج في عصره الشعر والخطابة والتقدّم في ميدان البلاغة، ولذلك كانت معجزته الكبرى هي القرآن، فما أبلغ وأجمل كلامه سبحانه:(لِكُلِّ أَجَل كِتَابٌ): أي لكلّ زمن حُكمه المناسب.

لقد استدلّت بعض الفرق الباطلة بقوله سبحانه: (لِكُلِّ أَجَل كِتَابٌ)على أنّ أجل القرآن قد مضى، لأنّه سبحانه يقول: (لِكُلِّ أَجَل كِتَابٌ).

والاستدلال موهون جدّاً لا ينبغي الالتفات إليه لِما عرفت من أنّ المراد من قوله: (كِتَابٌ)الحُكم المكتوب، وأنّ الفرائض تختلف حسب اختلاف الأوضاع والأحوال، فلكلّ وقت حُكم يكتب ويفرض على العباد حسب مقتضيات المصالح. والمستدلّ تصوّر أنّ الآية بمعنى أنّ لكلّ دين أجلاً وأمداً.

هذا، وذهب الشيخ الطوسي إلى أنّ في الفقرة تقديم وتأخير، وأنّ تقدير القول فيها: لكلّ كتاب أجل، كما قال: (وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ)(سورة ق:١٩)، والمعنى جاءت سكرة الحقّ بالموت، وهي قراءة أهل البيت(عليهم السلام)، وبه قرأ أبو بكر من الصحابة.(التبيان في تفسير القرآن: ٦/٢٦٢)

يلاحظ عليه: أنّه إنّما يتمّ ما قال إذا كانت الفقرة ردّاً على زعم اليهود ببقاء التوراة على حجّيّتها، فعندئذ يصحّ أن يقال: لكلّ كتاب أجل، ولكنّك قد عرفت أنّ الفقرة ردّاً على المشركين حيث يطلبون منه أن يأتي بآيات كونية مثل ما أتى بها موسى وعيسى(عليهما السلام)، وعندئذ لا يصلح أن يقال: لكلّ كتاب أجل، بل لا محيص من القول: (لِكُلِّ أَجَل): أي زمان (كِتَابٌ):

أي حُكم مكتوب ومعجزة خاصّة. وبهذا يظهر أنّه ليس في الفقرة تقديم وتأخير.

٣٩. (يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ):

اللَّوح الأوّل أو لوح المحو والإثبات

بعد أن أثبت قوله سبحانه: (لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ) أنّ لكلّ وقت وزمان حكماً يناسبه وتقتضيه أسبابه، ولذلك اختلفت الشرائع، كما اختلفت المعاجز والبيّنات والآيات، جاء البيان القرآني لبيان ضابطة كلّية من غير اختصاص بمورد الشرائع والبيّنات، وقال:(يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ) وهذه الآية كما قلنا ضابطة كلّية لا تختصّ بمورد دون مورد، وتدلّ على أنّ لله سبحانه لوحَين:

الأوّل: لوح الإثبات والمحو.

الثاني: لوح أُمّ الكتاب.

فما قضى الله سبحانه في اللوحِ الأوّل وقدّره يتطرّق إليه التغيير والتبدّل حسب المصالح والمقتضيات.

وأمّا ما قدّره في اللوح الثاني الذي عبّر عنه بـ(أُمُّ الْكِتَابِ) لأجل كونه أصلاً للّوح الأوّل، فهو مصون عن التغيّر والتبدّل.

إنّ رفع الإجمال عن مفاد الآية رهن مراجعة الكتاب العزيز والسنّة الشريفة، وإليك نماذج ممّا قُدِّر في لوح المحو والإثبات ثمّ تطرّق إليه المحو:

١. رفع العذاب عن قوم يونس(عليه السلام)

كان المقدّر في اللوح الأوّل نزول العذاب على قوم يونس(عليه السلام) وقد أوعدهم به نبيّهم، لكنّه لم يكن مقدّراً بشكل قطعيّ، ولذلك تطرّق إليه التغيير، وحلّ تقدير آخر محلّه، وهو رفع العذاب لأجل توبة القوم وتضرّعهم، وبذلك صارت الحادثة مظهراً لقوله سبحانه:(يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ ويُثْبِتُ) وما هذا إلاّ لأنّ نزول العذاب كان معلّقاً على بقاء القوم على غلوائهم وضلالهم، وبما أنّ المعلّق عليه لم يتحقّق، لم ينزل عليهم العذاب، ولذلك يقول سبحانه: (فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِين).(يونس:٩٨.)

٢. نسخ ذبح إسماعيل(عليه السلام)

تضافرت الآثار على أنّ رؤية الأنبياء رؤية صادقة، وربّما تكون وحياً(تفسير الدر المنثور: ٥ / ٢٨٠.)، وقد رأى إبراهيم(عليه السلام) في منامه أنّه يذبح ولده إسماعيل(عليه السلام) وأعلمه بذلك ليختبر صبره وجلَده، فإيجاب ذبح إسماعيل كان مقدّراً في اللوح الأوّل، ومع ذلك لم يتمّ، لماذا؟ لأنّه كان معلّقاً على شرط لم يتحقّق، فعدم حصول الشرط صار سبباً لعدم بقاء الأمر، فصار مظهراً لقوله سبحانه: (يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ ويُثْبِتُ) .

وأمّا إذا نظرنا إلى الروايات، ففيها ما يفسّر معنى قوله سبحانه:(يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ ويُثْبِتُ). وإليك عدداً منها:

أثر الدعاء في تغيير المصير

أ. أخرج الحاكم عن ابن عباس، قال: «لا ينفع الحذر من القدَر، ولكنّ الله يمحو بالدعاء ما يشاء من القدَر».(تفسير الدر المنثور: ٤ / ٦٦١.)

ب. أخرج ابن أبي شَيبة بإسناده عن عبد الله بن مسعود(رحمه الله) قال: ما دعا عبد قطّ بهذه الدعوات إلاّ وسّع الله له في معيشته:«يا ذا المنّ فلا يُمَنّ عليك، يا ذا الجلال والإكرام، يا ذا الطَّول، لا إله إلاّ أنت، ظهرَ اللاّجئين، وجارَ المستجيرين، ومأمنَ الخائفين، إن كنتَ كتبتني عندك في أُمّ الكتاب شقيّاً فامحُ عنّي اسم الشقاء، وأثبتني عندك سعيداً، وإن كنت كتبتني عندك في أُمّ

الكتاب محروماً مقتّراً عليّ رزقي، فامح حرماني ويسّر رزقي وأثبتني عندك سعيداً موفّقاً للخير، فإنّك تقول في كتابك:(يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ ويُثْبِتُ).(المصنَّف:١/٢٧٢، رقم الرواية٣٠١٤٥؛ تفسير الدر المنثور: ٤ / ٦٦١. ولعلّ الدّعاء نقل بغير الوجه الصحيح، فإنّ التغيير لا يتطرّق إلى أُمّ الكتاب.)

ج. أخرج الكلينيّ عن أبي الحسن موسى]الكاظم[(عليه السلام) قال: «عليكم بالدُّعاء فإنّ الدُّعاء لله، والطّلب إلى الله يردّ البلاء وقد قُدّر وقضي ولم يبق إلاّ إمضاؤه، فإذا دُعِيَ الله عزّ وجلّ وسئل، صُرف البلاء صرفة».(الكافي:٢/٤٧٠، رقم الرواية ٨ .)

أثر الصدقة في تغيير المصير

نقل السيوطي في «الدر المنثور» عن عليّ(عليه السلام) أنّه سأل رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) عن هذه الآية:(يَمْحُوا اللهُ) فقال له:«لأقرّنّ عينيك بتفسيرها ولأقرّنّ عين أُمتي بعدي بتفسيرها: الصدقة على وجهها، وبرّ الوالدين، واصطناع المعروف يحوّل الشقاء سعادة، ويزيد في العمر، ويقي مصارع السوء».(تفسير الدر المنثور: ٤/٦٦١.)

وبهذا اتّضح معنى قوله سبحانه:(يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ ويُثْبِتُ) بعد التأمّل في الآية نفسها، وما جاء في الكتاب العزيز والسنّة الشريفة ما يوضّحه.

وحصيلة الكلام: إنّه ليس للإنسان مصير واحد مقدّر لا يتغيّر ولا يتبدّل، بل هو قادر على أن يغيّر مصيره، وكلا الأمرين تقدير من الله وقضاء منه، ونعمَ ما قال سبحانه حاكياً عن نبيّه نوح(عليه السلام):(اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَال وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّات وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا)(نوح: ١٠ ـ ١٢.)، ويقول الله سبحانه: (إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْم حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ).(الرعد:١١.)

ثمّ إنّ للاعتقاد بالبَداء بالمعنى الذي ذكرت، أثراً بالغاً في التربية ورجوع العصاة إلى زمرة المطيعين، ولذلك نرى في الروايات اهتماماً خاصاً في الاعتقاد بالبداء، فقد روي عن أبي عبد الله]الصادق[(عليه السلام) أنّه قال:«ما بعث الله نبيّاً حتّى يأخذ عليه ثلاث خصال: الإقرار لله بالعبوديّة، وخلع الأنداد، وأنّ الله يقدّم ما يشاء ويؤخّر ما يشاء».(تفسير العياشي:٢/٢١٥.)

وقد روي عن العالم(عليه السلام) أنّه قال:«أيام الصحّة محسوبة وأيام العلّة محسوبة، ولا يزيد هذه ولا ينقص هذه، فإنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ يحجب بين الداء والدواء حتى تنقضي المدّة ثمّ يخلّي بينه وبينه فيكون برؤه بذلك الدواء، أو يشاء فيخلّي قبل انقضاء المدّة بمعروف أو صدقة أو برّ فإنّه (يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ) و (هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ)(البروج: ١٣.)».(فقه الرضا: ٣٤١.)

اللّوح الثاني أو أُمّ الكتاب

قد عرفت معنى قوله تعالى:(يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ ويُثْبِتُ) بقي الكلام في ذيل الآية، أعني: (أُمُّ الْكِتَابِ)وهو اللّوح المحفوظ الذي لا يتطرّق إليه التغيير والتبدّل، فالأحكام الإلهية المبنيّة على العدل ومقتضى الفطرة تقدير ثابت لا يحلّ مكانه تقدير آخر، وهو حُكم لا يتغيّر، ومن أمثلة ذلك:

١. الأحكام الموضوعة على وفق الفطرة السليمة، كما في قوله تعالى: (إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ).(النحل:٩٠.)

٢. إنّ رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) خاتم النبيّين، قال سبحانه:(مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَد مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْء عَلِيماً).(الأحزاب:٤٠.)

٣. خروج المهدي(عليه السلام) في آخر الزمان ليقيم العدل في الأرض، كلّ الأرض، فقد تضافر قول رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم): «لو لم يبق من الدنيا إلاّ يوم واحد لطوّل الله ذلك اليوم حتى يخرج رجل من ولدي فيملأها عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً».(

مسند أحمد:١/٩٩، وغيره.)

وعن أبي جعفر الباقر(عليه السلام)، قال: «... وإنّ الدنيا لا تذهب حتى يبعث الله منّا، أهل البيت، رجلاً يعمل بكتاب الله جلّ وعزّ، لا يرى منكراً إلاّ أنكره».(قرب الإسناد لعبد الله بن جعفر الحِميَري:٣٥٠، رقم الرواية١٢٦٠.)

أيا مهديُّ طال الهَجْر *** واشتطّتْ سواحلُهُ
أيا مهديَّ جلَّ الصبر *** حتى ناءَ حاملُهُ
أيا مولايَ لا أمْنٌ *** فتُؤوِيَنا معاقلُهُ
ولا رِفقٌ ولا عطفٌ *** به تندَى أناملُهُ
فأقبلْ خيرَ مأمول *** يُباري المُزْنَ نائلُهُ
وسُمْ خَسفاً مَنِ اختالتْ *** لعدوان جحافلُهُ[٤]

[٤]من قصيدة للسيد حيدر محمد علي الطحّان، المعاصر، يستنهض فيها المهديّ المنتظر(عليه السلام)ويشكو إليه فيها تفشّي الظلم والجور في العالم.

فهذه نماذج ممّا لا يتطرّق إليها المحو والتغيير، جئنا بها لإيضاح الآية، وإلاّ فالأصل فيما جاء به النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) هو الثبات والبقاء إلى يوم القيامة.

وبذلك يُعلم أنّ ما يرجع إلى اللّوح الأوّل عبارة عن مصير الأشخاص من السعادة والشقاء ومصير الأقوام من حيث الرخاء والشدّة، إلى غير ذلك ممّا يؤثّر فيه فعلُ العباد من الطاعة والعصيان.

***

البداء حقيقة قرآنية ناصعة

اتّفقت الإمامية على القول بالبَداء، وليس له من معنى إلاّ إمكان تغيير مصير الإنسان بسبب الأعمال الصالحة والطالحة التي يقوم بها. وقد عرفت كيف تُغيّر الصدقةُ والدعاءُ مصير المجتمعات والأفراد، وعلى هذا فالبَداء بهذا المعنى ـ بما أنّه حقيقة قرآنية ـ لا يختصّ بفرقة دون أُخرى، بل هو حقيقة اتّفق عليها المسلمون، سواء أصحّت تسميته بالبَداء أم لا، إذ ليس النزاع في التسمية، وإنّما النزاع في المسمّى وهو حقيقة لا تنكر. وأمّا إطلاق البداء على الله عند تغيير المصير فهو إطلاق مجازي، وإن شئت قلت: إنّ وصفه سبحانه بهذا الوصف: «بدا لله في قوم يونس، أو بدا لله كذا» من باب المشاكلة ؛ وهو باب واسع في كلام العرب، فإنّه سبحانه في مجالات خاصّة يعبّر عن فعله بما يعبّر به الناس عن أفعالهم، وما ذلك إلاّ لأجل المشاكلة الظاهرة بين فعل الإنسان وفعله سبحانه وإن كان الواقع على خلافها، وقد استخدمها القرآن الكريم في مواضع عديدة، منها قوله سبحانه:(إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ)(النساء:١٤٢.)، وقوله تعالى: (وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)(الأنفال:٣٠.)، وقوله عزّ وجلّ:(فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا)(الأعراف:٥١.)

ولا شكّ في أنّه سبحانه لا يَخدع ولا يمكر ولا ينسى، لأنّها من صفات الإنسان الضعيف، ولكنّه عزّ وجلّ وصف أفعاله بما وصف به أفعال الإنسان من باب المشاكلة، والجميع كناية عن إبطال خدعتهم ومكرهم وحرمانهم من مغفرة الله سبحانه، ومن ثمّ من جنّته ونعيمها.

ركام من الأوهام والأغلاط

قد عرفت حقيقة البَداء ووجه التسمية، وأنّ قولنا:«بدا لله» لا يراد به: ظهر له ما خفيَ عنه، فالله سبحانه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، غير أنّ طائفة من المتكلّمين والمفسّرين نسبوا إلى الإمامية ما هم برآء منه براءة يوسف ممّا اتُّهم به، وما

ذلك إلاّ لأنّهم لم يرجعوا إلى المصادر الشيعية لأعلامهم، وإنّما اقتصروا على السماع من غير تحقيق، وإليك نماذج من تلك الأوهام:

١. ابوالقاسم الكعبي البلخي(٢٧٣ـ ٣١٩هـ)، أحد كبار متكلّمي المعتزلة

نقل الشيخ الطوسي في مقدّمة تفسيره عنه، قولَه في كتاب التفسير: «قال قوم ـ ليسوا ممّن يُعتبرون ولكنّهم من الأُمّة على حال ـ : إنّ الأئمة المنصوص عليهم ـ بزعمهم ـ مفوّض إليهم نسخ القرآن وتدبيره، وتجاوز بعضهم حتى خرج من الدين بقوله: إنّ النسخ قد يجوز على وجه البَداء، وهو أن يأمر الله عزّ وجلّ عندهم بالشيء ولا يبدو له، ثم يبدو له فيغيّره، ولا يريد في وقت أمره به أن يغيّره هو ويبدّله وينسخه، لأنّه عندهم لا يعلم الشيء حتّى يكون، إلاّ ما يقدّره فيعلمه علم تقدير، وتعجرفوا فزعموا أنّ ما نزل بالمدينة ناسخ لما نزل بمكّة».(التبيان في تفسير القرآن:١/١٣ـ١٤.)

ترى أنّه فسّر البَداء بالمعنى اللُّغوي، وهو الظهور بعد الخفاء الذي يستحيل على الله سبحانه، وقد عرفت أنّ التسمية من باب المشاكلة، والشيخ البلخي لم يرجع إلى الكتب المؤلَّفة بيد مشايخ الإمامية، فلذلك نسب إليهم ما هم أبرياء منه، مضافاً إلى أنّ ما نسبه إلى الإمامية من تفويض نسخ القرآن إلى الأئمّة فرية لا مرية فيها.

٢. أبو الحسن الأشعري(٢٦٠ـ ٣٢٤هـ) مؤسّس مذهب الأشاعرة

قال ـ وهو يتحدّث عن عقائد الشيعة ـ: وكلّ الروافض، إلاّ شرذمة قليلة، يزعمون أنّه [سبحانه] يريد الشيء ثم يبدو له فيه .(مقالات الإسلاميين: ١ / ١١١، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد.)

وقد تبع محقّق الكتاب، المصنِّفَ، فقال في تفسير كلامه ما نصّه:ويظهر له وجه المصلحة بعد خفائه عليه، فيتغيّر رأيه.

أقول: ما نسبه المصنِّف ومحقّق الكتاب إلى الشيعة، لا يمتّ لعقيدتهم بصلة.

وأسوأ من ذلك ما ارتكبه المحقّق في تعاليقه من لعن الرافضة وتكذيبهم.

٣. فخر الدين الرازي(المتوفّى ٦٠٦هـ)

إنّ الرازي كأسلافه تبع ظاهر حرفية لفظ البَداء ونسبها إلى الشيعة، قال:

قالت الرافضة: البداء جائز على الله تعالى، وهو أن يعتقد شيئاً ثم يظهر له أنّ الأمر بخلاف ما اعتقده، وتمسّكوا به في قوله: (يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ ويُثْبِتُ). ثمّ ردّ عليه بقوله: واعلم أنّ هذا باطل ؛ لأنّ علم الله من لوازم ذاته المخصوصة، وما كان كذلك كان دخول التغيّر والتبدّل فيه محالاً.(تفسير الرازي:١٩/٦٦.)

ولا نعلّق على كلامه سوى القول بأنّه فرية صارخة.

وقد ذكر الرازي هذه الفرية أيضاً في كتابه «المحصّل»، قال: إنّ أئمة الرافضة وضعوا مقالتين لشيعتهم لا يظفر معهما أحد عليهم، الأُولى: القول بالبداء، فإذا قالوا: إنّه سيكون لهم قوّة وشوكة ثمّ لا يكون الأمر على ما أخبروه، قالوا: بدا لله تعالى فيه.(تلخيص المحصّل:٤٢١.)

والعجب أنّ الرازي يصف أئمّة أهل البيت(عليهم السلام) ـ أعني: الباقر والصادق والكاظم والرضا(عليهم السلام) ـ في تفسيره لسورة الكوثر بأنّهم من الأكابر من العلماء(تفسير الرازي: ٣٢ / ١٢٤.)، ولكنّه في هذا المقام يذكرهم بتعبير لاذع، ويزعم بأنّ أئمة الشيعة وضعوا مقالتين لشيعتهم، ولكن لا يذكر أين وضعوا ما نسب إليهم بالدليل القطعي.

٤. الشيخ محمّد أبو زُهرة المصري(المتوفّى ١٣٩٦هـ)

لعلّ زلة البلخي والأشعري والرازي زلة مغفورة في تفسير البَداء، لأنّ ظروفهم كانت تحكم ضد الشيعة وتعكس عقائدهم بشكل

محرَّف حسب ميول الحكام والخلفاء، ولكن هفوة الشيخ الأزهري أبو زهرة زلّة لا تغتفر، لأنّه بعد ما قرأ كتاب «أوائل المقالات في المذاهب المختارات» للشيخ المفيد وما علّق عليه المحقّق الزنجاني، علّق عليه بما نذكره هنا بنصّه: إنّ البَداء بمعنى أن ينزل بالناس ما لم يحتسبوا ويقدّروا كالغنى بعد الفقر، والمرض بعد العافية، فهذا موضع اتّفاق بين الشيعة والسنّة، ولكنّهم يقولون: من البَداء الزيادة في الآجال والأرزاق، والنقصان منها بالأعمال، ولا شكّ أنّ الزيادة في الآجال إن أُريد بالزيادة ما قدّره الله تعالى في علمه الأزليّ، والزيادة عمّا قدّر، فذلك يقتضي تغيير علم الله، وإن أُريد بالزيادة عما يتوقّعه الناس، فذلك ممّا ينطبق عليه قول الله تعالى: (وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ).(الزمر:٤٧)

وعلى ذلك نقول: إن كان البَداء في ما يحتسبه الناس ويقدّرونه فيجيء الأمر على خلاف ما توقعوا، فإنّ ذلك موضع إجماع، وإن كان البَداء هو التغيير في المقدور، فذلك ما لم يقله أحد من أهل السنّة، لأنّه تغيير لعلمه، وذلك لا يجوز.(الإمام الصادق(عليه السلام): ٢٣٨ ـ ٢٣٩.)

يلاحظ عليه: أنّ ما رتّب على القول بالبداء بأنّه يوجب تغيير علم الله، خلط بين المقدَّر في لوح المحو والإثبات، والمقدَّر في اللّوح المحفوظ، لأنّ مركز التغيير هو الأوّل وهو لوح مخلوق لله، وأمّا علمه سبحانه فهو قائم بذاته، بل عين ذاته لا يتغيّر ولا يتبدّل، وهو سبحانه حينما يقدّر شيئاً في لوح المحو والإثبات، يعلم مصير ذلك التقدير، وأنّه هل يثبت ولا يمحى لتمادي العبد فيما كان عليه، أو أنّه يتغيّر حسب اختلاف حالات العبد.

وحصيلة الكلام: إنّه سبحانه منذ الأزل يعلم أيَّ عبد يختار أيّ واحد من التقديرين طول حياته، أو أيّ عبد ينتقل من تقدير إلى آخر.

هذا، وسيوافيك عند تفسير قوله سبحانه: (وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ)(الصافات:١٣٩.) ما له صلة بالبحث. وبما أنّ هذه الحقيقة الناصعة خفيت على هؤلاء وغيرهم، فقد بسطنا الكلام فيها، ولذا نقدّم اعتذارنا لقرّائنا الكرام عن هذه الإطالة.

الآيات: الأربعون إلى آخر السورة (وَإِنْ مّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الذِي نَعِدُهُمْ..... وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ).

(وَإِنْ مّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ * أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ * وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَللهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْس وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبى الدَّارِ * وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ).

المفردات

إن ما نرينك: لفظة «إن» شرطية، ولفظة «ما» زائدة، جيء بها للتأكيد، والجزاء قوله:(فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ).

الأرض: يمكن أن يراد بها أهلها.

أطرافها: الأطراف: الجوانب.

لا معقّب: لا رادّ ولا مناقض لأحكامه.

المكر: إرادة المكروه في خفية، وإذا نسب إلى الله أُريد به إبطاله، أو العقوبات التي تترتّب على من يدبِّره.

عُقبى الدار: العاقبة الحميدة.

التفسير

٤٠. (وَإِنْ مّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ):

إيعاد المشركين بالعذاب
يظهر من قوله تعالى: (حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللهِ)(الرعد:٣١.) أنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) أوعدهم بالعذاب، ولكنّهم طلبوا منه استعجاله، استهزاء وتهكّماً، فالله سبحانه يؤكّد بأنّه سيصل إليهم ما أوعدهم به، إمّا في حياتك أو بعد وفاتك، أي على كلا التقديرين، كما قال:(وَإِنْ مّا نُرِيَنَّكَ)(«إن» ـ كما مرّ في المفردات ـ شرطية، و«ما» زائدة تفيد التأكيد.) أيّها النبيّ(بَعْضَ الذِي نَعِدُهُمْ): أي نعِدُ كفّار قريش بنصر المؤمنين عليهم وتمكينك منهم، (أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ)قبل أن ترى ما أوعدناهم به، فإنّ إيقاع العقاب الدنيويّ بهم ليس من مسؤولية النبي(صلى الله عليه وآله وسلم). وقد أرى الله سبحانه نبيّه بعض هذه الوعود يوم بدر ويوم الأحزاب وغيرهما.

سؤال وإجابة
المتبادر من قوله تعالى: (وَإِنْ مّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الذِي نَعِدُهُمْ) أنّه سبحانه ربّما يعذّبهم في الدنيا، ولكنّه في آية أُخرى ينفي نزول العذاب بهم مادام النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) بينهم ويقول: (وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ).(الأنفال:٣٣.) والجواب: إنّ المراد من الآية هو عذاب الاستئصال نظير العذاب الذي أخذ به الأقوام البائدة، وأمّا قتلهم وخذلانهم في ساحات الحرب كبدر والأحزاب فالآية غير ناظرة إليه. وعلى كلّ حال فإنّ وظيفة النبيّ تنحصر في إبلاغ الرسالة كما يقول: (فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ): أي علينا حسابهم. وفي قوله سبحانه: (فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ) قصْر إضافيّ، أي تقتصر مسؤوليتك على التبليغ الذي تقيم به الحجّة عليهم، وأمّا حسابهم فهو علينا، ونحن نتولاّه. ٤١. (أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ): بما أنّ المشركين كانوا يستعجلون بالآيات ونزول العذاب، سيقت الآية مساق العبرة بأنّهم لماذا يسألونك نزول الآيات والعذاب؟ (أَوَ لَمْ يَرَوْا)يعني المشركين، عبّر عن العلم بهلاك الأُمم الغابرة بالرؤية، مع أنّها لم تكن مرئيّة لمشركي عصر الرسالة، لأجل تواترها وتناقلها بين الناس، (أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا) والظاهر أنّ المراد من نقص الأرض أخذُ أهلها. وهل أُريد من الأرض جنسها أو أرض ما حول مكة، فالمشركون يرون بأُمّ أعينهم الإماتة والإهلاك في أعصارهم أو العصور المتقدّمة عليهم؟ الظاهر هو الثاني بشهادة قوله: (أَوَ لَمْ يَرَوْا)بمعنى المضيّ (الماضي) فقد رأوا بأُمّ أعينهم نزول العذاب على الأقوام السابقة بالاستئصال، والشاهد على ما ذكر قوله سبحانه:(بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلاَءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلاَ يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ)(الأنبياء:٤٤.). كيف؟ وإنّهم يمرّون على أراضيهم في ترحالهم، قال سبحانه: (وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ).(الصافات:١٣٧.) وبما ذكرنا ظهر عدم صحّة ما يقال: كان المسلمون يستولون على أطراف مكة ويأخذونها من الكفّار قهراً وجبراً، فانتقاص أحوال الكفرة وازدياد قوة المسلمين من أقوى العلامات والأمارات على أنّ الله تعالى ينجز وعده.(تفسير الرازي:١٩/٦٧.) يلاحظ عليه: أنّ الآية مكّية، وكذلك السورة وقد نزلت والمسلمون يعانون من الحصار والتضييق، وكذلك النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)، ومن هنا فالأَولى تفسير الآية بعذاب الاستئصال النازل على الأقوام السابقة. نعم، روي عن ابن عباس أنّ إنقاصها من أطرافها هو ذهاب علمائها وفقهائها وخيار أهلها.(جامع البيان(تفسير الطبري):٨/٢١٩، برقم ٢٠٥٣٥.) وروى ابن بابويه مرسلاً عن الصادق(عليه السلام) أنّه سئل عن قول الله عزّ وجلّ:(أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا)فقال:«فَقْد العلماء».(مَن لا يحضره الفقيه:١/١٨، برقم ٥٦٠. ولاحظ: البرهان في تفسير القرآن:٥/٣٦٦.) وروي نحوه عن مجاهد.(جامع

البيان (تفسير الطبري): ٨ / ٢١٩، برقم ٢٠٥٣٦.)

يقول الشريف الرضيّ: وعندي في تفسير الآية قول آخر، وهو أن يكون المراد بنقص الأرض ـ والله أعلم ـ موت كرامها، وتكون الأطراف هاهنا جمع طِرْف لا جمع طَرَف، و الطِرْف هو الشيء الكريم، ومنه سميّ الفرس طِرْفاً إذا كان كريماً، وعلى ذلك قول أبي الهندي الرّياحي:

شربنا شربة من ذات عِرق *** بأطراف الزّجاج من العصيرِ

أي بكرائم الزّجاج، ولم يمضِ في هذا قول لأحد من العلماء.(تلخيص البيان في مجازات القرآن:٧٧.)

أقول: الظاهر أنّ الآية ناظرة إلى تهديد المشركين الذين كانوا يستعجلون عذاب الاستئصال مع أنّهم رأوا بأُمّ أعينهم ما حلّ من العذاب والنّكال بالأقوام السابقة.

إنّ تفسير نقص الأرض بذهاب خيارها وصلحائها وعلمائها، تفسير على خلاف السياق، فلا محيص من القول بأنّ في نقصان الأرض بإهلاك العتاة عبرة للمشركين حتى لا يستعجلوا. نعم، في نقصان الأرض بذهاب خيارها وعلمائها تنبيه للمؤمنين على أنّ موت العالم ثَلمة لا يسدّها شيء، والمقصود أن يكون عبرة للمشركين لا للمؤمنين.

ثمّ إنّه لمّا كان في تأخير الوعيد توهّم كذبه، عاد البيان القرآني لردّ هذا الوهم قائلاً:(وَاللهُ يَحْكُمُ)ويحقّق وعده وإن تأخر (لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ): أي لا رادَّ ولا مناقض لحكمه، فإذا قضى أمراً نفذ (وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ): أي سريع الانتقام، والإمهال لا ينافيه، لأنّ الأُمور مرهونة بأوقاتها.

٤٢. (وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْس وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبى الدَّارِ):

تأصُّل مسلك المشركين في المكر ومداومتهم عليه

الآية تسلية للنبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) قائلة بأنّ مكر المشركين والجاحدين لأصحاب الرسالات السماوية سنّة جرى عليها السابقون وتبعهم اللاحقون، كما يقول:(وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) فقد مكر نمرود بإبراهيم(عليه السلام)، وفرعون بموسى(عليه السلام)، واليهود بعيسى(عليه السلام)، وسلكوا طرقاً مختلفة للقضاء على دعواتهم، ولكن (فَلِلّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا)فلا يؤثّر مكرهم في حقّ النبيّ، فالله سبحانه يملك المكر كلّه ويبطله ويردّه على أهله، فليعتبروا، فالله سبحانه قد تعهّد بنصر الأنبياء، قال سبحانه: (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ).(غافر:٥١.)

وعلى هذا فمعنى قوله سبحانه: (فَلِلّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا)هو إبطال مكرهم، والتعبير به مع أنّه سبحانه أعلى وأرفع منه (لأنّه من أوصاف العاجزين)، إنّما هو ـ كما قلنا سابقاً ـ من باب المشاكلة.

وفي نهاية الأمر(يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْس) من خير وشرّ، ولكنّه يخصّ الكفّار بشيء خاصّ، وهو قوله: (وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبى الدَّارِ): أي سيظهر لهم عند انكشاف الحقائق ورفع الحجب أنّ حسن العاقبة لمن؟

٤٣. (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ):

لقد ختم الله سبحانه هذه السورة بما ورد في افتتاحها، حيث قال تعالى هناك:(تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ) فقوله هنا: (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً)تجديد لما في صدر السورة، والله سبحانه يردّ على إنكارهم رسالة الرسول بأمرين (بشهادتين):

١. شهادة الله سبحانه.

٢. شهادة مَن عنده علم الكتاب.

أمّا الأوّل، فأشار إليه سبحانه بقوله:(كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ) وأمّا الدليل على شهادة الله على رسالته فبالبيان التالي: إنّ الله سبحانه آتى النبيّ معاجز كثيرة ودلائل قاطعة تشهد على أنّه مبعوث من الله سبحانه، فإنّ قيامه(صلى الله عليه وآله وسلم) بها مع عجز الآخرين أدلّ دليل على أنّه مبعوث من الله سبحانه. فلو كان صادقاً في كلامه هذا فهو، وإلاّ يلزم تسليط الكاذب على المعاجز التي تُضلّ الناس وتغرّهم، وهذا ينافي كونه حكيماً رحيماً بعباده، وقد مرّ بيان ذلك في تفسير قوله سبحانه:(قُلْ أَيُّ شَيْء أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ).(الأنعام:١٩.)

وأمّا الثاني، فقد أُشير إليه بقوله: (وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ): أي والذي عنده علم الكتاب. وقد اختلفت كلمة المفسرين فيما أُريد بقوله:(وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ)، فأكثرهم قالوا بأنّ المراد هو عبد الله بن سلام وسلمان الفارسي وتميم الداري، وغيرهم ممّن أسلموا من أهل الكتاب. وهذا التفسير غير تامّ، لأنّ السورة مكية وهؤلاء أسلموا في الفترة المدنية. نعم من قال بهذا التفسير ربّما ذهب إلى أنّ هذه الآية مدنية، وهو كما ترى.

والظاهر أنّ المراد من (الْكِتَابِ) في هذه الآية هو القرآن الكريم، وقد مرّ أنّ الآية إعادة لما في مطلع السورة، والكتاب الوارد هناك هو القرآن الكريم أيضاً، فأُريد بقوله:(وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ) العلماء الواقفون على حقيقة القرآن، العالمون بأنّه كتاب سماويّ ليس من صنع البشر، وأنّه فوق طاقة الناس جميعاً، فشهادة هؤلاء بجملتهم أقوى شاهد على صحّة رسالة النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)، وبذلك يُعلم أنّ ما ورد عن أئمّة أهل البيت(عليهم السلام)من أنّ المراد بمن عنده علم الكتاب هو الإمام علي(عليه السلام). ولا شكّ في أنّ الآية لو انطبقت على أحد ممّن آمن بالنبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) يومئذ لكان هو(عليه السلام)، فقد كان أعلم الصحابة بكتاب الله تعالى.(انظر: الميزان في تفسير القرآن:١١/٣٨٧.)

وإليك واحدة من هذه الروايات الكثيرة.

روى العيّاشي عن الفُضيل بن يسار، عن أبي جعفر[الباقر](عليه السلام)، في قوله: (وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ)، قال: «نزلت في عليّ(عليه السلام)، إنّه عالم هذه الأُمّة بعد النبيّ صلوات الله عليه وآله».(تفسير العيّاشي:٢/٤٠١ برقم ٢٢٥٨؛ بحار الأنوار:٣٥/٤٣٢.)

***

تمّ تفسير سورة الرعد

وله الحمد في الأُولى والآخرة

سورة إبراهيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (١) اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٢) الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٣) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٥) وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (٦) وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (٧) وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (٨) أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ

قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا
أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٩) قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ
ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (١٠)
قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ
وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١) وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ
(١٢) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣)
وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (١٤) وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥) مِنْ وَرَائِهِ
جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ (١٦) يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ
(١٧) مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ
الْبَعِيدُ (١٨) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (٢٠)
وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا
اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ (٢١) وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ
وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا
بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢) وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ (٢٣) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً
كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ
(٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ (٢٦) يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (٢٧) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ
الْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ (٢٩) وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (٣٠) قُلْ
لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ (٣١) اللَّهُ الَّذِي
خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ
وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ
تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ
(٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٦) رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ
غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ
(٣٧) رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (٣٨) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى
الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩) رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (٤٠) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي
وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (٤١) وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ
(٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ (٤٣) وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا
أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ (٤٤) وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ
الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ (٤٥) وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ

مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (٤٦) فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (٤٧) يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨) وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٤٩) سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ (٥٠) لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٥١) هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (٥٢)

خصائص السورة

تسمية السورة

سُمِّيت هذه السورة في المصاحف بسورة «إبراهيم»، لاشتمالها على قصة إسكانه ولده في جوار البيت العتيق وابتهالاته إلى ربّه بأن يشيع الأمن والسلام في البلد الحرام، وأن يجنّبه هو وبنيه عبادة الأصنام، إلى غير ذلك من دعواته المباركة. وتعدّ السُّورة إحدى السُّور الستّ التي سُمِّيت باسم الأنبياء ـ أعني: سورة يونس وهود ويوسف وقد سبقت، وهذه السورة، وسورة محمد ونوح الآتيتين ـ منهم ثلاثة من أُولي العزم، وهم: نوح وإبراهيم(عليهما السلام)ومحمد(صلى الله عليه وآله وسلم).

وختام هذه السورة كبدايتها، إذ جاء في آخرها قوله تعالى: (هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ)(إبراهيم:٥٢.)، وهو نفس ما جاء في صدر السورة من قوله تعالى:(كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ).(إبراهيم:١.)

وتشارك هذه السورة السور الأربع وهي: يونس، هود، يوسف، الحِجر، في أنّها افتُتحت بالحروف المقطّعة(الر)ثمّ أُردفت بذكر القرآن الكريم، فجاء في الأُولى قوله: (تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ)، وفي الثانية: (كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ...)، وفي الثالثة: (تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ)، وفي الرابعة: (تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ).

عدد آيات السورة ومحلّ نزولها

عدد آيها اثنتان وخمسون في عدّ الكوفي، وخمس وخمسون في عدّ الشامي، وأربع وخمسون في عدّ الحجازي، وقد ذكر الطبرسي مواضع الاختلاف.(لاحظ : مجمع البيان: ٦ / ٥٥.) والسورة مكّية كلّها عند الجمهور، وربّما استثنيت منها الآيتان الثامنة والعشرون والتاسعة والعشرون، وسنبيّن حالهما عند التفسير.

أغراض السورة

الظاهر أنّ الآية الأُولى تحدّد غرض السورة ومحور الهدف منها، وهو أنّ الغرض الأسمى من إنزال القرآن هو إخراج الناس من الظلمات إلى النور، وفي ظل هذا الموضوع تشير إلى تاريخ الأنبياء السابقين وموقف أقوامهم منهم، حيث إنّ أنبياءهم بُعثوا إليهم كما بعث نبيّنا إلى الناس كافّة لإخراجهم من ظلمات الكفر والشرك والضلال إلى نور الإيمان والتوحيد والهدى.

ومن غرر آيات السورة قوله سبحانه: (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَة طَيِّبَة أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِين بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ).(إبراهيم:٢٤ و٢٥.)

الآيات: الأربع الأُولى(الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ... وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ).

(الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ * اللهِ الذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَاب شَدِيد * الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الأخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلاَل بَعِيد * وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُول إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ).

المفردات

الظلمات: جمع الظلمة، واستُعير هنا للكفر.

النور: استعير هنا للإيمان.

بإذن: الإذن: التيسير والتوفيق.

العزيز: الغالب.

الحميد: المحمود والمنزّه عن كلّ نقص.

ويل: هلاك.

يستحبّون: يختارون ويؤثرون. ويشهد لهذا المعنى قوله: (عَلَى الأخِرَةِ)، نظير قوله تعالى:(فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى).(فصّلت:١٧.)

يبغونها: يبغون: يطلبون.

عِوَجاً: عدولاً عن الاستقامة، وانحرافاً عنها.

بلسان: اللِّسان: اللُّغة.

التفسير

١.(الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ):

نزول الكتاب لإخراج الناس من الكفر إلى الإيمان

تقدّم أنّ الغرض الأساسي في هذه السورة هو تبيين أنّ الغاية من إنزال الكتاب المجيد إخراج الناس من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، ولأجل ذلك أُشير في السورة إلى تاريخ بعض الأنبياء الذين بُعثوا لتلك الغاية.

قوله: (الر) من الحروف المقطّعة، وقد مرّ الكلام فيها سابقاً وقلنا: إنّها إشارة إلى أنّ القرآن مؤلَّف من هذه الحروف، وفي الوقت نفسه هو كتاب سماويّ لا مصنوع بشريّ، ويخاطب المنكرين بأنّكم إن كنتم في شكّ من ذلك فعليكم الإتيان بمثل هذا الكتاب المؤلّف من هذه الحروف التي هي في متناولكم، فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاعلموا أنّه ليس من صنع رسولنا، قال تعالى: (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللهِ وَأَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ).(. هود: ١٣ـ١٤.)

ويشهد لهذا التفسير للحروف المقطّعة أنّ السور التي ابتدأت بالحروف المقطّعة جاء بعدها ذكر القرآن الكريم (بتعابير مختلفة) إلاّ القليل منها، وهذه أيضاً تحدّثت عنه في ثنايا السورة. وسيأتي تفصيل ذلك في تفسير سورة الأحقاف.

قوله تعالى: (كِتَابٌ) احتُمل أن يكون خبراً لقوله: (الر)، ولكنّ الظاهر أنّه خبر لمبتدأ محذوف تقديره «هذا»(أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ) وقد ذكر المنزل إليه (إِلَيْكَ) تشريفاً وتكريماً، وأمّا الغاية فهي (لِتُخْرِجَ النَّاسَ)عربياً أو غيره، أي كلّ من على البسيطة بشهادة قوله: (وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ).(الأنعام:١٩.)

وعلى هذا فقوله:(لِتُخْرِجَ النَّاسَ) دليل على عموم رسالته، وأنّها لا تختصّ بالعرب، بل هو رسول إلى الناس كافّة بأيّ لون كانوا، وبأيّ لسان تكلّموا.

وكيف لا يكون كذلك وقد نزّله (لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا)(الفرقان:١.)؟ ولا منافاة بين أن تكون رسالته عالمية والكتاب المنزل إليه عربياً، كما سيوافيك بيانه في تفسير الآية الرابعة.

قوله تعالى: (مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ): أي من الكفر إلى الإيمان، واستعيرت الظلمات للكفر والنور للإيمان، لأنّ الكافر لا يملك

جواباً لهذه الأسئلة: من أين جاء؟ ولماذا جاء؟ وإلى أين يذهب؟ ومن ثمّ يعيش في حَيرة واضطراب، في الفكر والنفس والسلوك، فيكون كالإنسان الذي يتخبّط في الظلمات، أمّا المؤمن فيشرق قلبه وعقله بنور الإيمان، فيهتدي إلى معرفة الجواب عنها، ومن ثم يعيش الاطمئنان وهو يسلك الطريق المؤدّية إلى مرضاة الله عزّ وجلّ. وأفرد النور وجمع الظلمات لأنّ النور كناية عن الصراط المستقيم الموصل إلى الحقيقة وهو طريق واحد، والظلمات كناية عن الكفر وهو ذو وجوه مختلفة، فناسبَ الجمع.

ثمّ إنّ المراد من الظلمات ـ كما قلنا ـ هو الكفر، فناسب الذمّ، وأمّا الظلمات المادّية فهي نعمة من الله سبحانه إلى عباده، ولذلك يمتنّ على عباده بقوله سبحانه:(الْحَمْدُ للهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ).(الأنعام:١.)

ولولا الظلمات لما دامت الحياة، فإنّ حرارة الشمس لو دامت ـ مثلاً ـ لأبادت كلّ موجود حيّ من الإنسان والنبات والحيوان. والإنسان إنّما يستريح خلال وقت الظلمة.

ونسب الإخراج إلى النبيّ فقال:(لِتُخْرِجَ) لأنّ للنبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) دوراً في هداية الناس وذلك من خلال تلاوته وإرشاده وتبليغه له، وذلك لا ينافي قوله تعالى: (إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)(القصص:٥٦.) لأنّ الآية بصدد سلب الأصالة عن النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) في أمر الهداية، وهذا لا ينافي تصدّيه لها، إذ لولا إذن الله سبحانه، الذي جعل للهداية أسباباً فمَن أخذ بها اهتدى، لما حصلت الغاية، كما يقول: (بِإِذْنِ رَبِّهِمْ): أي بتيسيره وتوفيقه سبحانه.

ثمّ إنّ الرازي نقل أنّ أصحابه الجبريّين احتجّوا على صحّة قولهم في أنّ فعل العبد مخلوق لله تعالى بقوله سبحانة: (بِإِذْنِ رَبِّهِمْ) فإنّ معنى الآية أنّ الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) لا يمكنه إخراج الناس من الظلمات إلى النور إلاّ بإذن ربّهم، فإنّ المراد من «الإذن» هو المشيئة .(تفسير الرازي:١٠/٧٤.)

أقول: عزب عن الرازي أنّ الآية تصلح لأن تكون ردّاً على مَن يقول باستقلال العبد في فعله واستغنائه فيه عن الله سبحانه، ولا تصلح أن تكون ردّاً على القول بالأمر بين الأمرين، فإنّ فعل الإنسان إنّما يوصف بكونه مخلوقاً لله لأجل أنّ الفاعل مخلوق لله، وبواسطته يكون فعله مخلوقاً لله، ومع ذلك لا يكون دليلاً على الجبر؛ لأنّه تعالى خلق الإنسان ذا مشيئة واختيار، فلو اختار أحد طرفي الشيء، فهو مخلوق للفاعل وفي الوقت نفسه مخلوق لله سبحانه ولا يستلزم ذلك الجبر، لأنّه تعالى شاءت حكمته أن يجعله مختاراً فيما يفعل ويترك.

هذا، وفي إضافة الربّ إلى الضمير «هم» العائد إلى الناس إشارة إلى أنّه سبحانه ربّهم، وربّ كلّ شيء هو من يقوم بمصالحهم كما يقال: ربُّ الدار وربّ الضيعة، فإنزال الكتب وإرسال الرسل من الربّ إلى الناس لأجل ترفيعهم وإيصالهم (إِلَى صِرَاطِ) الله(الْعَزِيزِ): أي الموصوف بالعزّة والقدرة، و(الْحَمِيدِ): أي المحمود في جميع أقواله وأفعاله وأوامره ونواهيه. وقد أُشير إلى مضمون الآية في قوله تعالى:(هُوَ الذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَات بَيِّنَات لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ).(الحديد:٩.)

وجه توصيفه سبحانه بكونه عزيزاً وحميداً

ثمّ إنّه سبحانه أتمّ هذه الآية باسمين من أسمائه الحسنى ـ أعني: (الْعَزِيزِ) و(الْحَمِيدِ) ـ فما وجه المناسبة لذكر هذين الإسمين في الآية؟ وما وجه تقديم العزيز على الحميد فيها؟

أمّا وصفه سبحانه بهذين الإسمين فيحتمل أن يكون لأجل أنّ صراطه إنّما يكون مُخرجاً من الظلمات إلى النور إذا كان صاحب الصراط عزيزاً لا يُغلب، فليس هناك صراط أشرف وأنبل من صراطه، ومن كان كذلك فيكون محموداً في صفاته وأفعاله، وبذلك يُعلم وجه تقديم (الْعَزِيزِ) على (الْحَمِيدِ) فإنّه لكونه عزيزاً صار سبباً لكونه حميداً.

ويمكن أن يقال: إنّه اختار هذين الوصفين الكريمين: (الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ)دون أن يقول: الغفور الرحيم، أو ما أشبههما؛ لأنّ سياق

الآيات يدلّ على أنّه سبحانه أرسل رسله لهداية الناس، فمن آمن منهم يُجزى ويثاب، وأمّا من كفر فيعاقب، وعندئذ ناسب أن يختم الآية بهذين الوصفين، وهو أنّه «عزيز» لا يُغلب في ما حكم، كما أنّه «حميد» لا يُذمّ في تعذيب الكافرين، فهو بعزته يحكم، وبكونه محموداً يثيب ويجزي.

جدير بالتذكير أنّ «اللاّم» في قوله: (لِتُخْرِجَ) لام الغرض والغاية، قال الطبرسي: ولا يجوز أن تكون لام العاقبة، لأنّه لو كان ذلك لكان الناس كلّهم مؤمنين، والمعلوم خلافه.(مجمع البيان:٦/٦٣.)

توضيحه: أنّ الفارق بين لام الغرض ولام العاقبة هو أنّ الغرض قد يتخلّف، وذلك لأنّه عبارة عن الهداية الاختيارية، وهي تارة تتحقّق وأُخرى تتخلّف.

وأمّا لام العاقبة فهي عبارة عمّا ينتهي إليه الشيء، وإن لم تكن هناك إرادة كما في قوله تعالى:(وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ)(يونس:٨٨.)، وبما ذكرنا من الفرق بين اللاّمين يعلم أنّ ما أورده صاحب «روح المعاني» من الإشكال غير تامّ، فلاحظ.(روح المعاني:١٣/١٨١.)

وعلى كلّ تقدير، فالآية ـ نظير سائر الآيات ـ تدلّ على أنّ أفعاله سبحانه معلّلة بالأغراض، خلافاً للأشاعرة حيث قالوا بخلوّ أفعاله عنها، ولكن وصف أفعال الله عزّ وجلّ بالخلوّ عنها يجعلها أفعالاً عبثية، وقد قال تعالى: (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ).(المؤمنون:١١٥.)

معنى كون أفعاله معلّلة بالأغراض

نعم، وصف فعله بالغرض لا يعني كونه ذا حاجة إليه حتى ينافي كونه غنيّاً على الإطلاق، إذ ثمّة فرق بين كون الغرض عائداً إلى الفاعل أو إلى الفعل، فالممتنع على الله هو الأوّل دون الثاني، لمنافاة الأوّل لغناه دون الآخر. وبعبارة أُخرى: هناك فرق بين أن يكون للفعل غاية وللفاعل غاية، والذي يجمع بين غناء الفاعل من جانب، وخروج الفعل عن العبث هو الأوّل فتدبّر. والتفصيل في محلّه. ومن حاول إخراج أفعاله سبحانه عن الغرض فلابدّ أن يؤوّل عشرات الآيات الدالّة على ذلك، وهو كما ترى تلاعب بآيات الله وتفسير لها بالآراء، وهؤلاء مكان أن يعرضوا عقائدهم على القرآن، جعلوا القرآن تابعاً لعقائدهم.

ثمّ إنّ هناك سؤالاً، وهو: إنّ قوله سبحانه:(لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) شامل لأئمّة أهل البيت(عليهم السلام) ومن يتلوهم من الأولياء والأتقياء، ومعنى ذلك كونهم موصوفين بظلمة الكفر ثم خرجوا منها ببلاغ النبيّ وكتابه، مع أنّهم لم يدخلوا في الظلمات حتى يخرجوا منها.

قلت: إنّ الشيخ الطبرسي أجاب عن هذا الإشكال بقوله: إنّ ذلك يجري مجرى قول القائل: أخرجَني والدي من ميراثه، فمنعُه من الدخول فيه إخراج. ومثله قوله في قصة يوسف:(إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ)(يوسف:٣٧.) مع أنّه لم يكن فيها قطّ.(مجمع البيان:٢/٢٠٩.)

وعلى ذلك فأئمّة أهل البيت(عليهم السلام) والأتقياء من الأُمّة لم يسلكوا طريق الكفر والضلالة حتى تغشاهم ظلماته، ومع ذلك يصحّ في حقّهم قوله: (لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ)، فإخراجهم منها من مقولة الدّفع، لا الرّفع، والفرق بينهما واضح.

٢. (اللهِ الذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَاب شَدِيد):

القراءة المعروفة هي جرّ لفظ الجلالة لأنّه عطف بيان لقوله: (الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) جيء به لأنّه أشهر الأسماء له تعالى. ومَن قرأ بالرفع فقد جعله خبراً لمبتدأ محذوف ـ أعني: هو الله ـ ولا يخلو من تكلّف.

ثمّ إنّه سبحانه يصف منزّل القرآن ـ وراء الوصفين السابقين ـ بقوله: (اللهِ الذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ)لأجل حكاية

عظمته وسعة سلطانه، وفيه تعريض بالمشركين حيث تركوا عبادة مالك السماوات والأرض وخالقها وانكبّوا على عبادة مخلوقاته الضئيلة، ولذلك يتوعّدهم بقوله:(وَوَيْلٌ): أي هلاك (لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ)يلاقونه (شَدِيدٍ) وأُريد به عذاب يوم القيامة. وكأنّ المعنى ـ كما يقول الزمخشري ـ : يُوَلولون من عذاب شديد، ويضجّون منه ويقولون : يا ويلاه.(تفسير الكشّاف: ٢ / ٣٦٥.)

٣. (الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الأخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ):

عرّف سبحانه هؤلاء الذين يصيبهم العذاب الشديد بصفات ثلاث:

١. (الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ) يقال: استحببت الرجلَ أي اتّخذته حبيباً، فهؤلاء يتّخذون الدنيا حبيبة لأنفسهم دون الآخرة ويؤثرونها على الآخرة، فالدنيا هي أكبر همّهم وغاية آمالهم، وكأنّه ليس وراء الدنيا دار أُخرى.

٢. (وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ) الظاهر المراد صدّ الآخرين عن الدخول في سبيل الله، فمن أراد أن يسلك الصراط المستقيم يمنعونه من سلوكه، وينفقون أموالهم ليصدّوه عن سبيل الله تعالى.

٣. (وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا) الظاهر أنّ الضمير في (يَبْغُونَهَا) راجع إلى (سبِيلِ) وهو يذكّر ويؤنث، نظير ما في قوله تعالى: (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ).(آل عمران:٩٩.) والظاهر أنّ قوله:(وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا) بمعنى: يبغون لها العوج، بنزع الخافض. والمعنى: يريدون أن يجعلوا سبيل الله معوجّة منحرفة.

والفرق بين الوصفين الثاني والثالث، هو أنّهم يمنعون الناس في الثاني من سلوك الصراط المستقيم، وأمّا في الثالث فيسعون في إلقاء الشكوك والشبهات في الدين الحقّ ويحاولون تقبيحه بكلّ ما يقدرون عليه من الحيل. ولذلك وصفهم بقوله:(أُولَئِكَ فِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ)لأنّهم ضُلاّل ويحاولون إيقاع الآخرين في الضلالة، بمحاولاتهم الماكرة.

ثم إنّ وصف الضلال بالبعيد من باب المجاز، فإنّ البُعداء هم الكفّار، وصف به الضلال مجازاً فهم بُعداء عن الحقّ والحقيقة واقعاً.

٤. (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُول إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ):

ذكر سبحانه في صدر السورة أنّه أنزل إلى رسوله كتاباً لإخراج الناس من الظلمات إلى النور وبذلك صار رسولاً للعالمين، ومع ذلك أنزل معه كتاباً بلغة قومه، فيطرح هنا سؤال، كيف يمكن الجمع بين كون رسالته عالمية وكون كتابه بلغة قومه؟ فأجاب سبحانه بقوله:(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُول إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ): أي أنّه لا يرسل رسولاً إلاّ بلغة قومه الذين أُرسل إليهم حتى إذا بيّن لهم رسالته وأوقفهم على حدودها وأحكامها وأهدافها، فهموا عنه ووعَوا أقواله، ومن ثمّ يتيسّر لهم الإيمان به.

ومن هنا بعث الله سبحانه نبيّ الإسلام بلسان قومه بالرغم من عالمية رسالته، فإنّ قومه يشكّلون ـ إذا آمنوا ـ القاعدة الصالحة لتبليغ الرسالة للأُمم الأُخرى، ولأجل ذلك صرف الرسول همّته أوّلاً في هداية قومه وإنقاذهم حتى يتسنّى له هداية الآخرين، وهذه سنّة متّبعة في الأُمور العامّة فضلاً عن الأُمور الهامّة. وعلى هذا فلا غرو في أن يكون مبعوثاً لعامّة الناس ولكن لغته ولغة كتابه لغة قومه، فقومه ينتفعون بكتابه والآخرون ينتفعون بالترجمة، ولا ملزم لأن ينزل الكتاب بألسنة مختلفة. هذا هو المفهوم من الآية.

وما ذكرنا هو الذي يشير إليه بقوله:(لِيُبَيِّنَ لَهُمْ): أي ليبيّن لهم الدين، فعند ذلك يكون الناس على صنفين: صنف يعرض عن سماع دعوة الرسول ولم ينظر في معجزته عناداً ومكابرة، فهذا يُحرم من هداية الله، كما يقول: (فَيُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ) ؛ وصنف يُقبل عليه ويملك الاستعداد لسلوك طريق الهداية فهذا يُرزق الهداية، كما يقول: (وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)وليست مشيئته سبحانه بلا ملاك حتى يلزم الجبر، وإنّما تعلّقت مشيئته على هداية من نظر في معجزة النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) وتدبّر في دعوته، كما تعلّقت مشيئته على إضلال من أعرض عن النظر في معجزة النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)ولم يتأمّل في كلامه. وفي نهاية الآية يصف

ذاته المقدّسة بوصفين: (وَهُوَ الْعَزِيزُ): أي الذي لا يُغلَب، سواء آمنتم أم لا (الْحَكِيمُ)في إرساله الرُّسل وفي تشريعه.

ويُحتمل أنّ الآية جاءت لدفع شبهة أثارها المشركون بقولهم: إنّ للكتب الإلهية لغة خاصة تنزل بها ثم تفسّر إلى الذين لا يعرفون تلك اللُّغة، وهذه اللُّغة هي اللُّغة العبرانية أو السريانية التي نزلت بها التوراة ثمّ الإنجيل، فلماذا لم ينزل القرآن بإحدى هاتين اللُّغتين التي هي لغة الكتب السماوية؟

فأجاب الله تعالى عن ذلك بأنّه جرت سنّة الله على إرسال كلّ رسول بلغة قومه، فلذلك أنزل التوراة بلغة قوم موسى(عليه السلام)، وأنزل الإنجيل بلغة قوم عيسى بن مريم(عليهما السلام)، وأنزل القرآن بلغة قوم الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم).

وعلى كلّ تقدير، ففي إطلاق اللِّسان في القرآن وإرادة اللُّغة نوع مجاز من باب إطلاق المحل وإرادة الحال.

ثمّ إنّ المراد من قوله سبحانه: (بِلِسانِ قَوْمِهِ): أي بلسان من يعيش النبيّ فيهم، سواء أكان بينه وبينهم علاقة نسبية أم لا، بشهادة أنّ بعض الأنبياء لم يكن بينه وبين مَن يعيش معهم تلك العلاقة، نظير لوط(عليه السلام)الذي كان من الكلدانيّين وهم سريانية اللِّسان، وأُرسل إلى المؤتفكات وهم عبرانيون، ومع ذلك سمّاهم تعالى قومَه في مواضع من القرآن.(انظر: الميزان في تفسير القرآن:١٢/١٥.)

الآيات: الخامسة إلى الثامنة(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا ...إِنَّ اللّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ).

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ) (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلاَءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ) (وَ قَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ):

المفردات

بآياتنا: أُريد الآيات التسع التي يذكرها القرآن الكريم، قال تعالى:(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ).(الإسراء:١٠١.)

بأيّام الله: الأيّام: تطلق على الأيّام المشتملة على الوقائع، من غير فرق بين النعمة والنقمة، كيوم ذي قار ويوم الفجار، وأُريد هنا أيام النِّعم لبني إسرائيل حيث نجّاهم من سلطة الفراعنة وأنقذهم.

قال السيد الرضيّ(رحمه الله): إذا قيل أيام العرب، فالمراد به الأيام التي كانت فيها الوقائع المشهورة والملاحم العظيمة، وقد يجوز أن تكون الأيام هاهنا عبارة عن أيام النِّعم.(انظر: تلخيص البيان في مجازات القرآن:٧٨.)

صبّار: صيغة مبالغة، أي كثير الصبر.

شكور: صيغة مبالغة، أي كثير الشكر.

يسومونكم: يذيقونكم، ويكلّفونكم.

تأذّن: من الأذان، وهو الإعلام.

التفسير

٥. (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ):

ما هو المراد من تذكيرهم بأيّام الله؟

لمّا ذكر سبحانه، في الآية المتقدّمة، وظيفة النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) بقوله: (لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) جاء البيان القرآني مقروناً بلام القسم، أعني قوله: (لَقَدْ) لبيان النظير تطييباً لنفس النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)، فقال عزّ من قائل:(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا): أي بالآيات التِّسع، وهي:

١. إلقاء العصا ٢. اليد البيضاء ٣. حلّ العقدة من لسانه

٤. البحر ٥. الطوفان ٦. الجراد ٧. القمّل ٨ . الضفادع

٩. الدم. وهناك اختلاف بين المفسّرين في بعض هذه الآيات. (انظر: التبيان في تفسير القرآن:٦/٥٢٧(تفسير الآية ١٠١ من سورة الإسراء).)

وأمّا الغاية من إرساله(عليه السلام) فهي نفس الغاية من إرسال النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)وهي: (أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ). والفقرة تدلّ على أنّ الوثنية قد تركت تأثيرها في قومه بسبب عيشهم في مصر الوثنية سنين متمادية، وبذلك يعلم أنّ رسالة موسى(عليه السلام)كانت لغاية أمرين:

١. إخراج قومه من ظلمات الضلالة إلى نور الهدى، مع دعوة فرعون وقومه للإيمان بربّ واحد.

٢. تحرير بني إسرائيل من سلطة الفراعنة .

ثمّ إنّه سبحانه أمر موسى(عليه السلام) بقوله: (وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ): أي ذكّر قومك بأيام الله. والآية تدلّ على أنّ هناك أيّاماً مختصّة لله سبحانه، مع أنّ جميع الأيام لله كما أنّ جميع الأمكنة وما في الكون لله سبحانه، فما هو الوجه لتخصيص قسم من الأيّام بالله سبحانه؟

الظاهر أنّ المراد هو الأيّام التي ظهر فيها سلطانه، إمّا بالقهر والغلبة كالأيّام التي أهلك فيها قوم نوح وعاد وثمود، أو بالإنعام والرحمة كيوم خروج نوح وأصحابه من السفينة، وإنقاذ إبراهيم من نار نمرود، فالآية مطلقة تشمل كلا الصنفين، ولذلك نرى أنّ الروايات تفسّرها بكلا الوجهين:

١. روى النّسائي وابن أبي حاتم والبيهقي في «شعب الإيمان» وغيرهم عن أُبيّ بن كعب عن النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)في قوله: (وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ)، قال: بنعم الله وآلائه. (انظر: الدر المنثور:٥/٦.)

٢. روى الشيخ الطوسي بإسناده عن الحسين(عليه السلام)وابن عباس وجابر بن عبد الله، في حديث طويل، جاء فيه: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «أيام الله: نعماؤه وبلاؤه وهي مَثُلاته». (الأمالي للطوسي:٤٩٠ـ٤٩١، المجلس١٧، رقم الرواية٦؛ البرهان في تفسير القرآن:٥/٣٨١.) والمَثُلات جمع مَثُلة، أي العقوبة.

٣. روى ابن جرير الطبري عن ابن زيد في قول الله: (وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ)، قال: أيامه التي انتقم فيها من أهل معاصيه من الأُمم، خوّفهم بها، وحذّرهم إيّاها.... (جامع البيان(تفسير الطبري):٨/٢٣١، رقم الرواية٢٠٥٨٠.)

وعلى كلّ تقدير، فمن أيام الله التي أمر موسى(عليه السلام) بتذكيرهم إيّاها، الأيام التي أنجى الله تعالى فيها بني إسرائيل من فرعون وجنده، بعد أن عبر موسى(عليه السلام) بهم البحر وأغرق عدوّهم، الذي كان يضطهدهم ويستعبدهم رَدَحاً من الزّمن.

وتلك النعمة العظمى صارت مصداقاً واضحاً ليوم من أيام الله، فعلى بني إسرائيل شكر هذه النعمة الكبرى، ولا يقوم به إلاّ مَن تحلّى بصفتين اثنتين تضمّنهما قوله تعالى:(إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ): أي كثير الصبر عند الضرّاء (شَكُورٍ): أي كثير الشكر عند النَّعماء، فالمؤمن كلّ المؤمن مَن يجمع بين هاتين الصفتين، فإذا نزلت به كارثة يصبر، ولا يطلق لسانه بالشكوى، وإذا كُشفت عنه وعادت إليه النعمة يطلق لسانه بالشكر، ولذلك يصف سبحانه الأبرار بقوله: (وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ). (البقرة:١٧٧.)

أمر سبحانه نبيّه موسى(عليه السلام) أن يذكّر قومه بأيام الله المشحونة بالفتن والنّعم، أمّا الأولى ففي عصر الفراعنة، وأمّا الثانية فبعد خلاصهم من مخالب أعدائهم.

ثمّ إنّ الاعتبار بأيام الله لا يختصّ بقوم دون قوم بل كلّ من كان صابراً شكوراً، يتّعظ بأيام الله فيزداد صبراً وشكراً لِما يرى من جريان سنّة الله على كلّ من صبر على البلاء وشكر النَّعماء، إذ يُمنح المزيد من الألطاف الإلهيّة، ولذلك يقول:(إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ

لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ).

نعم هاهنا سؤال ربّما يُطرح، وهو: أنّ النبيّ موسى(عليه السلام) يوصي قومه بالصبر والشكر، مع أنّا نرى أنّه لم يصبر على أعمال مصاحبه، واعترض عليه عندما خرق السفينة بقوله:(أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا)، وعندما قتل غلاماً بقوله: (أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ)، وحينما أقام جداراً كان على وشك السقوط، بقوله: (لَوْ شِئْتَ لاَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا)(الكهف:٧١ـ٧٨.)، فكيف يتمّ التوفيق بينهما؟

والجواب: إنّ مصاحب موسى كان مأموراً بالعمل بالواقع لاطّلاعه على حقائق الأشياء، وأمّا النبيّ موسى(عليه السلام) فكان مأموراً بالعمل بالظاهر، فلمّا لم يجد(عليه السلام) ما قام به المصاحب من تلك الأعمال منسجماً مع الشريعة التي جاء بها، أبدى استغرابه واستنكاره، ولو كان وجدها موافقة لشريعته لم يعترض عليه بشيء.

وبما أنّ قوم موسى (إلاّ القليل منهم) لم يكونوا موصوفين بالصبر والشكر، بل كانوا يشكون من إحاطة البلاء بهم معبّرين للنبيّ موسى(عليه السلام)عن ضجرهم ونفاد صبرهم، كما يدلّ عليه قوله سبحانه:(قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ)(الأعراف:١٢٩.)، فلأجل هذا الأمر نرى أنّه سبحانه يحكي عن موسى تذكير قومه بنعم الله ويطلب منهم القيام بالشكر أمام هذه النِّعم، فيقول:

٦. (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلاَءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ):

قوله: (وَإِذْ): أي اذكر يا رسول الله (إِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ) وفسّر النعمة بقوله: (إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ)وصار ذلك اليوم ـ أي يوم نجاتكم ـ يوماً من أيام الله الذي ظهر فيه سلطانه، ثم بيّن من أنواع العذاب الذي كانوا يقاسونه من آل فرعون، أُموراً ثلاثة:

١. (يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ): أي يذيقونكم ويكلّفونكم سوء العذاب، حيث كانوا يعاملونهم بخشونة وإذلال، ويفرضون عليهم أشقّ الأعمال وأكثرها تعذيباً لهم يوماً بعد يوم (كما يومئ إلى ذلك الفعل المضارع الدالّ على الاستمرار).

٢. (وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ) لغاية الاستئصال. ومن المعلوم أنّ القوم إذا فقدوا أبناءهم الذين هم يديرون عجلة الحياة، يُكتب عليهم الفناء والهلاك.

٣. (وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ) لا لغاية استبقائهن أحياء، بل لغاية استخدامهنّ في بيوت الطغاة المترفين(وَفِي ذَلِكُمْ بَلاَءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ): أي وفي ذلك اختبار من ربكم اختباراً عظيماً، حيث إنّه سبحانه اختبر به مقدار صبرهم على المكروه ثم تحلّيهم بالشكر.

٧. (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ):

الإخبار عن انقضاء الاختبار ومجيء دور الشكر

الظاهر أنّ الآية من كلام موسى(عليه السلام)، وهو عطف على قوله:(إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ)، والتأمّل في هذه الآية وما قبلها يثبت أنّ موسى(عليه السلام) ذكّرهم بأمرين:

الأوّل: ذكّرهم بنعمة الله عليهم، وهي إنجاؤهم من سلطة فرعون وقهره واستبداده.

الثاني: ذكّرهم بانقضاء مرحلة الاختبار ومجيء دور الشكر، لتحرّرهم من قبضة فرعون، فعندئذ أخبرهم بما أمر به سبحانه:(وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ)والتأذّن الإعلام، أي كلّم موسى علناً بمضمون الآية وهو الملازمة بين الشكر وزيادة النّعم، والكفر ونزول النّقم. ولعلّ الآية بهذا المضمون منقطعة النظير، حيث يُخبر عن سنّة إلهية قائلاً:(لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ) متضمّنة للقسم بشهادة

قوله:(لَئِنْ)، لأنّ اللاّم موطّئة للقسم، والشكر هو صرف النعمة في محلّها، وقد أُثر عن العلماء قولهم: الشكر: «صَرْف العبد جميع ما أنعمه الله تعالى عليه فيما خُلق لأجله»، فهو بذلك يكسب رضا الواجب، الموجِب لإفاضة النّعم واحدة بعد الأُخرى، بخلاف مَن كفر النعمة وصرفها في غير ما خُلق لأجله، فهو يكتسب سخط المنعم فيسبّب قطع الفيض أو تقليله، ولذلك يقول: (وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ) في يوم القيامة، يقول سبحانه: (وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ)(الحديد:٢٠).

قلنا: إنّ شكر النعمة هو صرفها فيما خُلقت لأجله، وهذا ما أشار إليه أيضاً أمير البيان الإمام علي(عليه السلام) في خطبته:«غَضُّوا أَبْصَارَهُمْ عَمَّا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِمْ، وَوَقَفُوا أَسْمَاعَهُمْ عَلَى الْعِلْمِ النَّافِعِ لَهُمْ».(نهج البلاغة، الخطبة ١٩٣، في وصف المتّقين).

٨ . (وَ قَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ):

الآية تتمّة لما تضمّنته الآية السابقة، وهي بصدد دفع ما يُتوهَّم من أنّه سبحانه ربّما ينتفع بإيمان المؤمن وبشكر الشاكر ويتضرّر بكفر الكافر، كيف يكون ذلك والله سبحانه غنيّ بالذات؟ وغناه دليل على أنّ المنتفع بشكر الشاكرين وإيمان المؤمنين هم أنفسهم، كما أنّ المتضرّر بالكفر هم الكفّار أنفسهم، فالغنيّ سبحانه لا ينتفع بشكر الآخرين وإيمانهم ولا يتضرّر بكفرهم كما يقول:(وَ قَالَ مُوسَى) تبعاً لأمر الله سبحانه (إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا) فلا تضرّونه بشيء ؛ لأنّه سبحانه غنيّ بالذات كما يقول: (فَإِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ)فلا حاجة له إلى إيمان أحد وشكره (حَمِيدٌ) بالذات، مستغن عن حمدكم باللّسان والبيان، وكيف لا يكون غنيّاً (وَلِلهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا)(الرعد:١٥)؟

كلام في فضيلة الشكر وبيان حقيقته

قال الفيض الكاشاني(المتوفّى ١٠٩١هـ): اعلم أنّ الله تعالى قرن الشكر بالذّكر في كتابه مع أنّه قال: (وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ)(العنكبوت:٤٥) فقال تعالى: (فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلاَ تَكْفُرُونَ)(البقرة:١٥٢)، وقال تعالى: (مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)(النساء:١٤٧)، وقال: (وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ)(آل عمران:١٤٥)، وقال تعالى إخباراً عن إبليس اللّعين:(لاَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ)(الأعراف:١٦)، وقيل: هو طريق الشكر.

ولعلوّ رتبة الشكر طعن اللّعين في الخلق فقال:(وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ)(الأعراف:١٧)، وقال تعالى: (وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ)(سبأ:١٣) وقد قطع الله تعالى بالمزيد مع الشكر ولم يستثنِ؛ فقال: (لَئِنْ شَكَرْتُمْ لاَزِيدَنَّكُمْ)(إبراهيم:٧). ثم قال: وقد جعل الله الشكر مفتاح كلام أهل الجنة فقال:(وَقَالُوا الْحَمْدُ للهِ الذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ)(الزمر:٧٤)، وقال:(وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)(يونس:١٠).(المحجة البيضاء:٧/١٤١ـ ١٤٢).

هذا ما يرجع إلى فضيلة الشكر، وأمّا ما هي حقيقته فهذا ما يذكره الشيخ محمدمهدي النَّراقي(المتوفّى ١٢٠٩هـ) بقوله: الشكر هو عرفان النّعمة من المُنعم، والفرح به، والعمل بموجب الفرح بإضمار الخير، والتحميد للمُنعم، واستعمال النّعمة في طاعته.

أمّا المعرفة فبأن تعرف أنّ النّعم كلّها من الله، وأنّه هو المُنعم، والوسائط مسخَّرات من جهته. ولو أنعم عليك أحد، فهو الذي سخّره لك، وألقى في قلبه من الاعتقادات والإرادات ما صار به مضطراً إلى الإيصال إليك، فمَن عرف ذلك حصّل أحد أركان الشكر لله، وربّما كان مجرّد ذلك شكراً، وهو الشكر بالقلب، كما روي:«أنّ موسى قال في مناجاته: إلهي! خلقت آدم بيدك، وأسكنته جنتك، وزوّجته حواء أَمَتك، فكيف شَكَرك؟ فقال: علم أنّ ذلك منّي، فكانت معرفته شكراً».(جامع السعادات:٣/٢٣٣ـ ٢٣٤).

وبما أنّ الشكر يتعلّق بالقلب أوّلاً وبالجوارح واللّسان ثانياً، فما ذكره راجع إلى عمل القلب ـ كما قال ـ ، وأمّا الجوارح فقد مرّ أنّ صرف النّعمة فيما خُلقت له، هو الشكر، وأمّا اللّسان فهو ذكره سبحانه بالثناء عليه.

قال الإمام الصادق(عليه السلام):«مَن أنعم الله عليه نعمة فعرفها بقلبه وعلم أنّ المُنعم عليه، الله تعالى، قد أدّى شكرها وإن

لم يحرّك لسانه».[سفينة البحار: مادة «شكر».]

هذا مجمل ما يمكن أن يقال، ومَن أراد التفصيل فليرجع إلى «المحجّة البيضاء» أو «جامع السعادات».

الآيات: التاسعة إلى الثانية عشرة(أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ... وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ).

(أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوح وَعَاد وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيب * قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَل مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَان مُبِين * قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَان إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ * وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ).

المفردات

نبأ: النَّبأ: الخبر المهمّ الذي يُعتنى به.

مريب: الرِّيبة: عدم الاطمئنان بالأمر. والمريب هو الإخبار بما فيه الشكّ.

فاطر: من فَطَر بمعنى شقَّ، وفطر الله الخَلق: أوجده وأبدعه على هيئة مترشّحة لفعل من الأفعال.

بسلطان: السلطان: الدليل والبرهان.

التفسير

حوار بين الرسل والمشركين

الظاهر أنّ المخاطب في قوله: (أَلَمْ يَأْتِكُمْ) قوم موسى، وبما أنّهم كانوا على مقربة من الشرك، ناسب ذكر حوار جرى بين الرسل وأقوامهم فبدأوا يذكرونهم ويعطفون نظرهم إلى مصير الأقوام السالفة عبر العصور، وقال:

٩. (أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوح وَعَاد وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيب):

قوله: (أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوح وَعَاد وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ): أي ألم يأتكم يا بني إسرائيل مصير الأقوام الذين كفروا بالله سبحانه وكذّبوا أنبياءه، يعني: قوم نوح وعاد وثمود الذين حاق بهم البلاء والعذاب واستؤصلوا وانقطعت آثارهم فما يُرى منها شيء؟ وبهذا ظهر أنّ المراد من النبأ هلاك هؤلاء الأقوام الثلاثة، ثم عطف عليهم أقواماً آخرين سلكوا مسلك مَن تقدّمهم، كما قال:(وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ) كانوا أشباههم في الكفر والعناد واللّجاج، نظير أهل مدين وأصحاب الرَّسّ وقوم تُبّع (لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللهُ)إذ لم يكن يوم ذاك تدوين للتاريخ حتى يقف الناس على أخبارهم ويعلموا مصائرهم. وقد أشار سبحانه في آية أُخرى إلى بعض هذه الأقوام أيضاً، بقوله: (وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا).[الفرقان:٣٨.]

قوله تعالى: (جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ): أي بالمعاجز والدلائل المقنعة على وجه لو تدبّروا فيها لآمنوا بهم وصدّقوا بدعوتهم، ولكنّهم ـ يا للأسف ـ بادروا إلى الردّ، كما يقول سبحانه:(فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ)الظاهر أنّ الضمائر الثلاثة ترجع إلى المرسَل إليهم، أعني الأقوام المذكورين، أي وضعوا أيديهم على أفواههم مشيرين بذلك إلى الأنبياء حتّى يسكتوا ولا ينطقوا بما كانوا ينطقون، وهذا أمر شائع، فمن أراد إسكات الناطق، فتارة يقول له:«اسكت»، وأُخرى يضع أصابعه أو يده على فمه، في إشارة منه إلى المتكلّم بالسكوت وعدم الكلام. وهذا هو المعنى المتبادر من الآية، غير أنّ للمفسّرين في تفسير الفقرة عدّة آراء ذكرها الشيخ الطوسي في تفسيره،

منها: أنّهم عضّوا على أناملهم تغيّظاً عليهم في دعائهم إلى الله، كما قال:(عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ)(آل عمران:١١٩.).(التبيان في تفسير القرآن:٦/٢٧٨. وانظر: تفسير الكشاف:٢/١٧٣.)

ويدلّ على ما ذكرنا من معنى الفقرة إجابة الكفّار، فقد ردّوا دعوة الرُّسل بأمرين:

١. (وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ) الظاهر في أنّهم أنكروا الرسالة وجحدوها عن يقين.

٢. (وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ): أي في شكّ مريب من دعوتكم، وأنّ نفوسنا لا تطمئن إلى ما تقولون. وقولهم: (مُرِيبٍ): أي مورث للرّيب والاتّهام فيما يدعونهم إليه من الإيمان بربوبيّته وحده سبحانه.

إجابة المرسلين

١٠. (قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ):

فسّر المفسّرون قوله تعالى: (فَاطِرِ) بالخالق، وظاهر ذلك أن يكون المرسل إليهم منكرين أو شاكّين في وجود الصانع، وهذا أمر بعيد، إذ لم يثبت في تاريخ الأُمم إنكار وجوده سبحانه، وتشهد لذلك آيات كثيرة، منها قوله سبحانه:(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ).(الزخرف:٩.)

وعلى ذلك فلابدّ من تفسير الآية بما يوافق ظاهر الآية من سورة الزخرف ونظائرها، فنقول:

إنّ معنى (فَاطِرِ) مِن فطر بمعنى شقّ، قال الراغب: الفَطْر: الشق طولاً، يقال: فَطَر فلان كذا فَطْراً ـ إلى أن قال: ـ وفطر الله الخَلق، وهو إيجاده الشيءَ وإبداعه على هيئة مترشّحة لفعل من الأفعال.(المفردات للراغب: ٣٨٢، مادة «فطر».)

وعلى هذا الأساس، فمعنى قوله سبحانه:(فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ): أي موجدهما، بمعنى أنّه شقّ ظلمة العدم بإيجاد السماوات والأرض. وبما أنّ القوم كانوا مقرّين بوجود الصانع، فالسؤال الإنكاري الذي وجّهه الرُّسل إليهم بسبب وقوع الشكّ منهم في الله، لا يعني أنّهم كانوا منكرين أو شاكّين في وجوده سبحانه، بل كان يستهدف أخذ الاعتراف بإيجاده للسماوات والأرض، حتى يصلح للرسل أخذهم بلوازم تسليمهم، محتجّين بأنّكم إذا كنتم معتقدين بإيجاده للسماوات والأرض بهذا النظام الدقيق، فهو المالك لوجودهما، ومن ثمّ هو المتفرّد بتدبير كلّ أمر يرجع إلى وجودهما، لا يشاركه في ذلك غيره، وعندئذ يكون سبحانه هو الربّ المعبود ولا ربّ غيره.(انظر: الميزان في تفسير القرآن:١٢/٢٦ـ ٢٧.) وإذا كان سبحانه كذلك، فهل يمكن أن يترك عباده سُدى ولا يبعث إليهم من يرشدهم إلى ما يسخطه وما يرضيه؟ والشاهد لذلك ما جاء بعد تلك الفقرة، حيث رتّبوا على ذلك أمرين:

١. (يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ): أي يدعوكم (الرُّسل) أن تنبذوا الكفر: (لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ)وسيوافيك الكلام في موقع (مِنْ) في الفقرة.

٢. (وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى): أي يدفع عنكم عذاب الاستئصال حتى تستمر حياتكم إلى الأجل الذي سمّاه الله وعيّنه.

والفقرة تدلّ على أنّ الكفر ربّما يؤدّي إلى عذاب الاستئصال ويكون حائلاً بين الإنسان والأجل المسمّى، وبذلك يُعلم أنّ الأجل على قسمين:

١. الأجل المسمّى، أي الوقت الذي حدّده الله تعالى أجلاً لحياة الإنسان، وهذا الأجل لا يؤخَّر ولا يحول بينه وبين وقوعه أيُّ سبب.

٢. الأجل الموقوف(المعلّق)، وهو ما كُتب للإنسان من الحياة لو لم يواجه الأسباب المؤدّية إلى قطع الحياة.

وعلى ما ذكرنا، يُستفاد من الآية أنّ الكفر أو كبائر الذنوب ممّا يحول بين الإنسان وبين استيفاء أجله المكتوب، وهذه سنّة إلهية كشف عنها القرآن الكريم. ويؤيّد هذا التفسير ما روي عن الإمام الصادق(عليه السلام) أنّه قال: «مَن يموت بالذنوب أكثر ممّن يموت

بالآجال، ومَن يعيش بالإحسان أكثر ممّن يعيش بالأعمار».(الأمالي للطوسي:٧٠١، المجلس ٤٠، ذيل الرواية١؛ بحار الأنوار:٥/١٤٠، رقم الرواية٦.)

بقي هنا أمران:

الأوّل: وجود الاختلاف بين الآيتين العاشرة والحادية عشرة، ففي الأُولى جاء: (قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ)، وفي الثانية: (قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ) فما هو الوجه في الاختلاف في التعبير؟

ولعلّ الوجه فيه أنّ ما تضمّنته الآية الأُولى مقالة عامّة لا تختصّ بالمشركين، فقوله: (أَفِي اللهِ شَكٌّ)خرجت بصورة أمر مسلّم بين أبناء البشر، فلذلك جرّد عن التخصيص بالمشركين، بخلاف الآية الثانية، إذ الخطاب يختصّ بهم حيث قالوا: (إِنْ نَحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ). والله العالم.

الثاني: أنّ قوله سبحانه: (لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ) ظاهر في مغفرة بعض الذنوب حيث إنّ «من» للتبعيض مع أنّ الإيمان ونبذ الشرك يمحو كلَّ الذنوب.

ولعلّ التبعيض لأجل أنّ الإيمان يوجب مغفرة ما يرجع إلى حقوق الله، وأمّا حقوق الناس والمظالم، فعليهم أن يؤدّوا إليهم حقوقهم، وأن يردّوا إليهم ما أُخذ منهم ظلماً. وربّما يقال بأنّ «من» زائدة، وهو غير تامّ، إذ لا تجوز زيادتها في الموجب وإنّما تختصّ بالمنفي. وهناك وجه ثالث وهو أفضل وهو أنّ «من» بيانية.

إلى هنا تمّت إجابة المرسلين، غير أنّ المشركين عدلوا عن الاحتجاج النظري بطرح أُمور ثلاثة:

١. (قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا) فلا مزيّة لكم علينا حتى نتّبعكم.

٢. أنّكم بدعوتنا إلى التوحيد في العبادة ونبذ الشرك (تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا)وهكذا اتّخذوا من سنّة الآباء في عبادة الأوثان، دليلاً على صحّتها، والدعوة إلى خلافها آية بطلانها، دون أن يفكّروا في طبيعة الدّعوة أو في سنّة الآباء.

ويستفاد من كثير من الآيات أنّ المشركين عموماً كانوا قد اتّخذوا من تمسّك الآباء بالوثنيّة دليلاً على صحّتها، كما حكى عنهم سبحانه في مواضع من كتابه المجيد، كقوله تعالى:(قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ)وقد ردّ إبراهيم الخليل(عليه السلام) عليهم هذا المنطق الواهي بإلهام من الله سبحانه، بقوله: (لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ).(الأنبياء:٥٢ـ٥٣.)

٣. (فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ): أي بدليل يدلّ على أنّكم مرسلين من الله سبحانه. وهذا النوع من الاقتراح وإن كان أمراً صحيحاً في نفسه، ولكنّهم قالوه عناداً ومكابرة، حيث جعلوه حاجزاً بينهم وبين الرُّسل، لأنّهم كانوا يتصوّرون عجز الرسل عن الإتيان بسلطان مبين، وبذلك اتخذوه جُنّة لعدم إيمانهم، أو كانوا يطلبون من الرُّسل الإتيان بالخوارق والمعاجز التي يقترحونها، ولا يعتنون بما أتوا به منها، كما سيوافيك.

إلى هنا تمّ الحوار الأوّل بين الرسل والمشركين.

الحوار الثاني

١١. (قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ):

لمّا اعتمد المشركون في عدم الاستجابة لدعوة الرُّسل على أُمور ثلاثة اتّخذوها ذريعة لذلك، وكان الأمر الثاني، أعني: صدّهم عن سنّة آبائهم أمراً مسلّماً سكت الرُّسل عن ذكره، وخصّوا الأمر الأوّل والثالث بالجواب، وهما: كونهم بشراً، وأن يأتوهم بسلطان مبين.

أمّا الأوّل، فأشار إليه سبحانه بقوله: (قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ) نعيش كما تعيشون أنتم، نأكل ونشرب ونحيا

ونموت، ولكن ذلك لا يكون دليلاً على أنّنا وأنتم على مستوى واحد في القابليات، وأنّه لا مزية لنا عليكم، فربّما نختصّ بمزية تفضّل بها علينا سبحانه، كما يقول:(وَلَكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ): أي يمنّ عليه بالنّعمة الكبرى وتقليده وسام النبوّة والرسالة. ومن المعلوم أنّ مشيئته سبحانه ليست مشيئة فوضوية، بل تتبَع وجود قابليات وصلاحيات في ذلك الفرد، فيقلّده ذاك الوسام.

ولذلك قال حكماء الإسلام: إنّ الإنسان ما لم يكن في نفسه وبدنه مخصوصاً بخواصّ شريفة علمية قدسيّة، فإنّه يمتنع عقلاً حصول صفة النبوّة له.

وممّا ذكرنا يظهر ضعف ما نقله الرازي عن بعض القشريّين من أهل السنّة والجماعة، حيث قالوا: إنّ حصول النبوّة عطيّة من الله تعالى يهبها لكلّ مَن يشاء من عباده، ولا يتوقّف حصولها على امتياز ذلك الإنسان عن سائر الناس بمزيد إشراق نفساني وقوّة قدسيّة، وهؤلاء تمسّكوا بهذه الآية، فإنّه تعالى بيّن أنّ حصول النبوّة ليس إلاّ بمحض المنّة من الله تعالى والعطيّة منه.(تفسير الرازي:١٩/٩٦).

والعجب أنّ الرازي قال ـ بعد أن نقل الكلام المتقدّم ـ : والكلام في هذا الباب غامض غائص دقيق.(تفسير الرازي:١٩/٩٦).

يلاحظ عليه: أنّ اللائق بالرازي هو إبداء الرأي في الموضوع، ولكنّه اكتفى بما ذكر .

ثمّ ذكر ما يمكن أن يكون بدلاً عن الجواب، وقال: إنّ حكماء الإسلام أجابوا عنه بأنّهم لم يذكروا فضائلهم النفسانية والجسدانية تواضعاً منهم، واقتصروا على قولهم:(وَلَكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ)بالنبوّة، لأنّه قد علم أنّه تعالى لا يخصّهم بتلك الكرامة إلاّ وهم موصوفون بالفضائل التي لأجلها استوجبوا ذلك التخصيص، كما قال تعالى: (اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ)(الأنعام:١٢٤).(تفسير الرازي:١٩/٩٦).

وأمّا الأمر الثالث، فلم يردّوه لأنّه كان أمراً منطقياً، إذ لابدّ لمدّعي الرسالة من دليل علميّ على كونه مبعوثاً من الله، ولكنْ ليست المعجزة أو السلطان حسب اصطلاحهم بيد الأنبياء حتى يأتوا به متى شاءوا، وإنّما يأتون به بإذن من الله، كما حكى سبحانه عنهم ذلك بقوله: (وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ).

وطبع الحال يقتضي أنّ الرُّسل أجابوا طلبهم بالإتيان بالآيات الظاهرة والبيّنات الباهرة ما تخرّ له الجبال الصُّمّ، ولكنّهم طلبوا منهم غير ما أتوا به، والشاهد لذلك أنّ النبيّ الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم) جاء إلى المشركين بالآيات الباهرة ولكنّهم أرادوا معجزات خاصّة أُشير إليها في سورة الإسراء، حيث قالوا: (لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلاَلَهَا تَفْجِيرًا).(الإسراء:٩٠ـ ٩١ ولاحظ إلى الآية ٩٣).

ولمّا كان هنا احتمال بأن يتعرّض المرسلون ومَن تبعهم لأذى المشركين، التفت الرُّسل في كلامهم إلى المؤمنين فقالوا: (وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) فاستعينوا به في دفع احتمال الأذى والبلاء من العتاة المعاندين، وتقديم الجار في الفقرة، أعني (وَعَلَى اللهِ) لإفادة الحصر، وأنّه لا ناصر مع ضعفهم إلاّ الله سبحانه.

١٢. (وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ):

لمّا تقدّم في الآية السابقة دعوة المؤمنين إلى التوكُّل على الله سبحانه، استدلّوا على صدق رأيهم في تفويض الأمر إلى الله بقولهم: (وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ) ولا نفوّض الأمر إليه؟(وَ) الحال أنّه (قَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا)فهدايته سبحانه أدلّ دليل على عنايته ولطفه بنا، فلنتوكّل عليه، ولو أُوذينا في مستقبل أمرنا فعلينا التدرّع بالصبر، إذ لا ينال المُنى إلاّ كلّ صبّار شكور، ولذلك يقول:(وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا) سابقاً ولاحقاً. ثم ذيّلوا كلامهم بما ابتدأوا به قائلين: (وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ) ومع ذلك

يُحتمل أن تكون هذه الفقرة من كلامه سبحانه.

ثمّ إنّه يُطرح سؤال عن وجه تكرار الأمر بالتوكّل في كلام الرسل في آية واحدة، حيث جاء في صدر الآية قولهم: (وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ)، وقد أجاب عنه السيد الطباطبائي بقوله: فقوله تعالى: (وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) يجري مجرى اللمّ، وقوله: (وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا) يجري مجرى الإنّ، فتدبّر في هذا البيان العذب والاحتجاج السهل الممتنع الذي قدّمه القرآن الكريم إلى متدبّريه في أوجز لفظ.

وقوله: (وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا) من تفريع الصبر على ما بيّن من وجوب التوكّل عليه أي إذا كان من الواجب أن نتوكّل عليه ونحن مؤمنون به وقد هدانا سبلنا، فلنصبرن على إيذائكم لنا في سبيل الدعوة إليه متوكّلين عليه حتى يحكم بما يُريد ويفعل ما يشاء، من غير أن نأوي في ذلك إلى ما عندنا من مظاهر الحول والقوّة.

وقوله: (وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ) كلام مبنيٌّ على الترقّي، أي كلّ من تلبّس بالتوكّل فعليه أن يتوكّل على الله، سواء كان مؤمناً أو غير مؤمن، إذ لا دليل غيره، غير أنّ المتوكّل بحقيقة التوكّل لا يكون إلاّ مؤمناً، فإنّه مذعن أنّ الأمر كلّه لله فلا يسعه إلاّ أن يطيعه فيما يأمر، وينتهي عمّا ينهى، ويرضى بما رضي به، ويَسخَط على ما سَخِط عليه(في المصدر: ويسخط عمّا سخط عنه.)، وهذا هو الإيمان.(الميزان في تفسير القرآن:١٢/٣٣ـ٣٤.)

أقول: الاهتداء من المعلول إلى العلّة يوصف بالبرهان الإنّي، كدلالة الأثر على المؤثِّر، بخلاف البرهان اللّميّ، فهو اهتداء من العلّة إلى المعلول.

ففي قوله سبحانه: (وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا) اهتداء من المعلول وهو هداية الله سبحانه إيّاهم إلى السبل، إلى العلّة وهو الله سبحانه، فبما أنّ الإهتداء نعمة كبيرة من الله سبحانه فيبعث الإنسان إلى أن يتوكّل على الله الذي هو المعطي للنِّعم كلّها، لكن قوله سبحانه في ذيل الآية: (وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ)اهتداء من العلّة وهي ذاته سبحانه إلى آثاره وأفعاله، فالله هو الموجود الجامع للصفات الكمالية، فهو يبعث الإنسان على التوكّل عليه، فإنّ التوكّل على شيء استمداد منه وليس هنا موجود أقوى من الله سبحانه حتى يتوكّل عليه.

وبذلك يُعلم أنّ وجه تكرار التوكّل في الآية لا ينحصر في كونه ممّا يجب الاهتمام به، بل له وجه أدقّ من ذلك، كما مرّ في كلام السيد الأُستاذ(رحمه الله).

ثمّ إنّ لنا بحثاً حول التوكّل سيوافيك في تفسيرنا لسورة الطلاق عند قوله سبحانه:(وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْء قَدْرًا).(الطلاق:٣.)

غير أنّا نقول في المقام: إنّ التوكّل ليس بمعنى ترك العمل والسعي وإيكال كلّ الأُمور إلى الله سبحانه دون أن يقوم الإنسان بشيء ما، فإنّ النبيّ الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم) كان من أعظم المتوكّلين مع أنّه كان متمسّكاً بالأسباب والأدوات والعلل، بل المراد أنّه يجب على الإنسان أن يبذل ما يملك من القدرة والطاقة في سبيل مقصوده ولا يجعل الضعف مسيطراً عليه، وأن يستعين، مع ذلك، بالله تعالى ليستمدّ منه القوّة والعزم فيما يواجهه من مصاعب الأُمور في سبيل هدفه، حتى يؤيّده ويعينه على الظفر بمقصوده. فالمؤمن في عامّة حالاته يتوكّل على الله حتّى فيما أعدّه من المقدّمات لكي يصل إلى المقصود.

الآيات: الثالثة عشرة إلى الثامنة عشرة(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ ... ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ).

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ * وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ * وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّار عَنِيد * مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاء

صَدِيد * يَتَجَرَّعُهُ وَلاَ يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَان وَمَا هُوَ بِمَيِّت وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ * مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَاد اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْم عَاصِف لاَ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْء ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ).

المفردات

ملَّتنا: ديننا وشريعتنا.

مقامي: المقام: اسم مكان، أي موضع قيامه سبحانه بأُمور العباد.

استفتحوا: طلبوا الفتح بالنصر على الأعداء واستنصروا.

خاب: الخَيبة: الخسران والحرمان.

جبّار: إذا وصف به الله تعالى فهو بمعنى العالي الذي لا يناله شيء، وإذا وصف به الإنسان فمعناه المتعالي المتكبّر.

عنيد: مبالغة في المعاند، وهو من يخالف الحقّ مع علمه به.

صَديد: الصَّديد: القيح المختلط بالدم. سمّي صديداً لانّه يُصدّ عنه لكراهته ونتنه.

يتجرّعه: التجرّع: تناول المشروب جرعة جرعة على الاستمرار.

يُسيغه: ساغ الشراب في الحلق: سهُل انحداره.(مفردات الراغب: ٢٤٩، مادة «ساغ».) والمعنى: لا ينحدر الماء في حلقه بسهولة، بل يغصّ به، ولذلك يشربه جرعة جرعة.

اشتدّت: الاشتداد: الإسراع بالحركة.

يوم عاصف: شديد الرِّيح.

التفسير

حوار ثالث

١٣ و ١٤. (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ * وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ):

تهديد الرُّسل بأحد أمرين: الطرد أو الرجوع إلى الشرك لمّا أفحم الرُّسل المشركين العتاة، ولم يبق عندهم أي دليل صالح يعتمدون عليه في الإعراض عن دعوة الرُّسل، لجأ القوم إلى استخدام منطق القوّة، فهدّدوا الرُّسل بأمرين على وجه التخيير:

١. النفي والطرد من بلادهم.

٢. الرجوع إلى الشرك وترك شريعة الله عزّ وجلّ، فأُشير إلى الأوّل بقوله تعالى ـ حكاية عنهم ـ : (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا). إنّهم لا يطيقون سماع صوت الحقّ الذي يدعو إلى التفكير فيما جاءوا به، ويبعث على يقظة الناس، فليُبعدوه ليُبطلوا تأثيره على أفراد المجتمع ويحولوا بينه وبينهم.

وأُشير إلى الثاني بقوله تعالى: (أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا): أي ديننا وعقيدتنا، فنكون ذوو دين واحد، وبهذا يحافظون على امتيازاتهم الباطلة في ظلّ الوثنيّة، وعلى مواقعهم الاجتماعية الزائفة التي لا يقرّها دين التوحيد.

ومن الأمثلة على تهديد الأنبياء ومن معهم بالنفي من البلاد، لجوء الطغاة من قوم شعيب إليه، قال سبحانه حاكياً عنهم ذلك: (قَالَ الْمَلأَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ).(الأعراف: ٨٨ .)

ثمّ إنّه يظهر من قولهم:(لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا) أنّ عقوبة الطّرد والإبعاد عن الوطن من أساليب الحكام المستكبرين في حقّ

معارضيهم، فهم يحرمون أبناء البلد الذين وُلدوا فيه وعاشوا فيه إذا خالفوهم في المبدأ والعقيدة أن يخرجوهم من أوطانهم، وهذه شنشنة نعرفها من كلّ متكبّر يصادر الحرّيات، ويمتهن الكرامات.

والعجب، ونحن نعيش في القرن الحادي والعشرين الميلادي أن نجد هذا النوع من العقوبة يُمارَس في بعض بلداننا الإسلامية، لا سيّما في البحرين التي قرّرت محاكم السلطة فيها إسقاط الجنسيّة عن جمع من المواطنين المعارضين للنظام الجائر المستبدّ، وإبعادهم عن وطنهم غافلين أنّ عملهم هذا ممّا شجبه القرآن الكريم.

إلى هنا تمّ الحوار اللّساني بين الفريقين. ثمّ إنّ القوم لمّا لجأوا إلى منطق القوّة، أراد الله تعالى أن يطمئن المرسَلين ويثبّت قلوبهم، فقال: (فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ): أي إلى الرُّسل أمرين:

الأوّل: إنّا نهلك هؤلاء الظالمين الكافرين كما قال:(لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ)فلا يبقى أثر منهم على وجه الأرض.

الثاني: بما أنّ الرُّسل تعرّضوا للتهديد بالطّرد والإبعاد من البلاد، وعدهم سبحانه بأن يسكنهم والذين آمنوا بهم الأرض، أي أرض الدعوة التي هدّد الظالمون بطردهم منها، من بعد إهلاكهم، كما قال: (وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ) .

ثمّ بيّن أنّ الفوز والعاقبة الحسنة مختصّتان بمن اجتمعت فيه خصلتان:

١. (ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي) والمقام اسم مكان أُريد به مرتبة قيمومته تعالى للأمر كلّه. وهناك فرق بين أن يقول: خافني، وبين خاف مقامي، فإنّ مقامه سبحانه عبارة عن قيام الأشياء وصحيفة الوجود به، فمن كانت أزمّة الأُمور بيده يَخشى منه مَن عرفه.

وللسيد الرضيّ بيان آخر، يقول: إنّ العرب تُسمّي المجامع التي تجتمع فيها لتدارس مفاخرها وتذاكر مآثرها، مقامات ومقاوم، فيجوز أن يكون المراد بالمقام هاهنا الموضع الذي يحصي الله تعالى فيه على بريّته محاسن أعمالهم ومقابح أفعالهم لاستحقاق ثوابه وعقابه، واستيجاب رحمته وعذابه وقد يقولون هذا مقام فلان، ومقامته على هذا الوجه، وإن لم يكن الإنسان المذكور في ذلك المكان قائماً، بل كان قاعداً أو مضطجعاً، ومن الشاهد على ذلك قوله تعالى في قصة سليمان(عليه السلام):(أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ)[النمل:٣٩.]: أي من مجلسك، وإنّما سمّاه مقاماً مع ذكره أنّ سليمان(عليه السلام) كان جالساً فيه لأنّه قال: (قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ) ؛ لأنّ القاعد إذا قام بعد قعود ففيه يكون قيامه، وهذا من غرائب القرآن الكريم.[تلخيص البيان في مجازات القرآن:٨٠.]

٢.(وَخَافَ وَعِيدِ): أي وعيد الله بالعذاب الشديد، الذي بيّنه على لسان رسله.

١٥. (وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ):

الضمير في (اسْتَفْتَحُوا) يرجع إلى الرُّسل، أي طلبوا النصر والفتح على المعاندين والله سبحانه استجاب دعوتهم، كما قال: (وَخَابَ): أي خسر وتعرّض للحرمان (كُلُّ جَبَّارٍ): أي متكبّر (عَنِيدٍ) مُعرض عن الحقّ، فعمّهم العذاب في الدنيا، وأسكن الرُّسل والمؤمنين أراضيهم كما وعد سبحانه في قوله: (وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ).

قال الرازي: كونه جباراً متكبّراً، إشارة إلى الخُلق النّفساني، وكونه عنيداً، إشارة إلى الأثر الصادر عن ذلك الخُلُق، وهو كونه مجانباً عن الحقّ منحرفاً عنه. ولا شكّ أنّ الإنسان الذي يكون خلقه هو التجبّر والتكبّر، وفعله هو العنود، وهو الانحراف عن الحقّ والصدق، كان خائباً عن كلّ الخيرات، خاسراً عن جميع أقسام السعادات.[تفسير الرازي:١٩/١٠٢.]

نقل القرطبي في تفسيره أنّ الوليد بن يزيد بن عبد الملك تفأل يوماً في المصحف فخرج له قوله عزّ وجلّ: (وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ)فمزّق المصحف، وأنشأ يقول:

أتُوعِدُ كلّ جبار عنيد *** فها أنا ذاك جبار عنيدُ

إذا ما جئتَ ربّك يوم حشر *** فقل يا ربّ مزّقني الوليدُ

فلم يلبث إلاّ أياماً حتى قتل شرّ قتلة، وصُلب رأسه على قصره، ثم على سُور بلده.[١]

[١] تفسير القرطبي:٩/٣٥٠. وانظر: الكامل في التاريخ لابن الأثير:٥/٢٩٠(وفيه: أنّه ألقى المصحف ورماه بالسِّهام).

١٦ و ١٧.(مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاء صَدِيد * يَتَجَرَّعُهُ وَلاَ يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَان وَمَا هُوَ بِمَيِّت وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ):

عاقبة أمر المشركين

يستعمل لفظ «الوراء» كثيراً في مقابل الأمام، وقد يكون بمعنى الأمام، وربّما يُراد به ما ينتظره الإنسان ممّا فعل، فيقال: فعل ذلك وصار وراءه ذلك الشيء، وعلى هذا فأُريد هنا نتيجة أعمالهم وعاقبة أفعالهم الّتي هي الأُمور التالية:

١. دخول جهنم والصِّليُّ فيها.

٢. سقيهم من الماء المتعفّن، وكنّي عنه بـ(مَاء صَدِيد) وهو القيح المختلط بالدم، أو الموجود بين الجلد واللَّحم.

٣. إذا أصابه العطش (يَتَجَرَّعُهُ): أي يشربه جرعة فجرعة، لا متوالياً لكراهته ونتنه.

٤. (وَلاَ يَكَادُ يُسِيغُهُ): أي لا ينحدر الماء في حلقه بسهولة، بل يغَصّ به فيشربه جرعة فجرعة. والغرض أنّ نفسه لا تقبله لحرارته ونتنه، ولكن يشرب عن إكراه.

٥. (وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ): أي أسبابه من الشدائد وأنواع العذاب (مِنْ كُلِّ مَكَان): أي من كلّ موضع، والمراد إحاطة أنواع العذاب به. وكان المترقّب موته في هذه الحال ولكن (وَمَا هُوَ بِمَيِّت). وقد ورد مضمون هذه الآية في سورة أُخرى، قال سبحانه: (لاَ يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا).(فاطر:٣٦.)

٦. (وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ): أي بعد ما مرّ من العذاب ينتظره عذاب غليظ، يستقبل كلّ وقت عذاباً أشدّ وأشقّ ممّا قبله.

وربّما يُتوهَّم أنّ هذا النوع من التعذيب لا ينسجم مع رحمته الواسعة، فلماذا يعذّبه بأنواع العذاب؟

والجواب: إنّ هذه الشدّة والغلظة في العذاب، هي نتيجة استكباره وعناده وسوء أعماله، فالجرائم التي ارتكبها في الحياة الدنيا تتجسّم في الآخرة بما ذُكر في هذه الآية، وهي لا تنفكّ عن وجوده.

وقد أُشير إلى هذا النوع من العذاب في آيات أُخرى، قال تعالى:(وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ * فِي سَمُوم وَحَمِيم * وَظِلّ مِنْ يَحْمُوم * لاَ بَارِد وَلاَ كَرِيم).(الواقعة:٤١ـ ٤٤.)

وقال تعالى: (وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآب * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ * هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ * وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ).(ص:٥٥ـ ٥٨.)

١٨. (مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَاد اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْم عَاصِف لاَ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْء ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ):

أعمال المشركين كرماد في مهبّ الرّيح

ربّما يقوم الكافر بأعمال صالحة في نظر الناس، كصلة الأرحام وإطعام الجياع وفداء الأُسارى وإغاثة الملهوفين، والله سبحانه يشبّه أعمالهم في عدم الانتفاع بها برماد في مهبّ الرّيح العاصفة كما يقول:(مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ)من المشركين (أَعْمَالُهُمْ) الصالحة (كَرَمَاد اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ): أي حملته الريح وأسرعت بالذهاب به (فِي يَوْم عَاصِف): أي شديد الرّيح.

وجه التشبيه هو قوله: (لاَ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْء): أي لا ينتفعون بما اكتسبوا، فإنّ الرماد تذروه الرياح في الهواء، وأعمال الكافرين تصبح غير نافعة ؛ لأنّهم بنوا أعمالهم على غير معرفة الله والإيمان به فلا يستحقّون شيئاً عليها من الله (ذَلِكَ): أي مثل

هذا العمل (هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ): أي البعيد عن الحقّ والصواب، ووجه حرمانهم وعدم انتفاعهم بها أنّهم لم يقوموا بها لوجه الله سبحانه حتى يستحقّوا الثواب عليها يوم القيامة، بل قاموا بهذه الأعمال لغايات دنيوية، وهو حفظ الجاه والمقام بين الناس أو جلب أنظار الناس، أو غير ذلك من الدوافع الدنيويّة التي لا تنطلق من أُسس إيمانية ثابتة.

ونحو الآية قوله: (وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا)(الفرقان:٢٣.)، وقوله تعالى: (مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ).(آل عمران:١١٧.)

وروي أنّ عائشة قالت للنبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم): يا رسول الله، إنّ ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرّحم ويُطعم المسكين هل ذاك نافعه؟ قال: «لا ينفعه. إنّه لم يقل يوماً ربّ اغفر لي خطيئتي يوم الدين».(صحيح مسلم:١/١٣٦، باب الدليل على أنّ مَن مات على الكفر لا ينفعه عمل.)

سؤال وإجابة

أمّا السؤال، فيقول سبحانه: (مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ)، فالآية تدلّ على عدم انتفاع الكافرين بأعمالهم، ولكنّ قوله سبحانه في سورة «الزلزلة» يدلّ على أنّ عامل الخير يرى أثر عمله، أعني قوله تعالى: (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ)(الزلزلة:٧.)، فكيف يتمّ الجمع بين الآيتين؟

والجواب: إنّ الظاهر من آيتنا ومن الآية (٢٣) من سورة الفرقان وغيرهما، أنّ المراد بالأعمال فيها مطلق الأعمال والأفعال التي يقوم بها الكفّار، وأنّ الكفر يوجب بطلانها وإحباطها، قال تعالى:(وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ)(الأعراف:١٤٧.)، وبذلك تكون آيتي سورة الزلزلة مخصوصتين، وأنّ مَن قضى الله تعالى بحبط أعماله (بسبب الكفر وغيره)، يذهب كلّ ما عمله من خير هَدْراً، ومن ثمّ يغدو وكأنّه لم يعمل خيراً، وعندئذ ليس في صحيفته خيراً حتّى يراه.

وقد أُجيب عن هذا السؤال بجواب آخر، وهو: أنّ أعمال الخير المجرّدة عن نيّة الشرك يمكن أن يقال إنّهم ينتفعون بها، فلو فرضنا أنّ رجلاً كافراً فعل الخير بنيّة صادقة بريئة عن الأهداف الدنيوية، فيمكن أن يقال إنّه سبحانه لا يضيع عمله أخذاً بقوله سبحانه :(إِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ).(التوبة:١٢٠.)

نعم الانتفاع بأعمال الخير يوم القيامة يكون مؤثّراً في تخفيف العذاب لا في نجاته، فتدبّر.

ويؤيّده ما روي عن النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) أنّه قال لعَديّ بن حاتم الطائي: «دفع عن أبيك العذاب الشديد لسخاء نفسه».(بحار الأنوار: ٦٨ / ٣٥٤.)

الآيات: التاسعة عشرة إلى الثالثة والعشرين(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ ... تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ).

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ * وَبَرَزُوا للهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ * وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ).

المفردات

ألم تر: أُريد الرؤية العلميّة الناشئة عن النظر والتأمّل .

برزوا: البروز: خروج الشيء عمّا كان ملتبساً به إلى حيث يقع الحسّ عليه، يقال: برز للقتال إذا ظهر له.

الضعفاء: جمع ضعيف، وأُريد هنا الأتباع أو الرعيّة.

للذين استكبروا: المراد بهم السادّة لأنّهم يتكبّرون على الأتباع.

تَبَعاً: جمع تابع. ويمكن أنّ يكون مصدراً بتقدير ذوي تبع.

مُغنون عنّا: دافعون عنّا (العذاب).

مَحِيص: مَنجى ومهرب.

فأخلفتكم: كَذِبْتكم. ويحتمل: لم أوفِ بما وعدتكم.

سلطان: تسلُّط.

بمصرخكم: مغيثكم ومنجيكم.

التفسير

آيات هذه المجموعة تضمّنت حواراً ومناظرة بين الأتباع والقادة، كما تضمّنت مناظرة أُخرى بين الشيطان وأتباعه، ونتيجة الحوار هي أنّ كلاًّ من القادة والشيطان يتبرّأ من أعمال الأتباع، كما سيأتي في تفسير الآيات. وقد جاء مثل هذا الحوار في بعض الآيات، نظير قوله سبحانه: (وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ)(غافر: ٤٧ ـ ٤٨)، وقوله عزّ وجلّ:(رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاَ * رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا).(الأحزاب:٦٧ـ ٦٨)

١٩ و ٢٠. (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْق جَدِيد * وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيز):

صلة الآيتين بما قبلهما أنّه لمّا سبق أن طمأن الرُّسل بهلاك الظالمين، بقوله تعالى:(فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ)، جاء البيان القرآني ببيان أشدّ ممّا سبق، وهو أنّ خالق السماوات والأرض قادر على إذهاب كلّ مَن في الأرض كما يقول:(أَلَمْ تَرَ) الرؤية هنا رؤية علمية وليست بصرية، إذ لم يُبصر الإنسان بعينه خلق السماوات والأرض، وإنّما أدركه برؤية علمية منطقية، والمعنى: ألم تعلم ـ أيّها المخاطب ـ وتتأمّل ببصيرتك (أَنَّ اللهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ): أي مصحوباً بالحقّ ومقروناً به، وأنّ فعله هذا كان مقروناً بالغرض والغاية لا عبثاً، كما قال: (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ).(الدخان:٣٨ـ ٣٩)

ويشهد لما ذكرنا من أنّ المراد بالحقّ كون الخلق مقروناً بالغاية، تَقابلُه مع قوله:(لاَعِبِينَ)، فالخلق المصحوب باللَّعب واللَّغو باطل، ويقابله الحقّ.

ثمّ إنّ الغاية من خلق كلّ شيء هو إيصاله للغاية التي خُلق لها، يقول سبحانه: (وَالّذي قَدّرَ فَهدى)(الأعلى:٣)، وفي آية أُخرى: (الذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْء خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)(طه:٥٠)، فهدايته سبحانه الخلق عبارة عن إيصاله إلى المطلوب الذي هو الغاية. ويظهر من بعض الآيات أنّ الغاية من خلق الأرض وما فيها هو انتفاع الإنسان بما فيها، يقول سبحانه: (هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا).(البقرة:٢٩)

وعلى كلّ تقدير، فالغاية المطلوبة من خلق كلّ شيء، سواء وقفنا عليها أم لا، يوجب خروج فعل الحكيم على الإطلاق عن اللَّغو.

ثمّ إنّه سبحانه يقول: (إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ) جميعاً من غير فرق بين الظالمين وغيرهم (وَيَأْتِ بِخَلْق جَدِيد)، فصارت الآية تقريراً للآية السابقة لكن في مجال أوسع، حيث تقدّم: (لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ * وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ) (إبراهيم: ١٣ـ١٤).

قوله: (وَمَا ذَلِكَ). أي إذهاب الجميع وإبدالهم بخلق جديد (عَلَى اللهِ)ليس (بِعَزِيز): أي بمتعذّر، لأنّ الجميع أمام قدرته سواء، قال الإمام علي(عليه السلام): «وَمَا الْجَلِيلُ وَاللَّطِيفُ، وَالثَّقِيلُ وَالْخَفِيفُ، وَالْقَوِيُّ وَالضَّعِيفُ، فِي خَلْقِهِ إِلاَّ سَوَاءٌ». (نهج البلاغة: الخطبة ١٨٥.)

حوار بين الأتباع والقادة

٢١. (وَبَرَزُوا لِلهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيص):

قد ورد في غير واحدة من السور حوار بين الضعفاء والمستكبرين، وإن شئت قلت: بين الأتباع والقادة، والله سبحانه يذكره بصيغة الماضي ويقول: (وَبَرَزُوا لِلهِ جَمِيعًا)، فقد خرجوا إلى الفضاء الواسع وعُرضوا على الله تعالى مع أنّهم سيبرزون لله جميعاً ويظهرون له يوم القيامة، ويجادلون في مقام خاصّ بعد أن تبيّن أنّ النار مثوىً لهم.

سؤال الأتباع

يسأل الأتباع، بعد أن انكشف لهم الواقع وعرفوا مصيرهم الأسود، يسألون القادة أن يدفعوا عنهم شيئاً من عذاب الله. ولعلّهم يتصوّرون بقاء قدرتهم الدنيوية إلى ذلك الزمان كما يحكي عنهم سبحانه بقوله:(فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا) فإنّ الكِبْر هو شيمة الطغاة (إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا) في الحياة الدنيا ومقتفون أثركم (فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا): أي دافعون عنّا (مِنْ عَذَابِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ): أي شيئاً من عذاب الله الذي ينزل بنا؟ والظاهر أنّ «من» تبعيضية أو زائدة للتأكيد كما هو الرائج إذا أتت في مجال النفي.

جواب القادة

قوله تعالى: (قَالُوا): أي القادة (لَوْ هَدَانَا اللهُ) إلى طريق الخلاص من العقاب (لَهَدَيْنَاكُمْ) إلى نفس الطريق. وظاهر السياق أنّه أُريد من الهداية ـ كما ذكرنا ـ طريق الخلاص. وربما يقال: إنّ المراد لو هدانا الله إلى الرجعة إلى الدنيا فنصلح ما أفسدنا، لهديناكم، وهو بعيد. وأبعد منه أن يقال: إنّهم أرادوا أنّ الله لو هدانا إلى الطريق الصحيح في الدنيا لهديناكم إليه؛ وذلك لأنّ فيه إلقاء مسؤولية كفرهم على الله سبحانه، وهو نفس القول بالجبر.

ثمّ إنّ القادة ـ تأكيداً على عدم استطاعتهم إجابة طلب الأتباع ـ قالوا: (سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا)فالصبر والجزع سيّان (مَا لَنَا مِنْ مَحِيص): أي من مهرب من عقاب الله تعالى، فقد انقطعت حيلتنا ويئسنا من الخلاص.

وللإمام علي(عليه السلام) كلمة قيّمة خاطب بها الحارث بن حوط، عندما قال له: أتُراني أظنّ أنّ طلحة والزبير وعائشة على باطل؟ فقال(عليه السلام): «يا حارث! إنّه ملبوس عليك، وإنّ الحقّ والباطل لا يُعرفان بالناس، ولكن اعرفِ الحقّ تَعرفْ أهلَه، واعرفِ الباطلَ تعرفْ مَن أتاه». (تاريخ اليعقوبي:٢/٢١٠.)

فهؤلاء الضعفاء عكسوا الأمر، فهم مكان أن يعرفوا الحقّ ليتّبعوه وليعرفوا أهله، اغترّوا بمكانة المتبوعين في المجتمع من حيث القدرة والسطوة فجعلوهما دليلاً على كون طريقهم حقّاً، ففي يوم القيامة عندما يبرز هؤلاء بين يدي الله تعالى، تتقطّع أنفسهم حسرات، لخضوعهم للقادة الطغاة، الذين لا يملكون الآن أن يدفعوا عنهم قليلاً من العذاب.

نعم، هؤلاء الأتباع وإن كانوا ضعفاء في القدرة والمُكنة، ولكنّ عقولهم لم تكن ضعيفة وإنّما اغترّوا بظواهر الأمر ولم يستنيروا بنور عقولهم، ولذلك صاروا محكومين بالعذاب. قلنا:إنّ مثل هذا الحوار جاء في بعض السور وذلك في موضعين:

١. قوله تعالى:(وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ). (غافر:٤٧ـ ٤٨.)

٢. قوله تعالى: (رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاَ * رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا).(

الأحزاب:٦٧ـ٦٨.)

حوار بين الشيطان وأتباعه

٢٢. (وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ):

لمّا وقف الأتباع على الحقيقة المرّة، وهي عجز القادة عن إغاثتهم ودفع بعض العذاب عنهم، ربّما توجّهوا إلى أنّ مصدر ضلالتهم هو الشيطان الذي زيّن لهم أعمالهم الإجرامية، كما أوجب هو ذلك على نفسه عندما طُرد من الجنة، قال تعالى حاكياً عنه ذلك: (قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ).(الحجر:٣٩ـ٤٠.)

وسياق الآية ربّما يناسب الاحتمال المتقدّم، أي حمل الأتباع ضلالهم على عاتق الشيطان، معترضين عليه بأنّك كنت سبباً لهذا المصير المأساوي (وَ) عندئذ (قَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ): أي فُصل فيه وخُتم الموقف، مشيراً إلى عدّة أُمور:

١. (إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ): أي البعث والجزاء على الأعمال، فوفى لكم بما وعدكم. وإضافة الوعد إلى الحقّ من باب إضافة الموصوف إلى الصفة، أي الوعد المحقَّق الذي تشاهدونه من الجنّة والنار.

٢. أمّا أنا، أي الشيطان (وَوَعَدْتُكُمْ) بأنّه لا بعث ولا نشور ولا جنّة ولا نار، ولكن (فَأَخْلَفْتُكُمْ): أي كذبتكم.

ولمّا كانت هناك مظنّة أن يُلقي الأتباع مسؤولية ما ارتكبوا من الجرائم على عاتق الشيطان بأنّك بوعدك الكاذب صرت سبباً لضلالنا، أشار الشيطان إلى أمر ثالث.

٣. (وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ) يسلب عنكم الاختيار ويجبركم على العصيان، وإنّما الصادر منّي هو الدعوة إلى الضلال والترغيب فيه بالوسوسة والتزيين، كما يقول: (إِلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي) والاستثناء منقطع لظهور أنّه لو كان متّصلاً لفسد المعنى وهو تسلّط الشيطان عليهم بالقهر والغلبة، فيكون المعنى: من غير سلطان عليكم فاستجبتم لي، فأنتم باختياركم اتّبعتموني من دون جبر وضغط، فلو كان هناك لوم وتوبيخ فليتوجّه إليكم، كما يقول: (فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ) على ما صرتم إليه.

ثمّ إنّ الرازي نقل في تفسيره عن المعتزلة أنّ قوله سبحانه: (فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ) يدلّ على أُمور:

١. لو كان الكفر والمعصية من الله تعالى لوجب أن يقال: فلا تلوموني ولا أنفسكم، فإنّ الله قضى عليكم الكفر وأجبركم عليه.

٢. ظاهر هذه الآية يدلّ على أنّ الشيطان لا قدرة له على تصريع الإنسان وعلى تعويج أعضائه، وعلى إزالة العقل عنه، كما تقول الحشويّة والعوامّ.

٣. أنّ هذه الآية تدلّ على أنّ الإنسان لا يجوز ذمّه ولومه وعقابه بسبب فعل الغير، وعند هذا يظهر أنّه لا يجوز عقاب أولاد الكفّار بسبب كفر آبائهم.(تفسير الرازي:١٩/١١١.)

ثمّ قال: أجاب بعض الأصحاب عن هذه الوجوه بأنّ هذا قول الشيطان فلا يجوز التمسّك به.

وأجاب الخصم عنه: بأنّه لو كان هذا القول منه باطلاً لبيّن الله بطلانه وإنكاره، وأيضاً فلا فائدة في ذلك اليوم في ذكر هذا الكلام الباطل والقول الفاسد، ألا ترى أنّ قوله: (إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ) كلام حقّ، وقوله: (وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ) قول حقّ، بدليل قوله تعالى: (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ).(الحجر:٤٢.)

أقول: ولا يخفى أنّ الرازي مع أنّه كان أشعرياً إلاّ أنّه قد ارتضى جواب خصمه وذكره بلا تعليق، وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على «تذبذب» الرازي في المنهج، والله العالم.

ولمّا كان هناك احتمال الإغاثة أو نظيرها في الحوار السابق بين الأتباع وقادتهم، آيسهم الشيطان من إغاثته، قائلاً:

٤. (مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ): أي بمُغيثكم (وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ): أي بمغيثيَّ، فالحكم يومئذ لله الواحد القهّار.

٥. ثمّ إنّ الشيطان يتنصّل من مسؤولية جعلهم إيّاه شريكاً لله في الطاعة، ويقول: (إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ)والظاهر أنّ «ما» في قوله: (بِما) مصدرية، والمراد من قوله: (كَفَرْتُ): أي جحدت، ويكون معنى الفقرة: إنّي جحدت الآن بإشراككم إيّاي مع الله تعالى، حيث أطعتموني مكان طاعة الله، يقول سبحانه: (يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لاَ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ)(يس:٦٠.). وبما ذكرنا من المعنى نستغني عمّا ذكره الرازي من الاحتمالات حول الفقرة.(لاحظ: تفسير الرازي:١٩/١١٥.)

٦. قوله: (إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) يريد نفسه ومن تبعه، فهذه الفقرة نظير ما مرّ من قول الطغاة المتبوعين: (مَا لَنَا مِنْ مَحِيص). ويُحتمل أن تكون هذه الفقرة من الله سبحانه لبيان استحقاق جميع العصاة للعذاب.

وفي الآية دليل واضح على أنّ الشيطان أيضاً يعترف بحرية الإنسان في اختيار الشقاء والسعادة والطاعة والعصيان، وليس من الله إلاّ التمكين ولا من الشيطان إلاّ التزيين، ولو كان الإنسان مُكرهاً على عمله غير مختار لما قال الشيطان:(فَلاَ تَلُومُونِي) بل (وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ).

٢٣. (وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّات تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ):

قوله: (وَأُدْخِلَ) عطف على جملة: (وَبَرَزُوا للهِ جَمِيعًا) وليست الآية من كلام الشيطان بشهادة قوله:(بِإِذْنِ رَبِّهِمْ) أي بعنايته، بل هي من كلام الله سبحانه. وكأنّ الآيات تقسّم المبعوثين يوم القيامة الذين حكى عنهم في قوله: (وَبَرَزُوا للهِ جَمِيعًا) إلى فريقين، فلمّا تبيّن مصير الأشقياء من قادة الضلال وأتباعهم، قابله هنا ببيان مصير السعداء، وقال: (وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّات تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ)، وللإشارة إلى عناية الله بهم يقول: (بِإِذْنِ رَبِّهِمْ): أي يدخلهم الملائكةُ الجنّة بإذن الله وأمره. وأمّا قوله: (تَحِيَّتُهُمْ): أي تحية المؤمنين فيما بينهم (فِيهَا): أي في الجنّة فهو (سَلاَمٌ) كما كان كذلك في الدنيا.

وربّما يقال: تحيّيهم الملائكة بالسّلام بإذن ربهم، لكنّه على خلاف السياق، لأنّ الظاهر أنّ قوله: (بِإِذْنِ رَبِّهِمْ) متعلّق بأُدخل، فالدخول إلى الجنّة رهن إذنه سبحانه.

نعم، جاءت تحيّة الملائكة للداخلين في سور أُخرى، قال تعالى: (حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ).(الزمر:٧٣.)

الآيات: الرابعة والعشرون إلى السابعة والعشرين (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً... وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ).

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَة طَيِّبَة أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِين بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثَلُ كَلِمَة خَبِيثَة كَشَجَرَة خَبِيثَة اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَار * يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ).

المفردات

مثلاً: أُريد من المثل في القرآن الكريم تشبيه شيء بشيء، وفي الآية تشبيه كلمة بشيء آخر.

ثابت: ضارب بعروقه في الأرض.

في السماء: أُريد جهة العلوّ. حكي عن ابن عباس قوله:كلّ ما علاك وأظلّك فهو سماء.

أُكُلَها: ثمراتها.

اجتُثّت: استؤصلت.

قرار: ثبات.

يثبّت: يقابله: (وَيُضِلُّ) في قوله:(وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ).

التفسير

اختلف المفسّرون في المراد من الكلمة الطيّبة والخبيثة إلى أقوال أهمّها:

١. الكلمة الطيّبة: الإسلام، أعني: شهادة أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمّداً رسوله، ويقابلها الكلمة الخبيثة، وهي: كلمة الشِّرك.

٢. الكلمة الطيّبة: القرآن وإرشاده، والخبيثة: تعاليم أهل الشِّرك وعقائدهم.

٣. الكلمة الطيبة: الإيمان، والخبيثة: الشِّرك.

٤. الكلمة الطيّبة: الاعتقاد الحقّ الثابت، ويقابله الاعتقاد الباطل غير الثابت.

والمعنى الرابع قريب من المعنى الثالث. ويشهد لذلك قوله سبحانه:(إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ) (فاطر:١٠)، والظاهر أنّ للمثل معنى أوسع وأعمق، وله مصاديق في كلّ زمان ومكان، فكلّ عمل صالح أو مخطّط صالح أو فكرة صالحة عبر الزمان، فالجميع أيضاً شجرة طيبة لها ثمارها اليانعة.

نعم العقيدة الحقّة كالإيمان بالله سبحانه وصفاته العليا وأنبيائه ورسله وشرائعه التي تنسجم مع الفطرة والعقل الحصيف، من أوضح مصاديق المثل، فعلى هذا فقصر المثل بمورد واحد لا يوافق خصّيصة المثَل التي تبتغي لنفسها مورداً ومصداقاً في كلّ زمان.

٢٤ و ٢٥. (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَة طَيِّبَة أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِين بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ):

تمثيل رائع

لمّا تقدّم ذكر الإيمان في قوله سبحانه:(وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّات)، ابتدأ سبحانه في هذه الآية ببيان وصف الإيمان والعقيدة الحقّة، والشريعة الإلهية، وقال: (أَلَمْ تَرَ) الرؤية هنا رؤية علمية لا بصرية كما تقدّم فيما سبق (كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً): أي بيّن حال شيء بالتشبيه، وقال: (كَلِمَةً طَيِّبَةً) ـ منصوبة بدلاً من «مثلاً» ـ : أي اعتقاداً وإيماناً لله خالصاً (كَشَجَرَة)لها الأوصاف التالية:

١. (طَيِّبَةً): أي طاهرة ونظيفة في مقابل (خَبِيثَة).

٢. (أَصْلُهَا ثَابِتٌ): أي لها جذور راسخة في أعماق الأرض لا تزعزعها العواصف الهوجاء ولا الرِّياح العاتية.

٣. (وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ): أي لها أغصان مرتفعة، فهي بجذورها الراسخة تحتفظ بأصلها وتنتفع بالماء، وبفروعها في السماء، تنتفع بنور الشمس والهواء.

وهذه الفروع والأغصان من الكثرة بحيث لا يزاحم أحدها الآخر، كما أنّها لا تتلوّث بما على سطح الأرض.

إنّ الشّجرة لا تستحقّ أن تُسمّى شجرة إلاّ بثلاث صفات: عِرق راسخ، وأصل قائم، وأغصان متفرّعة. هذا لمطلق الشَّجر، وأمّا إذا كانت مثمرة فلها صفة رابعة وهي الثمار الطيِّبة.

٤. (تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِين بِإِذْنِ رَبِّهَا): أي في كلّ فصل وزمان وقّته الله لإثمارها، لا بمعنى كلّ يوم وكلّ شهر، حتى يقال: بأنّه ليس على البسيطة شجرة مثمرة من هذا النوع.

قال الرازي في تفسير قوله تعالى:(بِإِذْنِ رَبِّها): فيه دقيقة عجيبة، وذلك لأنّ عند حصول هذه الأحوال السَّنيّة، والدرجات العالية، قد يفرح الإنسان بها من حيث هي هي، وقد يترقّ فلا يفرح بها من حيث هي هي، وإنّما يفرح بها من حيث إنّها من المولى، وعند ذلك فيكون فرحه في الحقيقة بالمولى لا بهذه الأحوال.(تفسير الرازي:١١٩/١٩.)

هذا حال المشبّه به، وأمّا المشبّه فقد علمت أنّ خصّيصة المثَل تدفعنا أن لا نحصره بمورد خاص، وإن كان سياق الآية يقتضي القول بأنّها عبارة عن الإيمان بالله وحده والإيمان به يوم الجزاء والحياة الأُخروية، وتطبيق الحياة على الشريعة الإلهية، فمن المعلوم أنّ هذا النوع من الإيمان له جذور في القلب، وفروع في الجوانح، وآثار طيِّبة على المستوى الفردي والاجتماعي، فالمؤمن يعبد الله وحده، ويجتنب عبادة الأصنام الجامدة الميتة، وهو يعدل ولا يجور، يَصدُق ولا يكذِب، يرحم الصِّغار ويوقّر الكبار، يصل الأرحام ولا يقطع، يقضي بالحقّ لا بالباطل، يحترم النفوس والدماء والأموال والحقوق والأعراض، إلى غير ذلك من آثار الإيمان الواردة في الكتاب والسنّة.

ثمّ إنّه سبحانه يتمّ الآية بقوله: (وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)، فقوله تعالى:(لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُون) يشير إلى أنّ مضمون المثل في كلا الجانبين أمر ملموس لكلّ مَن ألقى النظر إليها ولا يحتاج إلاّ إلى التذكّر.

الإنسان المثالي هو الكلمة الطيبة أيضاً

تقدّم أنّ للمثل معنىً أعمق ومصاديق أكثر، ولا غَرو في أن تطلق الكلمة الطيبة على الإنسان المثالي الذي صار مَجمعاً للفضائل، كما في قوله سبحانه عن عيسى بن مريم:(إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَة مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ)(آل عمران:٤٥.)، فعلى هذا فيصحّ القول بأنّ الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) والأئمّة المعصومين(عليهم السلام)من مصاديق الآية.

وليس هذا بعيداً عن طبيعة القرآن، بل بما أنّ القرآن كتاب الأجيال والعصور، فيقتضي ذلك صحّة الجري والتطبيق، فإنّ القرآن ـ كما عرّفه الإمام أبو جعفر محمد الباقر(عليه السلام) ـ :«.. حي لا يموت، والآية حيّة لا تموت، فلو كانت الآية إذا نزلت في الأقوام ماتوا، فمات القرآن، ولكن هي جارية في الباقين كما جرت في الماضين».(تفسير العياشي:٢٠٣/٢ برقم ٦.)

ولذلك روي عن الإمام محمد الباقر(عليه السلام) أنّه قال:«أمّا الشجرة فرسول الله، وفرعها عليّ، وغصن الشجرة فاطمة بنت رسول الله، وثمرها أولادها، وورقها شيعتنا». وفي حديث آخر عن عمر بن سالم بيّاع السابري، قال: سألت أبا عبد الله(عليه السلام) عن هذه الآية: (أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ) قال: «أصلها رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)، وفرعها أمير المؤمنين(عليه السلام)، والحسن والحسين(عليهما السلام)ثمرها، وتسعة من ولد الحسين أغصانها، والشيعة ورقها، والله إنّ الرجل منهم ليموت فتسقط ورقة من تلك الشجرة»، قلت: قوله تعالى: (تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِين بِإِذْنِ رَبِّهَا)؟ قال: «وما يخرج من علم الإمام إليكم في كلّ سنّة من حج وعمرة».(البرهان في تفسير القرآن: ٣٩٦/٥، برقم ٥٧١٤، ٥٧١٥.)

فالآية بعيدة المدى، تضرب في الأعماق، وتخرق الآفاق، وفي كلّ زمان يوجد ما يصلح أن يكون مصداقاً لها.

التمثيل الآخر

٢٦. (وَمَثَلُ كَلِمَة خَبِيثَة كَشَجَرَة خَبِيثَة اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَار):

لمّا شبّه سبحانه العقيدة الحقّة والإيمان بالله والعمل بالشريعة بشجرة طيبة، اقتضى ذلك أن يمثّل للعقيدة الباطلة على ضد المثل السابق، فهي على طرف النقيض ممّا ذُكر في الآية السابقة، فالكفر كشجرة لها الأوصاف التالية:

١. أنّها خبيثة بالذات، تقابل الطيبة، أي لا تطيب ثمارها كشجرة الحنظل(إطلاق الشجرة على الحنظل من باب المشاكلة فهي شجيرة لا شجرة.) أو ما يشابهها.

٢. (اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ) في مقابل قوله: (أَصْلُهَا ثَابِتٌ)، وحقيقة الاجتثاث هو قلع الشيء من أصله، أي اقتُطعت واستؤصلت واقتُعلت جذورها من الأرض.

٣. (مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ): أي ليس لتلك الشجرة من ثبات، فالريح تنسفها وتذهب بها، ومن ثمّ ليس لها أغصان أو ثمار طيّبة.

وهنا سؤال، هل لهذه الشجرة الطيّبة أو الخبيثة واقع خارجي، أو هي أمر افتراضي؟

الأقرب إلى الحقيقة أنّ لكلّ واقعاً خارجياً، فالطيّبة تتردّد بين النخلة والزيتونة والكروم، والخبيثة تنطبق على الحنظل وما يشابهها من الأشجار ذات الأشواك النابية.

أخرج الترمذي، عن أنس، قال: أُتي رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) بقناع من بُسر، فقال: (كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ)حتى بلغ (تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا) قال: هي النخلة (وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ) حتى بلغ (مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ) قال: هي الحنظل».(تفسير الدر المنثور:٥/٢٢.)

قال الشريف الرضيّ(رحمه الله) حول هاتين الآيتين(٢٤ و ٢٥):

وهاتان استعارتان ؛ لأنّه وصف إحدى الكلمتين بالطّيب، ووصف الأُخرى بالخُبث على طريق المجاز لا على الحقيقة؛ فالمراد بالكلمة الطيّبة هاهنا: دعوة الإيمان والإخلاص، والمراد بالكلمة الخبيثة الكفر والضّلال، ومعنى طيّبة أنّها زاكية نامية كالشجرة الزاكية النامية التي يُرجى إيراقها وإثمارها ويؤمن إخلافها وإيباسها، فنفعها مأمول وضيرها مأمون، والكلمة الخبيثة التي هي دعوة الكفر كالشجرة الخبيثة المقتَلَعة لا أصل لها ثابت، ولا فرع نابت، وهي مخلفة الإثمار، وشيكة الانقلاع، وهاتان استعارتان(في المطبوعة: وهذان فعلان. وفي هامش الصفحة: كذا في النسخة ونظنّ أنّ الأصل: وهاتان استعارتان.)عجيبتان في نماء الإيمان وزيادته ودوامه وثبات كلمته، وفي تقويض الكفر وتداعيه وسرعة انهدام منابته(كذا، وفي هامش المطبوعة: لعلّ الصواب: مبانيه.)، والمراد بطيب الكلمة أنّ معناها زكيّ طيّب وبالخبث نقيضها،]وهو[أنّ معناها خبيث فاسد.(تلخيص البيان في مجازات القرآن:٨١ـ ٨٢.)

٢٧. (يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الأخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ):

الآية بمنزلة بيان ثمرة الكلمتين: الطيّبة والخبيثة، فمَن تمسّك بكلمة الإيمان يثبّته الله تعالى كما يقول: (يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ): أي الإيمان الثابت بالقلب (فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) حيث تُجتنى ثمرة الإيمان (وَفِي الأخِرَةِ)، ماذا أُريد من التثبيت في الآخرة؟

لعلّ المراد هو الثبات حال النَّزع وفي القبر عند سؤال الملَكين، فقد روى الكليني عن سُوَيد بن غَفَلة، عن علي أمير المؤمنين(عليه السلام) قال:«إنّ ابن آدم إذا كان في آخر يوم من الدنيا، وأوّل يوم من الآخرة، مُثِّل له مالُه وولدُه وعملُه، فيلتفت إلى ماله فيقول: والله إنّي كنتُ عليك حريصاً شحيحاً، فما لي عندك؟ فيقول: خذ منّي كفَنَك. فيلتفت إلى ولده فيقول: والله إنّي كنتُ لكم محبّاً وإنّي كنتُ عليكم محامياً، فماذا لي عندكم؟ فيقولون: نؤدّيك إلى حفرتك نواريك فيها. قال: فيلتفت إلى عمله فيقول: والله إنّي كنتُ فيك لَزاهداً وإنْ كنتَ عليَّ لثقيلاً، فماذا عندك؟ فيقول: أنا قرينك في قبرك ويوم نشرك حتى أُعرض أنا وأنت على ربّك. قال: فإن كان لله وليّاً أتاه أطيب الناس ريحاً، وأحسنهم منظراً، وأحسنهم رياشاً. فقال: أبشر برَوح وريحان وجنّة نعيم، ومَقدمك خير مَقدم، فيقول له: من أنت؟ فيقول: أنا عملك الصالح، ارتحل من الدنيا إلى الجنّة...».(الكافي:٣/٢٣١، كتاب الجنائز، باب إنّ الميّت يمثّل له ماله، رقم الرواية ١.)

وروى النّسائيّ عن البَراء]بن عازب[قال:(يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الأخِرَةِ) قال: نزلت في عذاب القبر.

قال محمد بن عبد الهادي السِّندي في شرح قوله: «في عذاب القبر»: أي في السؤال في القبر. ولمّا كان السؤال يكون سبباً للعذاب في الجملة، ولو في حقّ بعض، عبّر عنه باسم العذاب، فالمراد بالتثبيت في الآخرة هو تثبيت المؤمن في القبر عند سؤال الملَكين إيّاه.(سنن النَّسائيّ (وبهامشه حاشية السِّنديّ): ٥٠٤، كتاب الجنائز، باب عذاب القبر، رقم الرواية ٢٠٥٢.)

وأمّا أصحاب الكلمة الخبيثة، فإنّهم باختيارهم لطريق الضلال وتلبُّسهم بالظلم، يُحرمون من التوفيق الإلهي ويُتركون لضلالهم كما قال: (وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ) الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والعصيان. وبذلك يُعلم أنّ الهدى يبتدئ من الله سبحانه بالفطرة وبعث الأنبياء، فإن استجاب الإنسان لدعوتهم، يُنعم الله عليه بالهداية الثانية، ولكن الضلال يبتدئ من الإنسان بسوء اختياره فيجازى بالضلال، أي الحرمان من الهداية الثانية، ويشهد لما ذكرنا في كلا الموردين قوله سبحانه:(إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى)(الكهف:١٣.)، وقوله سبحانه:(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ).(الصف:٥.)

ولأجل إلفات الإنسان إلى أنّ ما ذُكر تقدير لا يتبدّل يقول سبحانه: (وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ): أي قضت مشيئته بتثبيت المؤمنين وتأييدهم، وإضلال الظالمين وخذلانهم، ولم تكن مشيئته عبثاً، بل نابعة عن حكمة بالغة.

الآيات: الثامنة والعشرون إلى الحادية والثلاثين(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ ... لاَ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خِلاَلٌ).

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ * وَجَعَلُوا للهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ * قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خِلاَلٌ).

المفردات

أحلُّوا: من الإحلال، وهو وضع الشيء في محلّه.

البَوار: الهلاك، يقال: بار الشيء بَوْراً وبَوَاراً: إذا هلك.

يصلَونها: يقاسون حرّها.

أنداداً: جمع نِدّ، وهو المِثل والشَّبيه، بل هو أخصّ من المثل، يقول الراغب: نديد الشيء، مشاركه في جوهره، وذلك ضربٌ من المماثلة، فإنّ المثل يقال في أيّ مشاركة كانت، فكلّ نِدّ مِثْل، وليس كلّ مِثل نِدّاً.(المفردات للراغب: ٧٩٦، مادة «ندد».) وعلى هذا فالآية تدلّ على أنّ المشركين جعلوا الأصنام والأوثان أنداداً لله، أي مشابهات له في جوهره.

مصيركم: مرجعكم.

بَيع: فدية، وإعطاء البدل للتخلّص من النار.

خِلال: صداقة.

التفسير

بعد أن مثّل الله تعالى الإيمان والعقيدة الصحيحة بالشجرة الطيّبة، والكفر والشرك بالشجرة الخبيثة، أعقب ذلك بإراءة مجتمَعين كمصداقين للمثَلين، ولكلٍّ خصائص، وابتدأ بذكر أحوال المشركين.

٢٨. (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ):

الظاهر أنّ الآية ناظرة إلى رؤساء الضلال وأئمّة الكفر، وقد عرّفهم الله تعالى بالصفات التالية:

١. (بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْرًا): أي بدّلوا شكر نعمة الله كفراً، فمكان أن يشكروا نِعَمه الوافرة كفروا بها. ولو كان المراد صناديد قريش فمن نِعَم الله سبحانه عليهم أن أسكنهم حرماً آمناً تجبى إليه ثمرات كلّ شيء(لاحظ: القصص:٥٧.)، وجعلهم أُمناء بيته،

وشرّفهم بإرسال رسوله من بينهم، كما أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف، فهؤلاء بدل أن يقابلوا هذه النّعم بالشكر العمليّ الذي يتجسّد في الإيمان وطاعة المنعم جلّ شأنه، كفروا بها، ونصبوا الحرب للرسول(صلى الله عليه وآله وسلم).

روى ابن جرير الطبريّ بإسناده عن أبي الطفيل، عن عليّ، قال في قول الله: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ)، قال: هم كفّار قريش.(جامع البيان (تفسير الطبري): ٢٧٦/٨، رقم الرواية: ٢٠٧٩١. وانظر الروايات المرقّمة: ٢٠٧٨٦، ٢٠٧٨٩، ٢٠٧٩٤.)

وبه قال ابن عباس، وسعيد بن جُبير، ومجاهد، والضحّاك.(التبيان في تفسير القرآن:٢٩٤/٦. وانظر: جامع البيان:٢٧٧/٨ـ٢٧٩، الروايات المرقّمة:٢٠٧٩٧، ٢٠٢٧٩٩، ٢٠٨٠٥، ٢٠٨١٢.)

وروى عن عمر بن الخطاب، وعليّ(عليه السلام) أنّ المراد بالآية: الأفجران من قريش: بنو المغيرة، وبنو أُميّة.(انظر: جامع البيان:٢٧٥/٨، الروايات المرقّمة:٢٠٧٨٠، ٢٠٧٨١، ٢٠٧٨٤.)

وروى عليّ بن إبراهيم القمّي نحوه عن أبي عبد الله الصادق(عليه السلام).(تفسير القمّي:٣٧٢/٢ـ ٣٧٣.)

هذا إذا كانت الآية خاصّة بصناديد قريش، وأمّا إذا لم تكن خاصّة بهم، فيكون معناها: ألم تر إلى الطاغين من الأمم السابقة ومن أُمّتك الذين بدّلوا شكر نعمة الله كفراً، وعندئذ تصبح الآية ذات مفاد عام يصدُق على كلّ قوم بدّلوا شكر النعمة كفراً، سواء أكانوا ممّن عبر وغبر، أم ممّن سيأتي بهم المستقبل.

٢.(وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ): أي دار الهلاك، وأمّا ما هو المراد من دار البوار والهلاك، فهذا ما تفسّره الآية التالية:

٢٩. (جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ):

الآية تحكي عن مصير هؤلاء، وهو مقاساة نار جهنّم وبئس المأوى والمستقرّ.

وعلى هذا، فتفسير البوار بهلاك صناديد قريش في بدر، لا يناسب سياق الآية حيث إنّ الآية مكيّة، مضافاً إلى أنّ الآية التالية فسّرته بمقاساة نار جهنّم.

٣٠.(وَجَعَلُوا للهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ):

٣. (وَجَعَلُوا للهِ أَنْدَادًا): أي جعلوا أمثالاً حقيقيّين مماثلين له في الواقع دون أن يكون بينه وبينهم مشابهة شكليّة فقط. ثمّ إنّه سبحانه يحكي عمّا ترتّب على جعل الأنداد لله بقوله:

٤. (لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ) لا شكّ في أنّ اللام لام العاقبة وليست لامَ الغرض، لأنّ الإضلال عن سبيل الله ترتّب على فعلهم قهراً، لا أنّهم جعلوا لله أنداداً لتلك الغاية.

ولمّا وصفهم الله سبحانه بما تقدّم، أمر نبيّه أن يقول لهم على سبيل التهديد والوعيد: (قُلْ تَمَتَّعُوا) في دنياكم، واستمرّوا في اغتراركم بمتاعها وزينتها، إذ لا فائدة في نصحكم وإرشادكم (فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ): أي مرجعكم ومآلكم (إِلَى النَّارِ).

إلى هنا تمّ ما يمكن أن يكون مصداقاً للكلمة الخبيثة، وأمّا المصداق للكلمة الطيّبة فجمعته الآية التالية:

٣١. (قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خِلاَلٌ):

قلنا: إنّ من مصاديق الكلمة الطيبة الإيمان بالله وبكتبه وشرائعه ورسله، فلذلك نرى أنّه سبحانه يأمر نبيّه(صلى الله عليه وآله وسلم) أن يقول(لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا) أي: أصحاب الكلمة الطيبة، بالمحافظة على الأُمور التالية:

١. (يُقِيمُوا الصَّلاَةَ) التي هي صلة بين العبد وخالقه، وهي التي تنهى عن الفحشاء، وهي محطات الوقود الإيماني.

٢. (وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً) وهي صلة بين الإنسان والمجتمع، والإنفاق شكر للنعمة التي أنعم بها عليه، إذ بذلك يسدّ حاجة الفقراء من أبناء مجتمعه ويورث التحابب بين أبناء المجتمع الواحد، من غير فرق بين أن يكون الإنفاقين: السّري

والعلني، إذ لكلٍّ أثره الخاصّ، فأمّا الإنفاق في السرّ فهو أقرب إلى الاخلاص وأبعد عن الرياء، وأمّا الإنفاق علانية، فهو للاقتداء وحثّ الآخرين على البذل والعطاء، وهو من وسائل التربية العملية.

وبما أنّه سبحانه لا يضيع عمل العاملين، يشير إلى أنّ الإنسان سوف يرى أثر عمله، فعليه أن يعمل بهذا (مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَ بَيْعٌ فِيهِ): أي فدية تقدّم للخلاص من العذاب (وَلاَ خِلاَلٌ): أي ولا مُخالّة وصداقة تنجي الإنسان.

بقي هنا أمران:

الأوّل: أنّه سبحانه أشار إلى اثنتين فقط من الوظائف الشرعية، وهما إقامة الصلاة والإنفاق، وذلك لأنّهما من أعظم الوظائف التي بهما قوام الحياة الدنيوية، وإلاّ فالمجتمع المؤمن مكلَّف بوظائف كثيرة غير هاتين الوظيفتين.

الثاني: الآية تنفي فائدة أي مُخالّة وصداقة يوم القيامة، حيث قال:(وَلاَخِلاَلٌ) مع أنّ بعض الآيات تتحدّث عن بقاء الخُلّة بين المتقين، يقول تعالى: (الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذ بَعْضُهُمْ لِبَعْض عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ)(الزخرف:٦٧.)، فما هو الوجه للجمع بين الآيتين؟

يمكن أن يقال: إنّ المنفي في الآية هو الصداقة المادّية التي كانت تربطهم في الدنيا، فهذا النوع من الصداقة ينقطع يوم القيامة، وربّما يصبح بعضهم عدواً للبعض الآخر، فهؤلاء الذين كانوا يجتمعون في النوادي الفاسدة ويشربون الخمر ويتداولونها بينهم ويستمعون الألحان الفاسدة ويحضرون مجالس اللّهو والطرب، فهؤلاء يصبحون أعداء في يوم القيامة ؛ لأنّ كلاًّ منهم يتّهم الآخر بالإضلال.

وأمّا الخلّة النابعة عن الإيمان بالله ورسله وكتبه، فهي باقية يوم القيامة.

الآيات: الثانية والثلاثون إلى الرابعة والثلاثين(اللهُ الذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ ... إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ).

(اللهُ الذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ).

المفردات

رزقاً: الرزق: ما ينتفع به الإنسان.

سخّر لكم: التسخير: التذليل والتيسير والتمكين من التصرّف بالشيء.

دائبَين: دائمَين. يقال: دأب في العمل أي استمرّ.

لَظلوم: كثير الظلم لنفسه.

كفّار: شديد الكفر للنّعم، غير مؤدٍّ لشكرها.

التفسير

هل هذه الآيات بصدد الحديث عن الآيات الدالّة على وجود الصانع وكمال علمه وقدرته، كما عليه الرازي؟(تفسير الرازي:١٩/١٢٦.) أو أنّها بصدد بيان نعمه الوافرة على العباد المقتضية للشكر، مكان الكفر بها؟ الظاهر هو الثاني بشهادة أنّ الآية حدّدت سابقاً حال فريقين: مَن بدّل (نِعْمَةَ اللهِ كُفْرًا) عقيدة وسلوكاً، ومَن قام بحقّ العبوديّة فعرف المُنعم وأطاعه، وهم الذين أشار إليهم تعالى بقوله: (قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا)، فصار ذلك سبباً لتبيين حال بعض النّعم، فابتدأ بذكر المنعم أوّلاً ليتفرّع عليه ذكر النّعم. كُلُّ ذلك في مقاطع.

٣٢. (اللهُ الذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي

الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ):

الأوّل والثاني: (اللهُ الذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ) ابتدأ بذكر المنعم بلفظ الجلالة، حتى يتبيّن أنّه المفيض لما سيأتي من النِّعم، فلو وجب هناك شكر فيلزم شكره، وإلاّ فكونه سبحانه خالقاً للسماوات والأرض لم يكن مورد خلاف بين المشركين، قال سبحانه:(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ).(لقمان:٢٥.)

الثالث: (وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ) والمراد بها جهة العلوّ، وقد يُراد بها السّحاب لعلوّه (ماءً): أي مطراً (فَأَخْرَجَ بِهِ): أي بسبب هذا الماء (مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ)والآية دليل على أنّ القرآن يعترف بقانون العلّية في الظواهر الطبيعية، وما عليه الأشاعرة من أنّه تعلّقت عادة الله سبحانه على وجود ظاهرة بعد ظاهرة من دون رابطة بينهما، قول باطل لا ينسجم مع سياق الآيات ولا تقبله الفطرة الإنسانية.

والعجب أنّ الرازي يقف على دلالة الآيات على وجود الصلة بين الظواهر الطبيعية، ومع ذلك لا يقول به بقول باتّ!!

الرابع: (وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ): أي ذلّل لكم الفلك ويسّر لكم الانتفاع بها، حيث أودع سبحانه في الماء وفي السُّفن قوانين وسُنناً يمكن بواسطتها أن تجري السُّفن في الماء وتطفو على سطحه، ولا ترسب فيه، كما أنّه سبحانه خلق الرياح القوية لتأخذ بالسُّفن من مكان إلى آخر، ولا تبقى مستقرّة في مكانها.

ولأجل هذه الأُمور صحّت نسبة تسخير الفلك لله سبحانه لغاية انتفاع الإنسان.

الخامس: (وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ): أي سخر الماء لانتفاعنا، وذلك بتفجير الأنهار والعيون حتى ينبعث منها الماء.

٣٣. (وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ):

السادس والسابع: (وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ) فهما يدأبان في سيرهما وإنارتهما وتأثيرهما في إزالة الظُّلمة، وحفظ الحياة في النبات والدوابّ، فلولا الشمس والقمر لاختلّت الحياة ولعمّ الأرضَ الانجماد والظُّلمة، ولذلك يقال: الشمس سلطان النهار، والقمر سلطان الليل. ومن صور تسخيرهما إدراك الزمن وتحديد الأوقات والتاريخ للأحداث. ولعلّ قوله: (دَائِبَيْنِ) يشير إلى كونهما يسيران لا يفتران، إلى أجل مسمّى.

قال الشريف الرضيّ(رحمه الله) في قوله تعالى: (وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ): وهذه استعارة لأنّ الدائب على الحقيقة هو الإنسان الكادح في مشغله، والدائم على عمله، فلمّا كان هذان النيّران مسخّرين في طريقهما، دائبين على مسيرهما، حسن أن يوصفا بالدأب، وإن لم يوصفا بالنصب.(تلخيص البيان في مجازات القرآن:٨٢.)

الثامن والتاسع: (وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ) حيث يتعاقبان، فالنهار للسعي وراء الرزق، والليل للرّاحة والنّوم. ثمّ إنّه سبحانه قدّر أن يدخل اللّيل في النهار فتنقص مدّة النهار، وقدّر أيضاً أن يحدث العكس، كلّ ذلك لمصلحة الإنسان، وانتفاعه بطول الليل والنهار، أو بقصرهما كما يقول: (تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ).(آل عمران:٢٧.)

٣٤. (وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ):

العاشر: (وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ): أي آتاكم من كلّ ما احتجتم إليه في حياتكم، ولم تصلح أحوالكم ومعايشكم إلاّ به، ومن المعلوم أنّ السؤال كان بلسان الحال.

ثمّ إنّه سبحانه ختم الآية بقوله: (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا) فإنّ صحيفة الوجود من الثَّرى إلى الثريّا، ومن الأرض إلى المجرّات كلّها نعمه سبحانه، مرتبط بعضها ببعض. ولعلّه لأجل وجود الصلة والربط بين الجميع أفرد النعمة ولم يجمعها، ولكنّ الإنسان لا يستطيع شكر جزء قليل من هذه النّعم. قال الإمام عليّ(عليه السلام): «اَلْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي لاَ يَبْلُغُ مِدْحَتَهُ الْقَائِلُونَ، وَلاَ

يُحْصِي نَعْمَاءَهُ الْعَادُّونَ، وَلاَ يُؤَدِّي حَقَّهُ الْمُجْتَهِدُونَ». (نهج البلاغة، الخطبة١.)

وقال الإمام زين العابدين(عليه السلام): فآلاؤك جمّة ضَعُف لساني عن إحصائها، ونعماؤك كثيرة قَصُر فهمي عن إدراكها فضلاً عن استقصائها، فكيف لي بتحصيل الشكر وشكري إيّاك يفتقر إلى شكر؟ (الصحيفة السجادية: مناجاة الشاكرين.)

قال ابن أبي الحديد: وفي الأثر النبويّ: «لا أحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيتَ على نفسك». وقال الكُتّاب في ذلك ما يطول ذكره، فمن جيّد ذلك قول بعضهم:الحمد لله على نِعَمه التي منها إقدارنا على الاجتهاد في حمدها، وإن عجزنا عن إحصائها وعدّها. (شرح نهج البلاغة:١/٥٩.)

هذه هي نِعَم الله سبحانه الوافرة التي لا تُعدّ ولا تُحصى، ولا تنقطع أبداً، وأمّا حال الإنسان أمامها فالله سبحانه يقول:(إِنَّ الإِنْسَانَ) أمام تلك النِّعم العظمى (لَظَلُومٌ): أي كثير الظلم لنفسه بتعدّي حدود الله، ولغيره بغمط حقّه (كَفَّارٌ): أي شديد الكفر لنِعَم الله سبحانه، عديم الشكر لها.

الآيات: الخامسة والثلاثون إلى الحادية والأربعين(وَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا ... يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ).

(وَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ * رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ * الْحَمْدُ للهِ الذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ * رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ * رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ).

المفردات

اجنُبني: أبعِدْني.

تهوي: تتشوّق وتُسرع.

بواد: الوادي: سِفح الجبل العظيم، وقيل ما بين الجبلين.

يقوم الحساب: يقوم الخلق للحساب، ويحتمل أن يكون القيام استعارة لتحقّق الحساب فيكون من باب تشبيه الحساب بإنسان قائم، يقال: قامت الحرب على ساق، إذا قويت واشتدّت، كما يقال: قام السوق، إذا قويَ.

التفسير

تعلّقت إرادة الله الحكيمة ببناء بيت يكون مثابة للناس وحرماً آمناً تصان فيه الأموال والدماء ويقصده الناس في كلّ سنة من كلّ فج عميق، فأوحى الله سبحانه إلى إبراهيم الخليل(عليه السلام) ببناء ذلك البيت في مكّة المكرّمة، فبناه(عليه السلام) بمعونة ولده إسماعيل، فكانا يرفعان القواعد من البيت داعين الله تعالى بقبول هذا العمل. ولم يزل هذا البيت منذ بنائه إلى يومنا هذا ملتقى الموحّدين ومَهوى أفئدتهم، وقد شرّع الله سبحانه لزيارة بيته مناسك عبادية عظيمة.

ثمّ إنّ للخليل دعاءً عند بناء البيت وبعده، وهذا ما يحكيه سبحانه في هذه المجموعة من الآيات.

أمّا صلة هذه الآيات بما قبلها فيمكن أن يقال: إنّه سبحانه لمّا أخبر عن قوم قد بدّلوا نعمة الله كفراً(لاحظ: إبراهيم:٢٨.) ذكر مصداقاً واضحاً لذلك، وهو أنّه سبحانه أمر إبراهيم(عليه السلام) ببناء البيت ليكون مناراً لتوحيده سبحانه، وللطائفين والرُّكع السُّجود. ولكن بعض ذريته(عليه السلام) بدّلوا تلك النعمة المعنوية كفراً، فصار بيت التوحيد مركزاً للأصنام ومعبداً للشرك، فصاروا من مصاديق من بدّل نعمة الله كفراً.

٣٥. (وَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ):

الآية تتضمّن دعاءين وطلبين:

الدُّعاء الأوّل: طلب من الله سبحانه جعل أرض مكّة حرماً آمناً وقال:(وَإِذْ): أي اذكر يا محمد ما (قَالَ إِبْرَاهِيمُ)في دعائه وهو: (رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا) الظاهر أُريد به الأمن التشريعي لا التكويني، بشهادة وقوع حروب دامية بعد إبراهيم(عليه السلام) كما وقع مثلها بعد رحلة رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم).

الدُّعاء الثاني: صيانة نفسه وبنيه من الشرك، حيث قال:(وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ): أي أبعدْني واصرفني وبنيّ عن عبادة الأصنام. وهذا الدعاء لا ينافي عصمة إبراهيم(عليه السلام)، فالإنسان بما هو إنسان عرضة لتسرّب الشرك إلى قلبه لولا توفيق الله سبحانه، ولذلك نرى أنّ الجميع يعبدون الله تعالى بجملة واحدة ويقولون:(اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ)(الحمد:٦.)، مع أنّ الأنبياء والأولياء كلّهم على صراط مستقيم، لا يزيغون عنه قيد شعرة.

ثمّ إنّ الله تعالى قد استجاب دعاء إبراهيم في جمع من بنيه وذرّيته، لا في حقّ جميعهم. والنقص ليس في الداعي بل في المدعوّ له. وليس هذا أوّل مورد رُدّ فيه دعاء النبيّ(عليه السلام) في حقّ طائفة خاصة، بل له نظير حيث إنّ إبراهيم قال:(وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ)(الشعراء:٨٦.)، وتخصيص قوله:(وَبَنِيَّ)للطبقة الأُولى من أولاده خلاف السياق. بل النبيّ إبراهيم دعا لمطلق ولده من غير فرق بين كونهم من إسماعيل أو من إسحاق، فإنّ الابن كما يُطلق على الولد من غير واسطة، كذلك يُطلق على غيره، وقد تكرّر إطلاق بني إسرائيل على اليهود في مواضع كثيرة مع أنّهم لم يكونوا من أولاد إسرائيل بلا واسطة، حتى أنّه سبحانه وصف إبراهيم أباً للعدنانيّين وقال: (مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ).(الحج:٧٨.)

وبذلك يظهر الجواب عمّا طرحه الرازي وقال: إنّ إبراهيم(عليه السلام) دعا ربّه أن يجعل مكة آمناً، وما قَبِل الله دعاءه، لأنّ جماعة خرّبوا الكعبة وأغاروا على مكة.

ثم أجاب بأنّ الخائف كان إذا التجأ إلى مكة أمن، وكان الناس مع شدّة العداوة بينهم يتلاقَون بمكة فلا يخاف بعضهم بعضاً.(تفسير الرازي:١٩/١٣٢.)

ولا يخفى أنّ الجواب غير واف لردّ الإشكال، بل الجواب ما عرفت.

وإلى ما ذكرنا يشير السيد الطباطبائي بقوله: إنّه يسأل ربّه أن يحفظه وبنيه من عبادة الأصنام ويهديهم إلى الحقّ إن هم عرّضوا أنفسهم لذلك، وأن يفيض عليهم إن استفاضوا، لا أن يحفظهم منها سواء عرّضوا لذلك أنفسهم أم لم يعرّضوا، وأن يفيض عليهم سواء استفاضوا أم امتنعوا.(الميزان في تفسير القرآن:١٢/٧٠.)

دفع توهُّم

إنّ الشيخ محمد ناصر الدين الألباني بعدما أخرج أسانيد حديث الغدير وأذعن بصحّته، قال: فقد كان الدافع لتحرير الكلام على الحديث بيان صحّته أنّني رأيت شيخ الإسلام ابن تيمية قد ضعّف الشطر الأوّل من الحديث، وأمّا الشطر الآخر فزعم أنّه كذب.(لاحظ: مجموع الفتاوى:٤/٤١٧ـ ٤١٨.)

وهذا من مبالغاته الناتجة في تقديري من تسرّعه في تضعيف الأحاديث قبل أن يجمع طرقها ويدقّق النظر فيها. والله المستعان.

أمّا ما يذكره الشيعة في هذا الحديث وغيره أنّ النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) قال في عليّ(رضي الله عنه):«إنّه خليفتي من بعدي» فلا يصحّ بوجه من الوجوه، بل هو من أباطيلهم الكثيرة، التي دلّ الواقع التاريخي على كذبها، لأنّه لو فرض أنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) قاله، لوقع كما قال، لأنّه (وَحْيٌ يُوحى) ـ والله سبحانه لا يخلف وعده.(سلسلة الأحاديث الصحيحة:٤/٣٤٤.)

يلاحظ عليه: أنّه زعم أنّ قوله(صلى الله عليه وآله وسلم): «إنّه خليفتي من بعدي» إخبار من النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) وبما أنّه لم يقع المخبر به، فدلّ على أنّه كذب على لسان الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم)، ولكنّه غفل عن أنّه إنشاء من جانب الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) بأمر من الله سبحانه، والإنشاء لا يُتصوَّر فيه الصدق والكذب، فسواء اقتنع الناس بخلافته أم لم يقتنعوا، لا يؤثّر في أمر الإنشاء، والآيات القرآنية والأحاديث النبوية مليئة بالأمر والنهي مع أنّ كثيراً من الناس يخالفونها.

فقوله(صلى الله عليه وآله وسلم):«إنّه خليفتي من بعدي» نظير دعاء إبراهيم في حقّ أبنائه، قال تعالى: (وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ) فمخالفة الناس لا تضرّ بالدعاء.

إنّ عدم استجابة السؤال بمجرّده لا ينبئ عن غضب المسؤول على السائل، بل قد يدلّ على حبّه له، وحرصه على مصلحته، فلقد طلب نوح(عليه السلام)من الله نجاة ولده من الغرق، فأجابه المولى بقوله:(فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ)(هود:٤٦.)

وبكلام آخر: إنّ دعاء النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) لا يعبّر إلاّ عن حبّه ورغبته، وليس من شكّ أنّ الأنبياء يحبّون ويرغبون في إيمان الناس جميعاً وهدايتهم إلى الحقّ، ومع ذلك قال الله لسيد المرسلين الأعظم:(إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)(القصص:٥٦.). ولو تحقّق كلّ ما يرغب فيه الأنبياء لما وجد على ظهرها كافر ولا مجرم، ولما قاسى رسل الله من الكفّار والفجّار ما قاسوه، وبالخصوص سيّدهم وخاتمهم الذي قال: ما أُوذيَ نبيّ بمثل ما أُوذيت.(تفسير الكاشف:٤/٤٥١ـ٤٥٢.)

وهنا سؤال، وهو: الظاهر أنّ أرض مكّة يوم وردها إبراهيم(عليه السلام) مع زوجه وابنه، كانت أرضاً قاحلة كما يدل عليه قوله تعالى: (بِوَاد غَيْرِ ذِي زَرْع)(إبراهيم:٣٦.)، ولكن الظاهر من قوله: (رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا) أنّها كانت يومذاك بلداً، وفي آية أُخرى يقول: (رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا)(البقرة:١٢٦.) فكيف الجمع بين التعبيرين؟

والجواب: ربّما يقال: إنّ أرض مكة يوم وردها إبراهيم(عليه السلام) في رحلته الأُولى كانت غير مزروعة ولا معمورة ولا أحد ساكن فيها، ففي هذه الرحلة وصف مكّة بما ذكر، لكنّه كانت له رحلات أُخرى إلى هذه الأرض ليتفقد عائلته، فصارت عند ذاك بلداً حيث انتقلت إليها قبيلة جرهم بعد أن نبعت عين زمزم فصارت بلداً. وممّا يلفت إليه النظر أنّ إبراهيم سأل أوّل ما سأل أن يجعل هذا البلد بلداً آمناً، إذ في ظل الأمن يطيب العيش ويقوم السوق.

ويمكن أن يقال في الجمع بين التعبيرين: إنّه لا منافاة بين كون أرض مكّة وادياً غير ذي زرع ومع ذلك يكون بلداً عامراً، فإنّ قسماً من البلاد يُبنى في مثل هذه الأراضي التي لا ينبت فيها شيء، غير أنّه توجد فيه عوامل تجذب الناس إليه.

٣٦. (رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ):

أعاد إبراهيم(عليه السلام) النّداء وقال: (رَبِّ إِنَّهُنَّ): أي الأصنام (أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ) نسب الإضلال إلى الأصنام لوجود الصلة بين الضّلال وبينهنّ وإن لم يكنّ مضلاّت عن شعور، ولكنّهنّ صرن سبباً للإضلال سببية ناقصة.

قال الشريف الرضيّ(رحمه الله) حول هذه الآية: وهذه استعارة، لأنّ الأصنام على الحقيقة لا تضلّ أحداً، وإنّما يضلّ بها الناس لنقص العقول وغلبة الشكوك، ولكنّ الضّلال لمّا كان من أجلها جاز أن يكون منسوباً إليها، كما يقول القائل: فتنني جمال فلان وإنّما هو المفتتن به، وحسُن أن يقال ذلك لمّا كانت الفتنة من أجله.(تلخيص البيان في مجازات القرآن:٨٢.)

وليس قوله(عليه السلام) ببعيد عن حياته، فقد رأى بأُمّ عينيه كيف أنّ الأصنام التي غطّت موطنه الأوّل(بابل)، صارت سبباً لإضلال قومه، ومنهم أبوه آزر. ثم فرّع على هذا الدعاء قوله: (فَمَنْ تَبِعَنِي) باجتناب عبادة الأصنام (فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي) فأفوّض أمره إليك (فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ).

ثمّ إنّه لم يسأل المغفرة والرحمة لمن عصاه، وإنّما فوّض أمره إلى الله، فإن شاء غفر وإن لم يشأ لم يغفر، قال سبحانه في حقّ

العصاة: (إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ).(النساء:٤٨.)

٣٧. (رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ):

لمّا قام إبراهيم(عليه السلام) بتحطيم أصنام بابل، أصدر القضاة عليه الحكم بإحراقه، فلمّا نجّاه الله سبحانه منه، عزم على مفارقة قومه ليئسه من استجابتهم لدعوته، لذلك أعدّ نفسه للهجرة إلى أرض أُخرى ربّما يجد فيها أُمنيته، ولذلك خاطب قومه بعد أن أنجاه الله من شرّهم بقوله: (إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي).(الصافات:٩٩.)

فلمّا اقتضت إرادة الله بناء بيت يكون مثوى للناس وحرماً، أوحى الله تعالى إليه أن يُخرج إسماعيل وأُمّه، فقال: يا ربّ إلى أيّ مكان؟ فقال: إلى حَرَمي وأمني، وأوّل بقعة خلقتها من الأرض، وهي مكة، فأنزل الله عليه جبرئيل بالبراق فحمل هاجر وإسماعيل وإبراهيم إلى أرض مكة، ووضعه في موضع البيت.(تفسير القمّي:١/٦٩ـ ٧٠، في تفسير قوله سبحانه:(أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ...).)

ثمّ إنّ إبراهيم(عليه السلام)تركهم في هذا المكان المُقْفِر امتثالاً لأمر الله، مستودعاً إيّاهم الربّ الكريم الذي لا يضيع مَن عاش في كنف رعايته وفضله ونعمته، وهذا هو الذي يحكيه قوله تعالى:(رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ) فقوله:(مِنْ ذُرِّيَّتِي) يعني: إسماعيل(عليه السلام) وهو بعض ذرّيته. وقد وصف الأرض بالوادي لأنّها بين الجبال، كما وصفه بقوله: (غَيْرِ ذِي زَرْعٍ) لأنّ أرضه حجارة لا تصلح للنبت.

وأمّا ما هي الغاية من إنزالهم في ذلك الوادي، فهذا ممّا يدلّ عليه قوله: (رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ): أي لا يشغلهم عن إقامة الصلاة في هذه الأرض شاغل. ثمّ دعا الله تبارك وتعالى لهم بالدعاءين التاليين:

الدُّعاء الثالث: جَعْلُ هذا البلد مهوى قلوب الناس، حيث قال تعالى: (فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ): أي اجعل هذه الأرض مهوى القلوب، تميل إليها إمّا بالسكن فيه أو بحجّ البيت.

ولعلّ غرضه من هذا الدعاء أن يتوافد الزائرون، ليكون ذلك مدعاة لأُنس ذرّيته، ولتوفير متطلّبات حياتهم كما يدلّ عليه الدعاء الرابع.

الدُّعاء الرابع: (وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ) تجبى إليهم من الخارج، (لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ) لكي يشكروا الله تعالى ويعبدوه على ما أنالهم من فضله وإحسانه.

وهاهنا سؤال: لماذا جعل الله سبحانه بيته الحرام في أرض قفر لا زرع فيها ولا نبات، واقعاً في أرض جبلية؟ والجواب ينطوي في كلمات الإمام عليّ في خطبته القاصعة، قال(عليه السلام): «أَلاَ تَرَوْنَ أَنَّ اللهَ سُبْحانَهُ، اخْتَبَرَ الاَْوَّلِينَ مِنْ لَدُنْ آدَمَ صلوات الله عليه، إِلَى الاْخِرِينَ مِنْ هذَا الْعَالَمِ؛ بِأَحْجَارٍ لاَ تَضُرُّ وَلاَ تَنْفَعُ، وَلاَ تُبْصِرُ وَلاَ تَسْمَعُ، فَجَعَلَهَا بَيْتَهُ الْحَرَامَ الَّذِي جَعَلَهُ لِلنَّاسِ قِيَاماً. ثُمَّ وَضَعَهُ بِأَوْعَرِ بِقَاعِ الاَْرْضِ حَجَراً، وَأَقَلِّ نَتَائِقِ الدُّنْيَا مَدَراً(نتائق: يقال ضَيعة منتاق، أي كثيرة الرّيع، فجعل(عليه السلام) الضِّياع ذوات المَدَر التي تُثار للحرث نتائق، وقال: إنّ مكة أقلّها صلاحاً للزّرع لأنّ أرضها حجريّة.)، وَأَضْيَقِ بُطُونِ الاَْوْدِيَةِ قُطْراً، بَيْنَ جِبَال خَشِنَة، وَرِمَال دَمِثَة(دَمِثة: سهلة، وكلّما كان الرّمل أسهل كان أبعد عن أن ينبت.)، وَعُيُون وَشِلَة(الوَشَل: الماء القليل.)، وَقُرىً مُنْقَطِعَة؛ لاَ يَزْكُو بِهَا خُفٌّ، وَلاَ حَافِرٌ وَلاَ ظِلْفٌ. ثُمَّ أَمَرَ آدَمَ (عليه السلام) وَوَلَدَهُ أَنْ يَثْنُوا أَعْطَافَهُمْ نَحْوَهُ. فَصَارَ مَثَابَةً لِمُنْتَجَعِ أَسْفَارِهِمْ، وَغَايَةً لِمُلْقَى رِحَالِهِمْ. تَهْوِي إِلَيْهِ ثِمَارُ الاَْفْئِدَةِ مِنْ مَفَاوِزِ قِفَار سَحِيقَة وَمَهَاوِي فِجَاج عَمِيقَة، وَجَزَائِرِ بِحَار مُنْقَطِعَة، حَتَّى يَهُزُّوا مَنَاكِبَهُمْ ذُلُلا يُهَلِّلُونَ لِلّهِ حَوْلَهُ، وَيَرْمُلُونَ(يرملون: الرَّمَل: السّعي فوق المشي قليلاً.) عَلَى أَقْدَامِهِمْ شُعْثاً غُبْراً لَهُ. قَدْ نَبَذُوا السَّرَابِيلَ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ، وَشَوَّهُوا بِإِعْفَاءِ الشُّعُورِ مَحَاسِنَ خَلْقِهِمْ، ابْتِلاَءً عَظِيماً، وَامْتِحَاناً شَدِيداً، وَاخْتِبَاراً مُبِيناً، وَتَمْحِيصاً بَلِيغاً، جَعَلَهُ اللهُ سَبَباً لِرَحْمَتِهِ، وَ وُصْلَةً إِلَى

جَنَّتِهِ. وَلَوْ أَرَادَ سُبحانَهُ أَنْ يَضَعَ بَيْتَهُ الْحَرَامَ، وَمَشَاعِرَهُ الْعِظَامَ، بَيْنَ جَنَّات وَأَنْهَار، وَسَهْل وَقَرَار، جَمَّ الاْشْجَارِ دَانِيَ الِّثمَارِ، مُلْتَفَّ الْبُنَى، مُتَّصِلَ الْقُرَى، بَيْنَ بُرَّة سَمْرَاءَ، وَرَوْضَة خَضْرَاءَ، وَأَرْيَاف مُحْدِقَة، وَعِرَاص مُغْدِقَة، وَرِيَاض نَاضِرَة، وَطُرُق عَامِرَة، لَكَانَ قَدْ صَغُرَ قَدْرُ الْجَزَاءِ عَلَى حَسَبِ ضَعْفِ الْبَلاَءِ. وَلَوْ كَانَ الإْسَاسُ الْمَحْمُولُ عَلَيْهَا، وَالاْحْجَارُ الْمَرْفُوعُ بِهَا، بَيْنَ زُمُرُّدَة خَضْرَاءَ، وَيَاقُوتَة حَمْرَاءَ، وَنُور وَضِيَاء، لَخَفَّفَ ذلِكَ مُصَارَعَةَ الشَّكِّ فِي الصُّدُورِ، وَلَوَضَعَ مُجَاهَدَةَ إِبْلِيسَ عَنِ الْقُلُوبِ، وَلَنَفَى مُعْتَلَجَ الرَّيْبِ مِنَ النَّاسِ(معتلج الرّيب: أي اعتلاجه، والمعنى: ولَنفى اضطراب الشّكّ في القلوب.)، وَلكِنَّ اللهَ يَخْتَبِرُ عِبَادَهُ بِأَنْوَاعِ الشَّدَائِدِ، وَيَتَعَبَّدُهُمْ بِأَنْوَاعِ الْمَجَاهِدِ(المَجاهد: جمع مَجهَدة، وهي المشقة.)، وَيَبْتَلِيهِمْ بِضُرُوبِ الْمَكَارِهِ، إِخْرَاجاً لِلتَّكَبُّرِ مِنْ قُلُوبِهِمْ، وَ إِسْكَاناً لِلتَّذَلُّلِ فِي نُفُوسِهِمْ، وَلِيَجْعَلَ ذلِكَ أَبْوَاباً فُتُحاً إِلَى فَضْلِهِ، وَ أَسْبَاباً ذُلُلا لِعَفْوِهِ».(نهج البلاغة: الخطبة ١٩٢ (وتسمّى القاصعة). وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد:١٣/١٥٨ـ١٦١.)

٣٨. (رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْ شَيْء فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ):

يعترف إبراهيم(عليه السلام) بأنّ الله يعلم ما يبطنه الخلق وما يظهرونه، يقول:

(رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ)ثم ذكر ما هو السبب لعلمه سبحانه بما خفي وما ظهر بقوله:(وَمَا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْ شَيْء فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ)فتعلم أحوالنا وتعلم كلّ شيء. ويحتمل أن لا يراد بالسماء والأرض ما يتبادر من معناهما اللّغوي، بل يراد بالسماء ما خفيَ عن حسّنا، وبالأرض ما ظهر إلينا.

وأمّا الصلة بين هذه الآية وما تقدّم، فيبيّنها صديقنا الشيخ مغنية(رحمه الله)، بقوله: بعد أن سأل إبراهيم(عليه السلام)الله تعالى أن يتوافد الناس إلى بيته يحملون لأهله الخبز والفاكهة ليعبدوا الله حقّ عبادته بقوة ونشاط، بعد هذا قال لله: ما سؤالي وطلبي إلاّ تضرعاً لك وخشوعاً، وإلاّ اعترافاً بأنّك الخالق الرازق، أمّا حاجتنا ومصالحنا فأنت أعلم بها منّا، سألناها منك، أو لم نسأل... فقول إبراهيم:(وَمَا نُعْلِنُ) معناه ما نسأل ونطلب، ومعنى: (وَمَا يَخْفَى) ما لم نسأل ونطلب.(التفسير الكاشف:٤/٤٥٣.)

٣٩. (الْحَمْدُ للهِ الذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ):

لقد وهَب سبحانه لإبراهيم(عليه السلام) ولدين في إبّان الكبَر، وذلك بعد أن انقطعت عنه الأسباب الطبيعية المؤدّية إلى الإنجاب. قال ابن عباس: وُلد له إسماعيل وهو ابن تسع وتسعين سنة، ووُلد له إسحاق وهو ابن مئة واثنتي عشرة سنة، وقيل غير ذلك(مجمع البيان: ٦ / ٩٦.)، وهنا توجّه(عليه السلام) إلى ربّه حامداً شاكراً له هاتين النّعمتين العظيمتين، وقال: (الْحَمْدُ للهِ الذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ) ثمّ علّل ما وُهب به بقوله: (إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ): أي سمع دعائي واستجابه فوهب لي على الكبر ما طلبته.

والظاهر أنّه ذكر ما وهَب له من الولدين البارّين ليكون كالتقدمة لما يأتي في الآية الثانية، حيث يطلب فيها من ربّه أن يجعله وذرّيته مقيمين للصلاة، قال:

٤٠. (رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ):

الدعاء الخامس: التوفيق لإقامة الصلاة

إنّ النبيّ إبراهيم(عليه السلام) طلب من الله سبحانه في حقّ ذرّيته تارة بقوله:(وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ)وأُخرى ما في هذه الآية، يقول:(رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ) في المستقبل، مواظباً عليها، مؤدّياً لها على وجهها (وَمِنْ ذُرِّيَّتِي) يرجّح أن تكون (مِنْ) هنا ابتدائية لا تبعيضية، لأنّه(عليه السلام) لا يحبُّ لغيره إلاّ ما يحبُّ لنفسه، فلو أحبَّ لنفسه أن يكون مقيماً للصلاة، فلازم ذلك أن يحبّ للغير ـ بلا استثناء ـ أن يكون كذلك، ولا مانع من أن يطلب لكلّ ذرّيته، ولا يستجاب دعاؤه في بعضهم، تقصيراً منهم.

وفي نهاية الآية يقول: (رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ): أي وتقبّل دعائي، فإذا قَبِل سبحانه دعاءه، كان ذلك إذناً منه سبحانه بإجابة ما يدعوه به. وسيأتي دعاؤه السادس في الآية التالية.

٤١. (رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ):

الدعاء السادس: طلب المغفرة له ولوالديه وللمؤمنين

سأل الله تعالى في هذه الآية المغفرة لنفسه أوّلاً، ولوالديه ثانياً، وللمؤمنين ثالثاً، والأخير شامل لذرّيته، فعلى هذا يكون قد دعا لهم ثلاث مرّات:

١. قوله: (وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ).

٢. قوله: (رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي).

٣. قوله: (رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ).

وأمّا ظرف المغفرة فهو (يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ)، شبّه اشتداد الحساب وقوّته بحالة الإنسان القائم على عمل مهمّ، برأي جادّ، ونظيره قولهم: قامت الحرب على ساقها، ونحوه.

بقي هنا أمران:

الأوّل: إنّ إبراهيم الخليل(عليه السلام) يتفنّن في دعواته، فتارة يضيف الربَّ إلى نفسه ويقول:(رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا)، وأُخرى يضيفه إلى نفسه وغيره، ويقول: (رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي)، فهل هو من باب التفنّن في التعبير، أو فيه نكتة؟ الأمر بحاجة إلى تأمّل.

الثاني: إنّ إبراهيم(عليه السلام) يدعو في أُخريات عمره في حقّ والديه، ويقول: (رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ)، وهذا يدلّ على أنّ والديه كانا مؤمنين. ونظير هذا الدعاء دعاء نوح(عليه السلام)، قال: (رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَارًا).(نوح: ٢٨)

وهذا يدلّ على أنّ آزر لم يكن لإبراهيم والداً، بشهادة أنّه قد تبرّأ منه إبّان شبابه، حيث قال: (وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَنْ مَوْعِدَة وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ للهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ).(التوبة:١١٤)

وهذا يعني أنّ آزر الذي تبرّأ منه إبّان شبابه بعد تماديه في الشرك، غير من دعا له في أُخريات عمره بالمغفرة، ولذلك عبّر عن آزر بالأب الذي يطلق أيضاً على العمّ والخال، بينما عبّر في المقام بالوالد الذي لا يستعمل إلاّ لمن ولد منه. وقد مرّ تفصيل ذلك في سورة التوبة، وسيوافيك في المستقبل(سورة الممتحنة:الآية٤) إن شاء الله تعالى.

الآيات: الثانية والأربعون إلى السابعة والأربعين(وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلاً ...ـنَّ اللهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَام).

(وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْم تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُوسِهِمْ لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ * وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَل قَرِيب نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَال * وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ * وَ قَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ * فَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَام).

المفردات

تَشْخَص: شخوص البصر: أن تبقى العين مفتوحة، لا تكاد تطرف من شدّة الهول.

مُهطعين: الإهطاع: مدّ العنق للاستماع والرؤية، أو الإسراع في المشي. والأنسب بمفهوم الآية هو الأوّل.

مُقنعي: من الإقناع بمعنى الرفع، والمعنى: رافعي رؤوسهم.

لا يرتدّ: لا يرجع.

هواء: الهواء(لغةً): المجوَّف الخالي، ومنه قول حسّان بن ثابت:

ألا أبلغْ أبا سفيان عنّي *** فأنت مجوّف نَخِبٌ هواءُ

من زوال: الزّوال: الانتقال من المكان.

ضربنا لكم الأمثال: بيّنّا لكم حالهم.

مكروا: المكر: تبييت فعل السوء بالغير وإضماره، وهو آية عجز الماكر.

عزيز: لا يُغلَب.

التفسير

لمّا ذكر سبحانه، في الآيات السابقة، الظالمين والمشركين المناوئين للرُّسل، وأشار إلى مصيرهم بقوله: (فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ)، جاءت هذه المجموعة من الآيات لتبيّن أنّ مصيرهم إلى النار سيكون مقروناً بالذُّلّ والخوف الشديد، فقال:

٤٢. (وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ):

أوصاف الظالمين يوم القيامة

ربّما يرى الجاهل أنّ الظالمين والمشركين يتمتّعون في الحياة الدنيا ويعيشون فيها عيشة رغيدة فيتوهَّم أنّه سبحانه غافل عن أعمالهم وإلاّ أخذ على أيديهم، فجاء البيان القرآني ليسلّي النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)بأنّ الله تعالى ليس بغافل عن الظالمين لمجرّد أنّه لم يعاقبهم في الدنيا على ما يرتكبون من جرائم، كما قال: (وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ)والخطاب للنبيّ لتسليته مع أنّه ليس هناك احتمال أن يعتريه(صلى الله عليه وآله وسلم) هذا الحسبان. ثمّ هو بعد هذا فيه تسلية للمؤمنين، ويتضمّن أيضاً تهديداً لغيرهم، وأنّه سبحانه لا يهملهم، ولكن يُمهلهم، كما قال: (إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ): أي يتركهم (لِيَوْمٍ) رهيب وُصف بصفات مرعبة ورهيبة حاصلها، أنّ المجرمين في يوم القيامة سيكونون في حالة تبقى فيها عيونهم مفتوحة خوفاً وفزعاً، مادّين أعناقهم، ورافعين رؤوسهم لا يرتدّ لهم طرف، بقلوب فزعة خاوية من كل وعي وإدراك. ويدلّ على ما ذكرنا الصفات التي تذكرها الآية التي نحن في صددها والآية التي بعدها.

الأُولى: (تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ): أي تنفتح وترتفع ولاتطرف. وهذا يدلّ على الحيرة والدهشة وإحاطة الخوف.

٤٣. (مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُوسِهِمْ لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ):

الصفة الثانية: (مُهْطِعِينَ): أي مادّين أعناقهم بذلّ وخشوع. وربّما تفسّر بـ«مسرعين». والأوّل هو الأنسب.

الصفة الثالثة: (مُقْنِعِي رُؤُوسِهِمْ): أي رافعي رؤوسهم، فإنّ الإنسان إذا شاهد البلاء الشديد، يقف أمامه شاخصاً بصره، خائفاً، مُجلّلاً بالذلّ والهوان، رافعاً رأسه لا يتحرّك ولا يتطأطأ.

الصفة الرابعة: (لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ): أي يدوم ذلك الشخوص، فقوله: (تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ) لا يفيد الاستمرار، ولذلك أعقبه بقوله: (لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ) إشارة إلى استمرار هذه الحالة.

الصفة الخامسة: (وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ): أي خالية من كلّ إدراك وشعور لشدّة ما يَرون من الأهوال، فكأنّها ليست بشيء. فأُريد من «الهواء» المجوّف الخالي، لا الهواء المصطلح.

٤٤. (وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ):

تمنّي الظالمين التأخير إلى أجل قريب

يظهر من بعض الآيات أنّ الظالمين يوم القيامة يطلبون الرجوع إلى الحياة الدنيا لتصحيح مسيرتهم، كقوله تعالى:(وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ).(الأنعام:٢٧.)

ويظهر من بعض الآيات أيضاً أنّهم يتمنّون إعادتهم للحياة في ساعة الموت كما يحكي عنهم قوله تعالى: (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِي مَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ).(المؤمنون:٩٩ـ ١٠٠.)

فهل أنّ لفظ «اليوم» الوارد في الآية هو يوم القيامة، أو اليوم الذي يرون فيه ابتداء نزول العذاب بهم، والذي يعبَّر عنه بعذاب الاستئصال؟

الظاهر هو الثاني لوجود قرائن في سياق الآيات التالية:

١. قد تقدّم ذكر يوم القيامة في الآية السابقة، حيث قال:(لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ)، وسيأتي ذكره أيضاً في قوله: (يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ)(إبراهيم:٤٨.)

وهذا يقتضي حمل اليوم في الآية على الحياة الدنيوية.

٢. قوله تعالى على لسانهم: (فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ)فإنّه ظاهر في أنّ الظالمين يستمهلون مدّة قصيرة تضاف إلى عمرهم في الدنيا حتى يتداركوا ما فات منهم بظلمهم، وهذا التعبير يناسب الحياة الدنيوية .

وعلى كلّ تقدير، فالظالمون يطلبون التدارك مع الحسرة عارفين عالمين بعدم استجابة دعائهم، ومع ذلك فالله سبحانه يجيبهم موبِّخاً ومقرِّعاً لكن بانقلاب السياق من الحكاية إلى الخطاب، ويقول: (أَوَ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ): أي حلفتم من قبل نزول العذاب ما لكم من زوال بما عندكم من القوة والسّطوة؟ وقيل في معناه: ألم تقسموا وأنتم في الحياة الدنيا أنّه لا انتقال من الدنيا إلى الآخرة، فالآن ترون خلاف ما كنتم تقولون. هذا إذا كان المراد بالعذاب الذي طلبوا تأخيره، هو عذاب الآخرة، لا عذاب الاستئصال في الدنيا.

٤٥. (وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ):

تتضمّن الآية توبيخاً بعد توبيخ لهؤلاء المغترّين بقوّتهم وسطوتهم، يقول سبحانه: (وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ) بالكفر والعصيان والبغي، إذ خلت منهم الديار وصرتم أنتم خلفاء فيها، ومع ذلك تحلفون وتقولون ـ كما مرّ ـ : (مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ)، (وَتَبَيَّنَ لَكُمْ)بمشاهدة آثارهم الدارسة، وبما بلغكم من أخبارهم (كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ): أي استأصلناهم (وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ): أي وصفنا حال مَن تقدّم عليكم من الظالمين للعبرة. وكان العرب يمرّون على ديار ثمود في رحلتهم إلى الشام، ويمرّون على ديار عاد في رحلتهم إلى اليمن.

وكان ذلك كافياً في الاتّعاظ بما نزل على الظالمين من قبلهم من العذاب.

أين القرون الماضيةْ *** تركوا المنازلَ خاليةْ

دَرَجوا فما أبقت صُرو *** فُ الدهر منهم باقيةْ

لله دَرُّ جماجم *** تحت الجنادل ثاويةْ

ولقد عَتَوا زمناً كما *** نَهُمُ السباعُ العاديةْ

في نعمة وغضارة *** وسلامة ورفاهيهْ

قد أصبحوا في برزخ *** ومحلّة مُتراخيهْ

يا دارُ! ما لعقولنا *** مسرورةً بك، راضيهْ

ما نرعوي للحادثا *** تِ، ولا الخطوب الجاريهْ

والله لا يَخفى عليـ *** ـه من الخلائق خافيهْ[1]

[1]من قصيدة طويلة لأبي العتاهية. انظر ديوانه:٤٣٦ـ٤٣٨.

٤٦. (وَ قَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ):

تذكر الآية أمرين:

١. أنّ المشركين دبّروا الشرّ في كلّ نواحي حياة الأنبياء والمؤمنين، وأضمروا إدخال الشرّ عليهم، والله سبحانه يجيب عنه بقوله: (وَعِنْدَ اللهِ مَكْرُهُمْ): أي إنّ الله محيط بهم وبمكرهم فإنّه محيط بعلمه وقدرته عليهم، فإذا كان الله سبحانه هو المرسِل والباعث للأنبياء فسيصونهم من مكرهم، إذ لا تخفى عليه خفايا أُمورهم.

٢. (وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ) الفقرة بمنزلة تحقير مكرهم بأنّ مكرهم لم يكن من القوة والتأثير ليؤدّي إلى زوال الجبال. واستظهر السيد الطباطبائي أنّ المراد بالجبال الآيات والمعجزات، والمعنى: وما كان مكرهم لتبطل به آيات الله ومعجزاته التي هي كالجبال الراسيات التي لا تزول عن مكانها.(الميزان في تفسير القرآن:١٢/٨٥.) وعلى هذا فلفظة «إن» في قوله:(وَإِنْ كَانَ) نافية، لا شرطية ولا وصلية.(الميزان في تفسير القرآن:١٢/٨٤ ونسب الثانية إلى قول. والتأمّل في الآية يثبت بأنّها نافية بصدد تحقير مكرهم لا تكبيره. وعليها أكثر المفسّرين.)

٤٧. (فَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَام):

الآية تأكيد لمضمون ما مرّ من قوله سبحانه:(وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ) فيقول: أي لا تظنّنّ الله عزّ اسمه مخلفاً رسله ما وعدهم به من النصر والظفر بالكفّار، وقد قضى الله تعالى بأن تكون الغَلَبة له ولرسله كما قال: (كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي).(المجادلة:٢١.)

قوله تعالى:(إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَام): أي لا يدع الظالم يفلت ولا يدع الماكر ينجو. والتعبير عن جزاء الماكر بالانتقام من باب المشاكلة، وقد جاء قوله: (ذُو انْتِقَام)بعد كلمة «العزيز» للدلالة على أنّه من فروع العزّة.

الآيات: الثامنة والأربعون إلى آخر السورة (يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ ... وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ).

(يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا للهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ * وَتَرى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ * سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَان وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ * لِيَجْزِيَ اللهُ كُلَّ نَفْس مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ * هَذَا بَلاَغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ).

المفردات

تُبَدَّل: التبديل: التغيير في الشيء، إمّا في صورته أو في جوهره، والظاهر أنّ المراد هو إبطال النظام السائد في الحياة الدنيا وإيجاد نظام آخر فتستبدل الأرض والسماوات إلى أرض وسماوات أُخرى.

مقرّنين: مشدودين.

الأصفاد: جمع صَفَد، وهو القَيد.

سرابيلهم: السرابيل: القمصان أو كلّ ما يُلبس، واحدها سِربال.

قَطِران: زيت خاصّ مُنتن يُتَّخذ للتداوي من الجرب إذا أصاب الإبل، وهو شديد الحرارة فيؤلم الجلد الواقع هو عليه.

تَغشى: تُغطّي.

بلاغ: البلاغ: التبليغ.

التفسير

٤٨. (يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا للهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ):

وصف الأرض والسماوات يوم القيامة

لمّا تقدّم في قوله سبحانه أنّ الظالمين سيجازَون على أعمالهم في يوم تشخص فيه الأبصار، جاء في هذه المجموعة وصف هذا اليوم، والظاهر أنّ اللاّم في (الأَرْض) للأرض المعهودة، وهكذا السماوات، فيدلّ على أنّ هذه الأرض والسماوات تبدَّلان إلى غيرهما.

وأمّا ما هي طبيعة الأرض الجديدة وطبيعة السماوات فهي غير معلومة لنا، غير أنّ قسماً من السور بيّن حال الأرض وأنّها تصبح مستوية ملساء بعد أن تُنسف جبالها وتُفجّر بحارها، وكذلك حال السماء وأنّها تنشقّ وتتناثر كواكبها، قال سبحانه:(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا)(سورة طه:١٠٥ـ١٠٦.)، وقال سبحانه: (إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ * وَ إِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ).(الانفطار:١ـ٣.)

ويظهر ما ذكرناه من الشريف الرضيّ حيث قال حول الآية: وهذه استعارة، لأنّ المراد بها على بعض الأقوال تغيير هيئة الأرض والسماء إلى هيئة غيرها وصورة مخالفة لصورتها، وإن كانتا جميعاً باقيتي الأعيان، ثابتتي الأوضاع، وهذا معروف في كلامهم أن يقولوا للرجل إذا قبح بعد شارته أو شحب بعد نضارته: قد جئتنا بغير الوجه الذي نعرفه، وليس أنت الرجل الذي كنّا نشاهده، فالمراد أنّ الأعراض تغايرت، والهيئات تغيّرت، والعين قائمة بحالها وداعية إلى نفسها.(تلخيص البيان في مجازات القرآن:٨٥.)

هذا، وقيلت في معنى تبدّل الأرض والسماوات وجوه لا تستند إلى دليل قاطع، نقلها الطبرسي في تفسيره، فمن أراد فليرجع إليه.(مجمع البيان:٦/١٠٧.)

قوله تعالى: (وَبَرَزُوا للهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ) الظاهر أنّ المراد أنّ الناس (بَرَزوا) بمعنى ظهروا من قبورهم (لِلّه) واختتم الآية بقوله:(الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ)للدلالة على سقوط جميع العلل والأسباب، وأنّ الحاكم في ذلك اليوم هو الله الغالب الذي لا يقف أمامه كيد الجبابرة.

وعلى ما ذكرنا فالمراد بروز الخلائق من أجداثهم التي في بطون الأرض. وجوّز بعضهم أن يكون المراد ظهورهم بأعمالهم التي كانوا يعملونها سرّاً، ويزعمون أنّها لا تظهر.(نقله السيد الآلوسي في روح المعاني:١٣/٢٥٥، واستظهر أنّ المراد ظهورهم من أجداثهم.) وهو بعيد. وهذه الفقرة بمنزلة قوله تعالى:(يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ).(الزلزال:٦.)

٤٩ و ٥٠. (وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ * سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ):

وصف تعذيب المجرمين يوم القيامة

الظاهر أنّ البارزين يوم القيامة هم عامّة الخلائق من غير فرق بين المؤمن والمجرم، لكن الآية تصف حال المجرمين عند بروزهم لله الواحد القهّار بالأُمور التالية:

١. (وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ) الذين يرتكبون المعاصي والآثام، من الكفر والجحود، والبغي والعدوان على الحقّ وأهله (يَوْمَئِذٍ): أي يوم القيامة (مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ)، يُقرن بعضهم إلى بعض في القيود، ويُضمّ كلٌّ إلى مشاركه في الكفر والعمل. ويحتمل أن يُراد: قرنت

أيديهم بها إلى أعناقهم.

٢. (سَرَابِيلُهُمْ): أي قُمصهم (مِنْ قَطِرَانٍ) وهو ما تُطلى به الإبل إذا أصابها الجَرَب.

وعلى هذا فتجتمع عليهم ثلاثة ألوان من العذاب:

أ. لذع القطران وحرقته.

ب. اشتعال النار في الجلود.

ج. اللون الأسود الموحش ونتن الريح.(تفسير المراغي:٥/١٦٨.)

٣. (وَتَغْشَى): أي تغطّي (وُجُوهَهُمُ النَّارُ) وتجلّلها. وبما أنّ الوجوه أعزُّ الأعضاء ذكر غَشْيَ النار وتغطيتَها لها. وربّما يشير إلى ما ذكر قوله سبحانه: (أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ).(الزمر:٢٤.)

٥١. (لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ):

قوله:(لِيَجْزِيَ اللَّهُ)تعليل لقوله:(وَبَرَزُوا لِلَّهِ) فالغاية من هذا البروز إثابة كلّ نفس بما كسبت من خير أو شرّ، كما يقول: (لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ) فيجزي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، وهل الجزاء ـ خيراً كان أو شرّاً ـ هو نفس العمل الذي كسبه في الحياة الدنيا، غير أنّه يظهر في الآخرة بثوبه الأُخروي؟ أو هو جزاء في مقابل ما عمل وليس نفسه؟ ولا بُعد في أن يكون الجزاء على قسمين: حقيقي وجَعلي، ولكلٍّ شواهد في القرآن الكريم، قال تعالى في مَن اكتنز الذهب والفضة ولا ينفقهما على الفقراء:(يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ)(التوبة:٣٥.) فإنّ الضمير في قوله: (يُحْمَى عَلَيْهَا)يرجع إلى الذهب والفضة وبهما تُكوى جباه المكتنزين.

قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ): أي سريع المجازاة. وفيه إيماء إلى أنّ الجزاء واقع من غير فصل ومهل إلاّ أنّ ظرف ظهوره هو ذلك اليوم لا غير.(الميزان في تفسير القرآن:١٢/٩٠.)

٥٢. (هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ):

ختم سبحانه هذه السورة بمثل ما ابتدأ به، حيث قال في صدرها: (لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)لكن بتفاوت خاصّ إلاّ أنّ الفقرة في آيتنا هذه أقوى إعلاناً في تبليغ البشر كافّة حيث يقول: (هَذَا) القرآن (بَلَاغٌ لِلنَّاسِ): أي أنّ الله سبحانه أبلغ الناس بواجباتهم وتكاليفهم وأتمّ الحجة عليهم، وذلك لغاية (وَلِيُنْذَرُوا بِهِ): أي وليخافوا عقوبة الله، (وَلِيَعْلَمُوا)أنّ من أبلغ (أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ) لا شريك له في الخلق والتدبير والعبادة (وَلِيَذَّكَّرَ): أي يتّعظ (أُولُو الْأَلْبَابِ): أي أصحاب العقول الحصيفة، فأهل النظر والاعتبار يتّعظون بتلك الآيات. وعلى هذا فللبلاغ الوارد في الآية غايات أربع:

١. إتمام الحجّة: (بَلَاغٌ لِلنَّاسِ).

٢. تخويف الناس عقاب الله: (وَلِيُنْذَرُوا بِهِ).

٣. هداية العقول إلى التوحيد في عامّة الجوانب:(وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ).

٤. العودة إلى الفطرة التي هي حجّة باطنة وأساس الرسالات الإلهية: (وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ).

طرح سؤال وإجابة

بقي هنا سؤال وهو: أنّ تعذيب المجرمين بما جاء في الآية من كونهم مقرّنين في الأصفاد، وقمصانهم من قطران، وتغشى وجوههم النار، لا ينسجم مع حلم الله ورحمته، وجوده ورأفته.

وقد رأيت في أحد الكتب أنّه نقل جواباً عن بعضهم من أنّ هذه الألوان من العذاب ليست على وجه الحقيقة وإنّما يُراد بها تخويف

الناس مستشهداً بقوله تعالى: (ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللهُ بِهِ عِبَادَهُ).(الزمر:١٦.)

يلاحظ عليه: أنّ ما استظهره من الآية ساقط جدّاً، كيف والله سبحانه يقول: (إِنَّ اللهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ)(آل عمران:٩.) ويقول: (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ)(الحج:٤٧.) فالوعد في الآية يراد به الوعيد بقرينة قوله بالعذاب، وسيوافيك توضيح الآية عند تفسير سورة الزمر.

والجواب: إنّ الجرم له أنواع وأقسام ومراتب فمنه الكبير والأكبر، والصغير والأصغر، وهذا النوع من العذاب ليس لكلّ مجرم ومذنب وإنّما هو لطبقة خاصّة، وهم الذين يحاربون الحقّ ويكتمونه وهم يعلمون، وأعظم منهم جرماً تجّار الحروب الذين أعدّوا لسفك الدماء وتدمير الحياة الأسلحةَ الجهنّميّة، كالقنابل الذرّية والهيدروجينية والمواد السامّة التي تقتل المئات بل والملايين في دقائق معدودات. إنّ أية عقوبة يعاقب بها السفّاحون فهي دون ما يستحقّون، وليست السلاسل والأصفاد وسرابيل القطران والنيران التي تغشى الوجوه بشيء في حيال تدمير البلاد وتشريد العباد وتشويههم وأسرهم وتقتيلهم بمئات الأُلوف.(التفسير الكاشف:٤/٤٦٠.)

هذا ما ذكره صديقنا الشيخ مغنية(رحمه الله) حيث إنّه يرجع إلى ما في عصره ولو كان حيّاً ورأى ما ترتكبه الزُّمر التكفيريّة الوهابيّة الخارجة عن الإسلام لاسترسل في الكلام أكثر، فهؤلاء المجرمون الإرهابيّون يقتلون الأطفال والنساء والشيوخ، وينتقمون بوحشية من كلّ من ليس على منهجهم بالإحراق بالنار، والتفنّن في الذّبح وقطع الرؤوس، بحجج واهية. أعاذنا الله والمسلمين جميعاً من دسائس قوى الاستكبار ولا سيما أمريكا والكيان الإسرائيليّ فليست هذه الزُّمر إلاّ دسيسة من دسائسهم وحيلة من حيلهم، فهم المسؤولون ـ وبالتنسيق مع بعض الدول الإقليمية ـ عن تأسيس هذه التنظيمات الإرهابيّة، وتدريب عناصرها ا لمعبّأة بالحقد والكراهية على القتل وإراقة الدماء ونشر الخراب والدمار في بلاد المسلمين ليعيشوا هم في أمن وسلام.

ونحن نشكر الله تعالى، إذ أخذ وجود هذه التنظيمات الإجرامية ينحسر، في هذه الأيام، بدرجة كبيرة في كلٍّ من العراق وسوريا، بفضل بسالة المقاتلين من أبناء القوات المسلّحة والحشد الشعبي العراقي، وحزب الله اللبناني وغيرهم(وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ).(الشعراء:٢٢٧.)

تمّ تفسير سورة إبراهيم

١٥سورة الحجر

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ (١) رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ (٢) ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٣) وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ (٤) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (٥) وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (٦) لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧) مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ (٨) إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ (١٠) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (١١) كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (١٢) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ (١٥) وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦) وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (١٧) إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ (١٨) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ (١٩) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (٢٠) وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢١) وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (٢٢) وَإِنَّا

لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ (٢٣) وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ (٢٤) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ
إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٢٥) وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٦) وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ (٢٧) وَإِذْ
قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩)
فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠) إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣١) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ
(٣٢) قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٣٣) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٣٤) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ
إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٣٥) قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٣٧) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٣٨) قَالَ رَبِّ بِمَا
أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (٤١) إِنَّ
عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (٤٢) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ
مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ (٤٤) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٤٥) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ (٤٦) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى
سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (٤٧) لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ (٤٨) نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ
الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (٥٠) وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (٥١) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ (٥٢) قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا
نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٥٣) قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (٥٤) قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ (٥٥)
قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (٥٦) قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٥٧) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (٥٨) إِلَّا
آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٩) إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ (٦٠) فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (٦١) قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ
مُنْكَرُونَ (٦٢) قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ (٦٣) وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٦٤) فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ
أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (٦٥) وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ (٦٦) وَجَاءَ
أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (٦٧) قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ (٦٨) وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ (٦٩) قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ
(٧٠) قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (٧١) لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (٧٣) فَجَعَلْنَا
عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ (٧٤) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥) وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ (٧٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ (٧٨) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ (٧٩) وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ
الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (٨٠) وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٨١) وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ (٨٢) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ
مُصْبِحِينَ (٨٣) فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٤) وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ
فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (٨٥) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨٦) وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (٨٧) لَا تَمُدَّنَّ
عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (٨٨) وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (٨٩) كَمَا أَنْزَلْنَا
عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (٩١) فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣) فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ
وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٩٤) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٩٦) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ
يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (٩٨) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (٩٩)

خصائص السورة

تسمية السورة

سُمّيت السورة في المصاحف بسورة «الحِجْر» لوروده في قوله سبحانه:(وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ)(الحجر:٨٠) ولم يرد

هذا الاسم (الحجر) للبلاد المعروفة في الذكر الحكيم إلاّ في هذه السورة، وأُريد به بلاد قبيلة ثمود الذين كذّبوا الرُّسل. ومن خصائص هذه السورة ورود لفظة (رُبَمَا)في الآية الثانية منها ولم ترد اللفظة في غير هذه السورة.

عدد آياتها ومحلّ نزولها

عدد آياتها تسع وتسعون آية بالإجماع. والسورة مكّية بشهادة مضامينها حيث تضمّنت استهزاء المشركين بالنبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) ورميه بالجنون وأنّ القرآن أشبه بكلام المجانين، وفي الوقت نفسه تأمر النبيّ بالصفح عنهم.

وممّا يشهد لمكيّتها قوله سبحانه: (فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ) حيث أمر النبيَّ بالجهر بالدعوة، ومن المعلوم أنّ النبيّ إنّما صدع برسالته بعد مضيّ ثلاث سنين من بعثته.

نعم، ربّما يستثنى منها بعض الآيات ويتصوّر أنّها مدنية مثل الآيات التالية:

قوله تعالى: (وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ).(الحجر:٨٧.) وقوله: (كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ * اَلَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ)(الحجر:٩٠ـ ٩١.)، وسيوافيك الحال فيها.

أغراض السورة

افتتحت السورة بالحروف المقطّعة، فقال سبحانه:(الر)، ولعلّ الافتتاح بها إشارة إلى إعجاز القرآن ـ كما سيوافيك ـ ثم أشار إلى آيات الكتاب وقال:(تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ) وعطف عليه قوله:(وَقُرْآن مُبِين)وكأنّ الافتتاح بما ذُكر يشير إلى أنّ المحور الذي تدور عليه آيات السورة هو تنزيه الكتاب عن التّهم الظالمة التي رماه بها المشركون، ومنها: أنّه هذيان مجنون؛ وفي الوقت ذاته تستهدف السورة تطييب نفس النبيّ الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم)وتدعوه إلى الصفح عن هؤلاء. ثمّ اقتضت المناسبة إنذار المنذَرين بالهلاك، وذكر البعث ودلائله، وذكر المصير الأسود الذي صار إليه قوم لوط وأصحاب الأيكة وأصحاب الحِجْر، والذي يجمع الكلّ هو موقف التكذيب والعناد من دعوة أنبيائهم.

الآيات التسع الأُولى(الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآن مُبِين *... وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ).

(الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآن مُبِين * رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ * ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَة إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ * مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّة أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ * وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الذي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ * لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلاَئِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * مَا نُنَزِّلُ الْمَلاَئِكَةَ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ * إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ).

المفردات

الكتاب: علَم بالغلَبة للقرآن النازل على الرسول الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم).

مبين: من أبان يَبين بالمعنى اللازم، أي الظاهر لا المُظهِر.

رُبَما: (بضمّ الراء وتخفيف الباء)(وهو بتشديد الباء أيضاً، وكلاهما لغتان معروفتان.): حرف يدلّ على أنّ مابعده قليل الحصول، وقد يستعمل في غير القلّة كما في المقام، فإنّ المناسب هو الكثرة، نظير قول الإمام عليّ(عليه السلام):«ربّما تال للقرآن والقرآن يلعنه».

ذَرْهم: اتركهم، مثل قوله: (وَ ذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا)(الأنعام:٧٠.) ولم يرد استعماله في الماضي بل يستعمل دائماً بصورة المضارع والأمر، نظير كلمة يدع. وفي التصريف للزّنجاني: وأماتوا ماضي «يذر» و«يدع».

يُلههم: لَهِيَ عنه: غفل عنه، وترك ذكرَه، وانصرف عنه.

الأمل: قيل: هو واسطة بين الرجاء والطمع.

كتاب معلوم: القدر المحدود، شبّه بالكتاب لأنّه مثله لا يقبل الزيادة والنقيصة.

الذِّكر: القرآن المجيد. لأنّه يذكر الله تعالى ويوم القيامة وما للناس من تكاليف.

التفسير

١. (الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ):

(الر) من الحروف المقطّعة في القرآن التي تقدّمت الإشارة إلى المراد بها في سورة الرّعد، وسيوافيك الحديث عنها بتفصيل عند تفسير سورة الأحقاف، فانتظر.

(تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ) أشار سبحانه إلى الآيات بالإشارة البعيدة تكريماً وتعظيماً. ويظهر أنّ لفظ الكتاب كان قد صار علماً بالغلبة للقرآن عند نزول السورة، فإذا أُطلق لا يتبادر منه إلاّ القرآن الكريم، لا التوراة ولا الإنجيل.

قوله:(وَقُرْآنٍ مُبِينٍ) عطف على (الْكِتَابِ). وقد ساغ ذلك، وإن كان المراد واحداً، للتعدّد اللّفظي والتغاير فيه، ولزيادة صفة في المعطوف وهي (مُبِين).

ثمّ إنّه سبحانه قد افتتح سورة النمل بنفس ما افتتح به هذه السورة، ولكن باختلاف يسير، حيث قال:(طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ)(النمل:١).

فقدّم القرآن وعرّفه، وأخّر الكتاب وجرّده عن اللاّم.

وقد أجاب عنه صاحب الكشّاف قائلاً: لا فرق بينهما إلاّ بين المعطوف والمعطوف عليه في التقدّم والتأخّر.(تفسير الكشّاف: ٤٤٢/٢).

قلت: إنّ الفرق بين الآيتين لا ينحصر في التقدّم والتأخّر بل يفترقان بالتعريف والتنكير، حيث جاء الكتاب معرَّفاً والقرآن منكَّراً في سورتنا بخلاف سورة النمل، فقد جاء اللفظان فيها على عكس ما ورد في هذه السورة .

أمّا الاختلاف في التقديم والتأخير، فسيأتي الجواب عنه في تفسير سورة النّمل إن شاء الله تعالى.

وأمّا ما هو الوجه لتعريف الكتاب وتنكير القرآن في المقام على عكس ما في سورة النمل، فيمكن أن يقال: إنّ في كلّ من التعريف والتنكير نوعاً من الفخامة، أمّا التعريف فقوله:(آيَاتُ الْكِتَابِ): أي الكتاب الكامل الحقيق باختصاص اسم الكتاب به، وأمّا التنكير في قوله:(وَقُرْآنٍ): أي عظيم الشأن كما يشعر به التنكير، فعلى ذلك فلا فرق في إفادة المعنى المقصود بين آيتنا هذه وبين آية سورة النّمل.

وعلى كلّ تقدير، فالآية تصف ما أُنزل على النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) بالكتاب الجامع للكمال والغرابة في البيان، فتكون الآية مقدّمة لبيان ضآلة ما رُمي به الكتاب من المشركين، كما سيوافيك.

٢. (رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ):

تمنّي المشركين يوم القيامة لو كانوا مسلمين

إنّ لفظة (رُبَمَا) تدخل على الماضي والمضارع، وكأنّ صاحب الكشّاف سلّم قول بعض النحويين من عدم دخولها بغير الماضي فأجاب عن الإشكال بقوله: لأنّ المترقّب في إخبار الله تعالى بمنزلة الماضي المقطوع به في تحقّقه وكأنّه قيل ربما ودّ.(تفسير الكشّاف: ١٨٦/٢).

يلاحظ عليه: أنّ القواعد العربية يجب أن تعرض على الكتاب، لا الكتاب على القواعد العربية، فلا وجه لتأويله إلى الماضي مع ظهور أنّ الكفّار لم يودّوا أن يكونوا مسلمين قبل نزول الآية.

ثمّ إنّه سبحانه لمّا وصف الكتاب بالفخامة والعظمة، وأتمّ بذلك الحجّة على الكافرين فاستحقّوا العذاب، أخبر عن أنّ المشركين

يودّون يوم القيامة كما يقول:(رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا)يودّون (لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ): أي لو كانوا قد أسلموا وانقادوا لحكم الله سبحانه ولكنّهم ندموا حين لا ينفع الندم.

ثمّ إنّ (لَوْ) في قوله:(لَوْ كَانُوا) للتمنّي، أي تمنّوا يومذاك أن يكونوا مسلمين. وليست الآية هي الآية الوحيدة الحاكية عن تمنّي القوم بل هناك آيات أُخرى تحكي عن تمنّيهم كما يقول سبحانه:(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً).(الفرقان:٢٧.)

وكأنّ أحوال يوم القيامة تبهتهم فيتمنَّون الأمر المحال، حيث إنّه لا رجوع إلى الدنيا بعد قيام القيامة.

٣. (ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ):

لمّا تضمّنت الآية السابقة أنّ مشركي عصر الرسالة يموتون على الكفر حتى أنّهم يتمنّون يوم القيامة لو كانوا مسلمين، جاءت الآية لقطع رجاء النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) في هدايتهم وأنّ المصلحة هو الإعراض عنهم كما قال: (ذَرْهُمْ): أي اتركهم وخلِّهم وشأنَهم، إذ لا شأن لهم في دنياهم ولا همّ إلاّ أن (يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا) بما يريدون ويتلذّذوا، تماماً كالأنعام، (وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ): أي وتُنسيهم آمالهم الكاذبة وتَصرِفُهم عن اتّباع النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)والقرآن. وهذه الأُمور الثلاثة هي غاية مراد المشركين ومن ثمّ ينسَون الله سبحانه وتعالى ودعوة الأنبياء والإيمان بالبعث. ثمّ إنّ قوله: (يَأْكُلُوا)وما عطف عليه مجزوم لكونه جواباً للأمر. وربما يقال بأنّه لا يحسن جعله جواباً للأمر لأنّهم يأكلون ويتمتّعون سواء ترك الرسول دعوتهم أم دعاهم.

يلاحظ عليه:أنّ دعوة الرسول إلى الإيمان لمّا كانت أمراً مستمرّاً، حيث يدعوهم فترة بعد فترة، فهذا المقدار من الوقت كان يصدّهم عن مرادهم وإن كان لايصدّهم في غير هذا الوقت.

ومع ذلك يحتمل أن يكون الجزم بلام الأمر المقدّر، أي ليأكلوا نظير قوله سبحانه:(قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاَةَ)(إبراهيم:٣١.): أي ليقيموا الصلاة. وفي نهاية الآية فالله سبحانه يشير إلى أنّ تمتّعهم بالحياة الدنيوية لا يدوم، فالله يُمهلهم ولا يَهملهم (فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)وبال أعمالهم يوم القيامة. «وفي هذه الآية إشارة إلى أنّ الإنسان يجب أن يكون مقصور الهمّة على أُمور الآخرة، مستعدّاً للموت، مسارعاً إلى التوبة، ولا يأمل الآمال المؤدّية إلى الصدّ عنها. وقد روي عن أمير المؤمنين(عليه السلام) أنّه قال: «إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ اثْنَانِ: اتِّبَاعُ الْهَوَى، وَطُولُ الأمَلِ، فَأَمَّا اتِّبَاعُ الْهَوَى فَيَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ، وَأَمَّا طُولُ الأمَلِ فَيُنْسِي الآخِرَةَ».(نهج البلاغة: الخطبة ٤٢، مجمع البيان:٦/١١٦ـ١١٧.)

قال الشاعر:

قل للمقيم بغير دار إقامة *** حان الرحيل فودّع الأحبابا

إنّ الذين لَقيتَهم وصَحِبتَهم *** صاروا جميعاً في القبور ترابا[٢]

٢ . مناقب ابن شهرآشوب: ٣ / ١٨١ .

وقال آخر:

لله درّ عميد في مقالته *** حَباهُ ربّ العُلى من أهنأ النُّزُلِ[٣]

ترجو البقاء بدار لا بقاء لها *** فهل سمعتَ بظلّ غير منتقلِ[٤]

٣ . هذا البيت لحجة الإسلام التبريزي في لاميّته.

٤ . هذا البيت لمؤيّد الدين الطُّغرائيّ في قصيدته اللاّمية المعروفة.

نعم، لو كان الأمل في طريق مرضاة الله، فلا ريب في كونه مُراداً، روي عن رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) أنّه قال:«الأمل رحمة

لأُمّتي، ولولا الأمل ما أرضعت والدة ولدها، ولا غرس غارس شجراً». (بحار الأنوار:٧٤/١٧٣.)

من أسمى الآمال، الأمل بظهور المهديّ المنتظر(عليه السلام)

ومن أسمى الآمال في هذا الطريق، الأمل بظهور القائم المنتظر(عليه السلام)الموصوف بالعدل المؤمّل، حيث يأمله كلّ مؤمن كما وعد الله سبحانه. نعم يجب أن يكون العمل وفق الأمل، وأن يتحقّق الانتظار بمعناه الإيجابي الواقعي، حتى يشمله قول الإمام محمد الجواد(عليه السلام):«من أفضل أعمال شيعتنا انتظار الفرج». (رواه الصّدوق في كمال الدين وتمام النعمة: ٣٧٧، الباب ٣٦، رقم الرواية١.)

يا دولة القائم المهديّ حيّاكِ *** شذى الربيع، فما أبهى مُحَيّاكِ

يا منتهى الحُسن، يا شمس بلا شَبَه *** ما لذّةُ العيش والأعمار لولاكِ

هل أنتِ دولة ألطاف ومَرحَمة *** أو أنتِ جنّةُ خُلد في عطاياكِ

يا دوحَةَ العدل والإيمان، ما طلعتْ *** شمسٌ ولا غربتْ إلاّ بمغناكِ

في أربعين من الأعوام حاكمة *** يشعُّ في الأرض، كلِّ الأرض، معناكِ[٢]

سترَحفينَ حضارات وأنظمةً *** على الحياة، بما لم يَحْكِها حاكي[*]

[٢]أخرج نُعيم بن حمّاد عن عليّ(عليه السلام) قال: يلي المهدي أمر الناس ثلاثين أو أربعين سنة. وأخرج عن دينار بن دينار قال: بقاء المهدي أربعون سنة. انظر: فرائد فوائد الفكر في الإمام المهدي المنتظر لمرعي المقدسي الحنبلي:٣٣٦، ٣٣٧.

[*]من قصيدة للسيد محمود الموسوي، المعاصر.

٤. (وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَة إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ):

لمّا أُشير في الآية السابقة إشارة خفيّة إلى أنّ إمهال الله لهم(والمراد بهم مشركو عصر الرسالة) لا يدوم وأنّهم سوف يعلمون نتائج أعمالهم، جاء البيان القرآني لتثبيت ضابطة كلّية، وهي أنّ الإمهال إلى أجل محدّد يشمل كلّ المُعرضين عن دعوة الأنبياء وأنّ لكلّ قرية أجلاً محدّداً مكتوباً، كما قال:(وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَة): أي مدينة بالاستئصال، ولفظة «من» زائدة للتأكيد تأتي بعد النفي كثيراً كقولك ما جاءني من أحد (إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ): أي قدَر محدّد عند الله مكتوب في اللّوح المحفوظ أو غيره.

٥. (مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّة أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ):

لفظة «من» زائدة للتأكيد، وتقدير الآية: ما تسبق أُمّة أجلَها ولا تموت قبل حلول الأجل (وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ): أي يتأخّرون، فكأنّ الآية توضيح لقوله: (وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ). وفي الآية إشارة إلى أنّ للأُمّة حياة وموتاً كما أنّ للفرد كذلك، وهي إن دلّت على شيء فإنّما تدلّ على أنّ للمجتمع حياة وموتاً وأجلاً محدّداً وأنّ المجتمع بما هوهو ليس أمراً اعتبارياً محضاً. والتفصيل في محلّه.

ثمّ إنّه سبحانه أمهل مشركي عصر الرسالة فأسلم بعضهم، وبقي الآخرون المعاندون فأُهلكوا في غزوة بدر وقُطع دابرهم. وفي الآية تطييب لنفس النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) وأنّه يجري عليهم ما جرى على الأُمم السابقة، وفي الجميع إمهال لا إهمال.

٦. (وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ):

الآية عطف على قوله:(ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا...)، وهي تحكي عنهم كلاماً يتضمّن إهانتين للنبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)مستهدفين من ورائهما استصغاره والحطّ من شأنه، وهما:

١. أنّهم خاطبوه ـ مكان ذكر اسمه ـ بالوصف(يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ): أي مَن يدّعي أنّه ينزل عليه الوحي ولا نعلم صِدقَ كلامه.

٢. أنّهم نسَبوا تنزيل الذّكر إلى مصدر مجهول وقالوا:(نُزِّلَ) دون أن يقولوا أنزله الله. وأفظع من كلّ ذلك أنّهم جَبَهوا النبيّ بهذه

المقولة المنكرة، وبهذا التأكيد:(إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ): أي مَن جُنّ وفسد عقله!! وفعل «جُنّ» لا يستعمل إلاّ بصيغة المجهول.

ولا شكّ في أنّ الرأي العام يومذاك كان يطغى عليه الشرك وعبادة الآلهة المصنوعة، فالجزيرة العربية كانت تضجّ بالأصنام يعبدها كبار القوم وصغارهم إلاّ من شذّ من الحنفاء. ومن المعلوم أنّ مخالفة الرأي العام تثير حفائظ القوم على المخالف فيصفونه بقلّة العقل والسَّفه والجنون، ولمّا كان النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)من دعاة التوحيد ـ على خلاف ما عليه القوم ـ اتُّهم بالجنون.

ثمّ إنّ مشركي عصر الرسالة اتّهموا النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) بالكاذب والكاهن والساحر وما يشاكلها، والحقيقة أنّ هذه التُّهم تنطوي على دليل على عظمة النبيّ الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم) وطهارته من الأدناس كالخيانة والجناية ونظائرهما، فلو كان في صحيفة النبيّ شيء من هذه المعاصي والآثام لشنّعوا بها عليه، ولكنّهم لم يجدوا في حياته شيئاً يُزرى به عليه فعمدوا إلى اتّهامه بهذه الأُمور الروحية التي يصعب إثباتها، كما يصعب نفيها.

إنّ التاريخ يشهد بأنّ المصلحين في كلّ عصر وزمان إذا نهضوا بعملية الإصلاح وعرَضوا برامجهم الإصلاحية على الناس، وقف أمامهم مَن يتضرّر بإصلاحاتهم ورمَوهم بمثل ما رُمي به النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم). وفي النهاية ترك سبحانه الإجابة عن هذه النسبة الفظيعة لوضوح بطلانها، وركّز الكلام على الإهانتين، كما سيوافيك.

ثمّ إنّ وصف القرآن بالذّكر في كلام المشركين يدلّ على أنّ الوصف به كان أمراً شائعاً آن نزول الآية.

٧. (لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلاَئِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ):

ومن عجائب الأُمور ـ وما عشت أراك الدهر عجبا!! ـ أنّ مشركي عصر الرسالة لمّا نسبوا تنزيل الذّكر على النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)إلى مصدر مجهول، حاولوا أن يظهروا بمظهر من يطلب دليلاً من النبيّ، وهو أنّه لو كان صادقاً في دعواه بنزول الوحي عليه من الله سبحانه، فلماذا لا يأتي بالملائكة ليخبروا بصدقه في الرسالة؟ وقد حكى عنهم سبحانه ذلك بقوله:(لَوْ مَا)وهي كلمة تحضيضية نظير «لولا». يقول ابن مالك:

لولا و لوما يَلْزَمانِ الإبْتِدا *** إِذَا امْتِناعاً بوجود عَقَدا

و بهما التَّحضيضَ مِزْ و هَلاّ *** ألاّ ألا وأوْلِيَنْهَا الْفِعْلا

وقوله:(تَأْتِينَا بِالْمَلاَئِكَةِ) بمعنى حتى يكونوا شهود صدق على رسالته.

ويُلحظ في هذا القول شدّة عنادهم ولجاجهم، إذ لم يكتفوا بأن يأتيهم بملَك واحد، بل اقترحواعليه الإتيان بالملائكة!! ونظير ذلك قولهم ـ كما حكاه عنهم سبحانه ـ :(أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلاَئِكَةِ قَبِيلاً)(الإسراء:٩٢).

وكأنّ القوم تصوّروا وجود التضادّ بين البشرية والصلة بالعالم الروحاني، فإنّ الرسول من ذلك العالم يجب أن يكون مثل سكّانه بعيداً عن الشهوة والغضب، ولذلك لا يصلح الإنسان أن يكون مبعوثاً من ذلك العالم الروحاني، فمَن ادّعى أنّه مبعوث من ذلك العالم فعليه أن يأتي بشيء من ذلك العالم كالملائكة حتى يصدّقوا دعوته.

٨. (مَا نُنَزِّلُ الْمَلاَئِكَةَ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ):

الآية بصدد الإجابة عن الإهانة الثانية، وقدّم الإجابة عنها اهتماماً بها، وهي تتضمّن أمرين:

١. (مَا نُنَزِّلُ الْمَلاَئِكَةَ إِلاَّ بِالْحَقِّ).

٢. (وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ).

ما هو المراد من نزول الملائكة بالحقّ ؟

أمّا الفقرة الثانية فواضحة، فإنّها تستهدف بيان أنّ نزول الملائكة يُفضي إلى استئصالهم وقطع دابرهم وانتهاء مدّة الإمهال،

ونظيرها قوله سبحانه:(يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلاَئِكَةَ لاَ بُشْرى يَوْمَئِذ لِلْمُجْرِمِينَ)(الفرقان:٢٢.)، إنّما الكلام في الفقرة الأُولى، حيث يقول: (مَا نُنَزِّلُ الْمَلاَئِكَةَ إِلاّ بِالْحَقِّ):أي ما ننزّل الملائكة إلاّ مصاحباً للحقّ، وقد اختلفت كلمة المفسّرين في توضيح هذه الفقرة، والأقرب من بين الاحتمالات ما يقال: إنّه جرت سنّة الله تعالى على شأن المعجزة النازلة عن اقتراح الناس على تعقيبها بعذاب الاستئصال والهلاك القطعيّ إن لم يؤمنوا بها، وبما أنّ هؤلاء المشركين الذين يقترحون نزول الملائكة كانوا في خطّ العناد واللّجاج، فلو استجيب لاقتراحهم ونُزّلت الملائكة لَبقَوا على عنادهم، وعندئذ يُعاجَلون بالعذاب ولا يُمهَلون، فيكون معنى الآية: ما ننزّل الملائكة إلاّ مصحوباً بالحق، وهو النزول على الأنبياء والأولياء لبيان حقائق خاصّة بهم، وأمّا النزول لغير هذه الغاية فسيعقبه العذاب والاستئصال. وسيوافيك توضيحه في تفسير قوله سبحانه:(وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاّ أَنْ كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَ مَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا)(الإسراء:٥٩.).

فظاهر قوله تعالى: (وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالآيَاتِ) أنّه سبحانه لم يستجب لاقتراحهم لِما تمنّوا من الآيات، لأنّ إرسالها كان مقروناً بتكذيب القوم وعندئذ يعمّهم العذاب، فصار هذا مانعاً من استجابة اقتراحهم.

بقي الكلام في الردّ على الإهانة الأُولى، أعني نسبة تنزيل الذكر إلى مصدر مجهول، وهذا ما تكفّلت به الآية التالية:

٩. (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ):

الآية تشتمل على فقرتين:

الأُولى: تُبيّن مبدأ نزول القرآن بتأكيدين (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ) يعني: فاعلموا بجدّ أنّ الله سبحانه هو منزِّل الذّكر.

الثانية: تعرّفهم بمن تعهّد بحفظ الذّكر: (وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) من التحريف والزيادة والنقيصة.

صيانة القرآن من التحريف

إنّ دعوى وقوع التحريف في القرآن الكريم لا تستند إلاّ إلى شبهة باطلة واهية، ورغم ذلك فقد أخذت طريقها إلى كتب ومؤلّفات، ونحن ندرس هنا هذه الشبهة، بوجوه:

الأوّل: الاستدلال بالآيات الكريمة على صيانة القرآن

١. آية الحفظ

يراد بآية الحفظ قوله سبحانه:(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ).

وجه الدلالة: أنّه سبحانه أطلق متعلّق الحفظ ليعمّ كلّ ما يزاحمه ويضادّه من الزيادة والنقصان والتبديل والتغيير، وبما أنّه سبحانه ضمن حفظه من كلّ شيء فالقرآن طريّ منذ نزوله إلى آخر ما أُوحي منه إلى النبيّ، محفوظ من عبث العابثين. ومن المعلوم أنّه سبحانه يجري الأُمور بأسبابها، وقد بلغ حفّاظ القرآن في عصر النبيّ وبعده وكتّابه والمهتمّون بهذا الكتاب من جهات مبلغاً يمتنع معه التصرّف فيه بالزيادة والنقيصة، وبذلك صار محفوظاً مُصاناً من التحريف والتغيير متواتراً واصلاً إلينا قرناً بعد قرن وعصراً بعد عصر «فالقرآن واحد نزل من عند واحد، وإنّما الاختلاف يجيء من قبل الرواة».(رواه الكليني عن زُرارة عن أبي جعفر الباقر(عليه السلام) في: الكافي:٢/٦٣٠، كتاب فضل القرآن، الحديث١٢.)جدير بالتذكير أنّ القراءة المتواترة هي المكتوبة في القرآن الموجود بين أيدينا، وأمّا سائر القراءات فهي بحكم الخبر الواحد لا يُحتجّ بها، فمن اهتمّ بعلم القراءات مع كثرتها فقد نزّل القرآن الكريم منزلة كتاب بشريّ نسخه المستنسخون بعبارات مختلفة،وهي كماترى، فالذي يجب الاهتمام به هو القراءة الرائجة عبر الأجيال.

ثمّ إنّ الدليل على صيانة القرآن من التحريف ما عُرف من الاهتمام بكتاب الله من قبل المسلمين من عصر الرسالة، وما كان مثله يمتنع طروء التغيير والتبديل عليه؛ وقد حكي عن بعضهم أنّه سئل عن السرّ في تطرّق التغيير للكتب السالفة وسلامة

القرآن من ذلك؟ فأجاب بأنّ الله أوكل للأحبار حفظ كتبهم فقال: (بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ)(المائدة:٤٤.)، وتولّى حفظ القرآن بذاته تعالى فقال:(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ).

وهناك وجه آخر، وهو: أنّ المجتمعات تتفاوت إدراكاً ورشداً، فرُبّ مجتمع يكون في أخلاقه كالإنسان القاصر، لا يقدر على أن يحتفظ بالتراث الذي وصل إليه، بل يضيّعه شأنه شأن الطفل الذي يمزّق كتبه ودفاتره وهو غير مدرك لقيمتها.

ورُبّ مجتمع بلغ في التمسّك بالقيم الفكريّة والأخلاقية والاجتماعية شأواً بعيداً، فمثل هذا المجتمع يحتفظ بتراثه الدينيّ الواصل إليه، بل يستثمره استثماراً جيّداً، فهو عند ذاك غنيّ عن كل مروّج يروّج دينه، أو مبلّغ يذكر منسيّه، أو مربّ يرشده إلى القيم الأخلاقية، أو معلّم يعلّمه معالم دينه ويوضّح له ما أشكل من كتابه، إلى غير ذلك من الشؤون، فأفراد الأُمم السالفة كانوا كالقُصّر، غير بالغين في العقلية الاجتماعية، فما كانوا يعرفون قيمة التراث المعنوي الذي وصل إليهم، بل كانوا يلعبون به لعب الصبيّ بكتابه، وذلك بتحريفهم له وتأويله بما يتوافق مع أهوائهم ومشاربهم، ولذا كان يحلّ بالشريعة الاندراسُ بعد مضيّ القرون والأجيال، ويستولي عليها الصدأ بعد حقبة من الزمان.

وأمّا المجتمع البشري بعد بعثة الرسول الأعظم(صلى الله عليه وآله وسلم) ولحوقه بالرفيق الأعلى، فقد بلغ من المعرفة والإدراك والتفتّح العقلي والرُّشد الاجتماعي شأواً بعيداً، تمكّن معه من حفظ تراث نبيّه وصيانة كتابه من طوارق التحريف والتبديل والضياع، حتى بلغت عنايته بكتابه الديني (أعني: القرآن الكريم) إلى تصنيف أنواع التآليف في أحكامه وتفسيره وبلاغته ومفرداته وإعرابه وقراءته، فازدهرت تحت راية القرآن ضروب من العلوم والفنون.(لاحظ: مفاهيم القرآن:٣/٢١٨ـ٢١٩، للمؤلف.)

هذا، وأنّ ظهور الآية في أنّه سبحانه ضَمِن صيانة القرآن من كلّ ما يمسّ كرامته أمر واضح، غير أنّ بعض من اتّخذ موقفاً خاصّاً احتمل في الآية

ما لا يتبادر إلى ذهن القارئ وقال: المراد هو:

١. حفظه من قَدْح القادحين.

٢. حفظه في اللّوح المحفوظ.

٣. حفظه في صدر النبيّ والإمام بعده.

والجميع ضعيف، فإنّ قدح القادحين ليس مطروحاً في الآية حتى تجيب عنه، كما أنّ حفظه في اللّوح المحفوظ أو في صدر النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) لا يرتبط باعتراض المشركين، فإنّ اعتراضهم كان مبنيّاً على اتّهام النبيّ بالجنون الذي لا ينفكّ عن الخلط في إبلاغ الوحي، فالإجابة بأنّه محفوظ في اللّوح المحفوظ أو ما أشبهه لا يكون قالعاً للشبهة، فالحقّ الذي لا ريب فيه أنّه سبحانه يخبر عن تعهّده بحفظ القرآن وصيانته في عامّة المراحل، فالقول بالنقصان يضادّ تعهّده سبحانه.

٢. آية نفي الباطل

قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ)(فصّلت:٤١ـ٤٢.).

ودلالة الآية على نفي التحريف زيادة ونقيصة، رهن بيان أُمور:

١. المراد من الذّكر هو القرآن، ويشهد عليه قوله:(وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ)، فإنّ الضمير في (إِنَّهُ) يرجع إلى الذكر.

٢. إنّ خبر (إِنَّ) محذوف مقدّر، وهو: سوف نجزيهم، وما شابهه.

٣. وصف كتابه بأوصاف:

أ. (عَزِيزٌ): أي مقتدر لا يُغلَب.

ب. (لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ).

ج. (تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ).

٤. الباطل يقابل الحقّ، فالحقّ ثابت لا يُغلب؛ والباطل له جولة، لكنّه سوف يُغلب، ومثلهما كمثل الماء والزَّبَد، فالماء يمكث في الأرض والزَّبَد يذهب جفاء، قال سبحانه: (كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ)(الرعد:١٧).

فالقرآن حقّ في مداليله ومفاهيمه، وأحكامه خالدة، ومعارفه وأُصوله مطابقة للفطرة، وأخباره الغيبية حقّ لا زيغ فيها، كما أنّه منزّه عن التناقض بين دساتيره وأخباره (وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا)(النساء:٨٢).

فكما أنّه حقّ من حيث المادّة والمعنى، فهو حقّ من حيث الصورة واللّفظ أيضاً، فلا يتطرّق إليه التحريف،ونعمَ ما قاله الطبرسي: لا تناقض في ألفاظه، ولا كذب في أخباره، ولا يعارض، ولا يزداد، ولا ينقص.(مجمع البيان: ٩ / ١٥، ط صيدا.)

ويؤيّده قوله قبل هذه الآيات:(وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)(الأعراف:٢٠٠). ولعلّه إشارة إلى ما كان يدخل في نفسه من إمكان إبطال شريعته بعد مماته، فأمره بالاستعاذة بالله السميع العليم.

والحاصل: إنّ تخصيص مفاد آية (نفي الباطل) بطروء التناقض في أحكامه وتكاذب أخباره، لا وجه له، فالقرآن مصون من أيّ باطل يبطله، أو فاسد يفسده، بل هو غضّ طريّ لا تُبليه اللّيالي والأيام، ولا تستطيع الأيدي الأثيمة أن تمسّه بسوء.

٣. آية الجمع

روي أنّه إذا نزل القرآن، عجّل النبيّ بقراءته، حرصاً منه على ضبطه، فوافاه الوحي ونهاه عن ذلك، وقال:(لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ)(القيامة:١٦ـ١٩). فالله سبحانه قد ضَمِن الجمع والحفظ والبيان. كما ضَمِن في آية أُخرى عدم نسيانه(صلى الله عليه وآله وسلم)القرآن وقال:(سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنْسَى * إِلاَّ مَا شَاءَ اللهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى)(الأعلى:٦ـ٧).

والاستثناء في هذه الآية نظير الاستثناء في قوله: (وَ أَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ)(هود:١٠٨). ومن المعلوم أنّ أهل السعادة محكومون بالخلود في الجنّة، ويشهد له ذيل الآية، أعني: قوله: (عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ): أي غير مقطوع، ومع ذلك فليس التقدير على وجه يخرج الأمر من يده سبحانه، فهو في كلّ حين قادر على نقض الخلود.

هذا بعض ما يمكن أن يستدلّ به، على صيانة القرآن من التحريف بالقرآن.

الثاني: الاستدلال بالروايات على صيانة القرآن

يمكن الاستدلال على نفي التحريف بروايات متضافرة؛ بل متواترة، وهي على وجوه:

أوّلاً: أخبار العرض على القرآن الكريم

أوّلاً: أخبار العرض على القرآن الكريم وهي الروايات التي وردت عن النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) والأئمّة المعصومين(عليهم السلام) ونذكر عدداً منها:

١. روى الكليني بإسناده عن السَّكوني، عن أبي عبد الله]الصادق[(عليه السلام)قال: «قال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم): الوقوف عند الشبهة خير من الاقتحام في الهلكة، إنّ على كلّ حق حقيقة، وعلى كلّ صواب نوراً، فما وافق كتاب الله فخذوه، وما خالف

كتاب الله فدَعوه».(الكافي:١/٦٩، كتاب فضل العلم، باب الأخذ بالسنّة وشواهد الكتاب، رقم الرواية١.)

٢. وروى بإسناده عن هشام بن الحكم وغيره، عن أبي عبد الله[الصادق](عليه السلام) قال: «خطب النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) بمِنى، فقال: أيّها الناس ما جاءكم عنّي يوافق كتاب الله فأنا قُلتُه، وما جاءكم يخالف كتاب الله فلم أقُله».(الكافي:١/٦٩، كتاب فضل العلم، باب الأخذ بالسنّة وشواهد الكتاب، رقم الرواية٥.)

٣. وروى بإسناده عن أيّوب بن الحُرّ قال: سمعت أبا عبد الله(عليه السلام)يقول:«كلّ شيء مردود إلى الكتاب والسنّة، وكلّ حديث لا يوافق كتاب الله فهو زخرف».(الكافي:١/٦٩، كتاب فضل العلم، باب الأخذ بالسنّة وشواهد الكتاب، رقم الرواية٣.)

٤. وروى بإسناده عن أيّوب بن راشد عن أبي عبد الله(عليه السلام) قال:«ما لم يوافق من الحديث القرآنَ فهو زخرف».(الكافي:١/٦٩، رقم الرواية٤. الوسائل:١٨، الباب٩ من أبواب صفات القاضي، الحديث١٢.)

إلى غير ذلك من الأحاديث الواردة في باب عرض الروايات على الكتاب والسنّة، وأُريد من الموافق هو عدم المخالفة. ووجه الدلالة من وجهين:

١. أنّ المتبادر من أخبار العرض أنّ القرآن مقياس سالم لم تنله يد التبديل والتحريف والتصرّف، والقول بالتحريف لا يلائم القول بسلامة المقيس عليه.

٢. أنّ الإمعان في مجموع روايات العرض يثبت أنّ الشرط اللازم هو عدم المخالفة، لا وجود الموافقة، وإلاّ لزم ردّ أخبار كثيرة لعدم تعرّض القرآن إليها بالإثبات والنفي. هذا ولا تُعلم المخالفة وعدمها إلاّ إذا كان المقيس (القرآن) بعامّة سوره وأجزائه موجوداً عندنا، وإلاّ يمكن أن يكون الخبر مخالفاً لما سقط وحُرّف.

ثانياً: حديث الثقلين

إنّ حديث الثقلين يأمر بالتمسّك بالقرآن، مثلما يأمر بالتمسّك بأقوال العترة، حيث قال(صلى الله عليه وآله وسلم):«إنّي تارك فيكم الثقلين: كتاب الله، وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا»(هو من الأحاديث الصحيحة المتّفق عليها بين الفريقين. قال ابن حَجَر الهيتمي ـ بعد كلام له ـ: ثمّ اعلم أنّ لحديث التمسّك بذلك طرقاً كثيرة، وردت عن نيّف وعشرين صحابيّاً. الصواعق المحرقة:١٥٠.) ويستفاد منه عدم التحريف، وذلك:

أ. أنّ الأمر بالتمسّك بالقرآن، فرع وجود القرآن بين المتمسّكين.

ب. أنّ القول بسقوط قسم من آياته وسُوَره، يوجب عدم الاطمئنان فيما يستفاد من القرآن الموجود، إذ من المحتمل أن يكون المحذوف قرينة على المراد من الموجود.

ثالثاً: أهل البيت(عليهم السلام)وصيانة القرآن

إنّ الإمعان في خطب الإمام أمير المؤمنين(عليه السلام) وكلمات أوصيائه المعصومين(عليهم السلام) يعرب عن اعتبارهم القرآن الموجود بين ظهراني المسلمين، هو كتاب الله المنزل على رسوله بلا زيادة ولا نقيصة، ويعرف ذلك من تصريحاتهم تارة، وإشاراتهم أُخرى، ونذكر هنا شيئاً قليلاً من أقوالهم.

١. الإمام علي(عليه السلام) وصيانة القرآن

أ. قال أمير المؤمنين(عليه السلام):«وَأَنْزَلَ عَلَيْكُمُ (الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْء)، وَعَمَّرَ فِيكُمْ نَبِيَّهُ أَزْمَاناً، حَتَّى أَكْمَلَ لَهُ وَلَكُمْ فِيمَا أَنْزَلَ مِنْ كِتَابِهِ، دِينَهُ الَّذِي رَضِيَ لِنَفْسِهِ».(نهج البلاغة: الخطبة ٨٦.)

والخطبة صريحة في إكمال الدين تحت ظلّ كتابه، فكيف يكون الدين كاملاً ومصدره محرّفاً غير كامل؟! ويوضّح ذلك أنّ الإمام

يحثّ على التمسّك بالدين الكامل بعد رحيل الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم)، وهو فرع كمال مصدره وسنده.

ب. وقال(عليه السلام):«وَكِتَابُ اللهِ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ نَاطِقٌ لاَ يَعْيَا لِسَانُهُ، وَبَيْتٌ لاَ تُهْدَمُ أَرْكَانُهُ، وَعِزٌّ لاَ تُهْزَمُ أَعْوَانُهُ».(نهج البلاغة: الخطبة ١٣٣.)

ج. ومن كلام له(عليه السلام) أيضاً: عن أبي عبد الله عن أبيه عن جدّه(عليهم السلام) قال: «خطبنا أمير المؤمنين(عليه السلام) خطبة، فقال فيها: نشهد أن لا إلٰه إلاّ وحده لا شريك له، وأنّ محمّداً عبده ورسوله، أرسله بكتاب فصّله وأحكمه، وأعزّه وحفظه بعلمه، وأحكمه بنوره، وأيّده بسلطانه، وكلأه من لم يتنزّه هوىً أو تميل به شهوّة (لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ)(فصّلت:٤٢.)».(تفسير العياشي:١/٨٠، رقم الرواية١٥.)

٢. فاطمة الزهراء(عليها السلام) وصيانة القرآن

قالت الصديقة الطاهرة(عليها السلام) بضعة رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) في الخطبة التي ألقتها على صحابة النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) بعد هضمها حقّها:«أنتم عبادَ الله نُصب أمره ونهيه، وحَمَلة دينه ووحيه، وأُمناء الله على أنفسكم، وبلغاؤه إلى الأمم.. (إلى أن قالت): وبقيّةٌ استخلفها عليكم، كتاب الله الناطق..، بيّنةٌ بصائرُه، منكشفةٌ سرائره، مُنجَليةٌ ظواهرُه، مغتبطة به أشياعه، قائدٌ إلى الرضوان أتباعُه، مؤدٍّ إلى النجاة استماعُه، به تُنال حجج الله المنوّرة...».(الاحتجاج: ١/١٣٣ ـ ١٣٤، احتجاج فاطمة (عليها السلام)على القوم.)

٣.سائر أئمة أهل البيت(عليهم السلام) وصيانة القرآن

أ. خطب الإمام أبو محمد الحسن بن علي(عليهما السلام) بعد البيعة له بالأمر، فقال: «نحن حزب الله الغالبون، وعترة رسول الله الأقربون وأهل بيته الطيّبون الطاهرون، وأحد الثقلين اللّذين خلّفهما رسول الله في أُمّته، والثاني كتاب الله الذي فيه تفصيل كلّ شيْء (لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ)(فصّلت:٤٢.)، فالمعوّل علينا في تفسيره».(الأمالي للطوسي: ١٢١، المجلس(٥)، رقم الرواية١٨٨؛ بحار الأنوار:٤٣/٣٥٩، رقم الرواية٢.)

ب. ومن دعاء الإمام علي بن الحسين زين العابدين(عليه السلام) في صحيفته قوله:«اللّهم إنّك أعنتَني على ختم كتابك، الذي أنزلته نوراً، وجعلته مهيمناً على كل كتاب أنزلتَه...، وجعلته نوراً نهتدي من ظلم الضلالة والجهالة باتّباعه... ونورَ هُدىً لا يُطفأ عن الشاهدين برهانُه، وعلَمَ نجاة لا يضلّ من أمّ قَصْدَ سنّته، ولا تَنالُ أيدي الهلَكات مَن تعلّق بعروة عصمته».(الصحيفة السجادية: الدعاء٤٢.)

ج. قال الإمام أبو جعفر محمد الباقر(عليه السلام):«إنّ الله تبارك وتعالى لم يدع شيئاً تحتاج إليه الأُمّة إلى يوم القيامة إلاّ أنزله في كتابه، وبيّنه لرسوله، وجعل لكلّ شيء حدّاً، وجعل دليلاً يدلّ عليه، وجعل على من تعدّى ذلك الحدّ حدّاً».(تفسير العياشي:١/٧٩، رقم الرواية١٢.)

د. من دعاء الإمام أبي عبد الله جعفر الصادق(عليه السلام) قبل تلاوة القرآن:«اللّهُمَّ إنّي أشهد أنّ هذا كتابك المنزل من عندك على رسولك محمد بن عبد الله(صلى الله عليه وآله وسلم) وكلامك الناطق على لسان نبيّك، جعلته هادياً منك إلى خلقك، وحبلاً متّصلاً فيما بينك وبين عبادك».(بحار الأنوار:٩٢/٢٠٧.)

هـ. ذكر الإمام عليّ الرضا(عليه السلام) يوماً القرآن، فعظّم الحجّة فيه والآية والمعجزة في نظمه، فقال:«هو حبل الله المتين، وعروته الوثقى وطريقته المثلى، المؤدي إلى الجنة، والمنجي من النار، لا يُخلق على الأزمنة، ولا يغث على الألسنة، لأنّه لم يجعل لزمان دون زمان، بل جُعل دليل البرهان، والحجّة على كلّ إنسان (لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ)».(عيون أخبار الرضا(عليه السلام):٢/١٣٠.)

و. في رسالة مبسوطة كتبها الإمام عليّ الهادي(عليه السلام) حول القدر، قال:«والقرآن حق لا اختلاف بينهم في تنزيله وتصديقه،

فإذا شهد القرآن بتصديق خبر وتحقيقه وأنكر الخبر طائفة من الأُمّة لزمهم الإقرار به ضرورة حين اجتمعت في الأصل على تصديق الكتاب وتنزيله، فإن هي جحدت وأنكرت لزمها الخروج من الملّة». (تحف العقول عن آل الرسول:١/٦٢.)

***

وهناك روايات أُخرى عن أئمّة أهل البيت(عليهم السلام) تشير إلى صيانة القرآن من التحريف لم نشأ أن نوردها خوف الإطالة.

وهذه الروايات وإن كانت أخبار آحاد لكنّ المجموع من حيث المجموع يفيد الاطمئنان بل العلم الضروري على أنّ الرأي العام عند أئمّة أهل البيت(عليهم السلام) هو صيانة القرآن من كلّ تحريف لا بالزيادة ولا بالنقيصة ولا بالتصرّف في الآيات والسُّور.

ومن المعلوم أنّ المقتفين لهم لا تتجاوز آراؤهم عن آرائهم(عليهم السلام). ولو أردنا نقل كلمات علمائنا حول صيانة القرآن من القرن الثالث إلى القرن الحاضر، لأحوجنا ذلك إلى تأليف رسالة مفصّلة، وقد قام الباحث السيد علي الموسوي الدارابي بنقل أقوال العلماء فجاء بمئة وأربعة عشر نصّاً من كلام علمائنا إلى العصر الحاضر، فمن أراد الاطّلاع على كلماتهم فعليه الرجوع إلى كتاب «النص الخالد لم ولن يحرّف أبداً» وبما أنّا نقلنا في كتابنا «المناهج التفسيرية» أقوال أعاظم علمائنا، فنقتصر هنا على ذكر أقوال ثمانية منهم (من القرن الثالث حتى القرن السادس).

علماء الشيعة وصيانة القرآن

١. قال الشيخ الفضل بن شاذان الأزدي النيسابوري(المتوفّى ٢٦٠هـ) ـ في ضمن نقده لمذهب أهل السنّة ـ : إنّ عمر بن الخطاب قال:إنّي أخاف أن يقال زاد عمر في القرآن هذه الآية، فإنّا كنّا نقرؤها على عهد رسول الله: الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة بما قضيا من الشهوة نكالاً من الله والله عزيز حكيم. (الإيضاح:٢١٧. روى البخاري آية الرجم في صحيحه: ٨/٢٠٨، باب رجم الحبلى.)

أقول: لو كان التحريف من عقائد الشيعة، لما كان له أن يؤاخذهم بقول عمر هذا الدالّ على التحريف، لاشتراكهما في ذلك القول.

٢. قال الشيخ أبو جعفر محمد بن علي، المعروف بالصَّدوق (المتوفّى ٣٨١هـ): اعتقادنا في القرآن أنّه كلام الله ووحيه وتنزيله، وقوله وكتابه. وأنّه :(لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ)، وأنّه القصص الحق، وأنّه قول فصل، وما هو بالهزل، وأنّ الله تبارك وتعالى مُحْدثه، ومنزله وربّه وحافظه. (اعتقادات الصدوق:٢٤٣ـ٢٤٤، طبعة مؤسسة الإمام الهادي(عليه السلام)، قم.)

٣. قال الشيخ محمد بن محمد بن النعمان الحارثي البغدادي، المعروف بالمفيد(المتوفّى ٤١٣هـ): وقد قال جماعة من أهل الإمامة إنّه لم ينقص من كلمة ولا من آية ولا من سورة، ولكن حذف ما كان مثبتاً في مصحف أمير المؤمنين(عليه السلام) من تأويله وتفسير معانيه على حقيقة تنزيله، وذلك كان ثابتاً منزلاً، وإن لم يكن من جملة كلام الله الذي هو القرآن المعجز، وقد يسمّى تأويل القرآن قرآناً، وعندي أنّ هذا القول أشبه بالحقّ من مقال من ادّعى نقصان كلم من نفس القرآن على الحقيقة دون التأويل وإليه أميل. (أوائل المقالات:٥٣ـ٥٤.)

وقال أيضاً في أجوبة «المسائل السروية» في جواب من احتج على التحريف بالروايات الواردة حيث ورد فيها «كنتم خير أئمّة أُخرجت للناس» مكان (أُمّة)، وورد كذلك «جعلناكم أئمة وسطاً» مكان (أُمّة) وورد «يسألونك الأنفال» مكان (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ) ، فأجاب : أنّ الأخبار التي جاءت بذلك أخبار آحاد لا يقطع على الله تعالى بصحّتها، فلذلك وقفنا فيها، ولم نعدل عمّا في المصحف الظاهر. (مجموعة الرسائل للمفيد:٣٦٦.)

٤. قال الشريف علي بن الحسين الموسوي، المعروف بالمرتضى (المتوفّى ٤٣٦ هـ): إنّ جماعة من الصحابة، مثل عبد الله بن مسعود و أُبّي بن كعب وغيرهما ختموا القرآن على النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) عدّة ختمات، وكلّ ذلك يدلّ بأدنى تأمّل على أنّه كان مجموعاً مرتّباً غير مبتور ولا مبثوث. (مجمع البيان:١/١٠، نقلاً عن جواب المسائل الطرابلسية للسيد المرتضى.)

٥. قال الشيخ محمد بن الحسن الطوسي (المتوفّى ٤٦٠ هـ): أمّا الكلام في زيادة القرآن ونقصانه فمما لا يليق به أيضاً، لأنّ الزيادة مجمع على بطلانها، وأمّا النقصان فالظاهر أيضاً من مذهب المسلمين خلافه، وهو الأليق بالصحيح من مذهبنا، وهو الذي نصره المرتضى، وهو الظاهر في الروايات، ثمّوصف الروايات المخالفة بالآحاد.(التبيان في تفسير القرآن: ١ / ٣ .)

٦. قال الشيخ أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي (المتوفّى ٥٤٨هـ): الكلام في زيادة القرآن ونقصانه؛ أمّا الزيادة فيه فمجمع على بطلانها، وأمّا النقصان منه فقد روى جماعة من أصحابنا وقوم من حشوية العامة أنّ في القرآن تغييراً أو نقصاناً، والصحيح من مذهب أصحابنا خلافه.(مجمع البيان:١/١٠.)

٧. قال أبو الفتوح الحسين بن علي الخزاعي الرازي(المتوفّى بعد ٥٥٢هـ): قوله تعالى: (وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ): أي إنّا له لحافظون من الزيادة والنقصان والزّوال والإبطال.(روض الجنان:٣/٢٣٤.)

٨. قال الشيخ نصير الدين عبد الجليل القزويني ثمّ الرازي(حيّاً حدود ٥٦٠هـ): إنّ نسبة الزيادة والنقصان إلى القرآن كانت بدعة وضلالة، وليس هذا مذهب الأُصولية من الشيعة الإمامية، فرواية بعض الغلاة أو الحشوية خبراً في ذلك لا يكون حجّة على الشيعة، كما يقال بالنسبة إلى عقائد الكرّاميّة في الحنفية، والمشبّهة في الشافعية.(النقض:٢٧٢.)

وقال: قال الله تعالى:(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)لا يستطيع أحد أن يتصرّف في عباراته وكلماته وحروفه،... وعقيدة الشيعة بصحّة القرآن وصدق قراءته صحيحة، لقوله تعالى: (لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ)(النقض:٥٢٦.).

شهادة جمع من علماء أهل السنة بصيانة القرآن من التحريف عند الشيعة

إنّ قسماً من كتّاب تاريخ العقائد والمفسّرين رموا الشيعة بالقول بالتحريف، وكان السبب في ذلك وجود بعض الروايات في كتب الحديث عندهم، ومع أنّ هذه الأحاديث التي تخالف القرآن يجب أن يضرب بها عرض الجدار ـ كما سيأتي تفصيله ـ إلاّ أنّ قسماً من علماء السنّة شهدوا ببراءة الشيعة من القول بالتحريف، نذكر منهم ما يلي:

١. قال الشيخ أبو الحسن الأشعري: اختلف الروافض في القرآن: هل زيد فيه أو نُقِص منه؟ وهم ثلاث فرق:

الفرقة الأُولى منهم يزعمون أنّ القرآن قد نقص منه، وأمّا الزيادة فذلك غير جائز أن يكون قد كان، وكذلك لا يجوز أن يكون قد غيّر منه شيء عمّا كان عليه، فأمّا ذهاب كثير منه فقد ذهب كثير منه، والإمام يحيط علماً به.

الفرقة الثالثة منهم(. سقط ذكر الفرقة الثانية من هذه الفرق في الأصل.): وهم القائلون بالاعتزال والإمامة، يزعمون أنّ القرآن ما نقص منه ولا زيد فيه، وأنّه على ما أنزل الله تعالى على نبيّه(صلى الله عليه وآله وسلم) لم يُغيّر ولم يبدّل، ولا زال عمّا كان عليه.(مقالات الإسلاميين:١/١١٤ـ ١١٥.)

أقول: لا يخفى ما في تعريف الشيخ للإمامية بقوله: «وهم القائلون بالاعتزال والإمامة» من الضعف، فإنّ الإمامية وإن كانوا يشاركون المعتزلة في التوحيد والعدل، ولكنّهم يفارقونهم في أُصول كثيرة.

٢. قال الشيخ رحمة الله بن خليل الرحمن الهندي الحنفي(المتوفّى ١٣٠٦هـ): إنّ القرآن المجيد عند جمهور علماء الشيعة الإمامية الاثني عشرية محفوظ عن التغيّر والتبديل، ومن قال منهم بوقوع النقصان فيه، فقوله مردود غير مقبول عندهم.

ثم قال: فظهر أنّ المذهب المحقّق عند علماء الفرقة الإمامية الاثني عشرية: أنّ القرآن الذي أنزله الله على نبيّه، هو ما بين الدفتين، وهو ما في أيدي الناس ليس بأكثر من ذلك وأنّه كان مجموعاً مؤلّفاً في عهد رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)، وحَفظَه ونقلَه أُلوف من الصحابة، كعبد الله بن مسعود وأُبيّ بن كعب وغيرهما، ختموا القرآن على النبيّ عدّة ختمات.

ويظهر القرآن ويشهر بهذا الترتيب عند ظهور الإمام الثاني عشر، والشرذمة القليلة التي قالت بوقوع التغيّر فقولهم مردود، ولا

اعتداد بهم فيما بينهم، وبعض الأخبار الضعيفة التي رويت في مذهبهم لا يرجع بمثلها عن المعلوم المقطوع على صحته وهو حقّ، لأنّ خبر الواحد إذا اقتضى علماً(كذا في المطبوعة، ولكنّ خبر الواحد إذا اقتضى علماً يكون حجّة وإن لم يدلّ عليه دليل من الكتاب والسنّة، فلعلّه أريد من العلم، الظنّ.)ولم يوجد في الأدلّة القاطعة ما يدل عليه، وجب ردّه على ما صرّح ابن المطهّر الحلّي في كتابه المسمّى«مبادئ الوصول إلى علم الأُصول».(إظهار الحق:٢/٢٠٦ـ٢٠٩، الفصل الرابع، طبعة المكتبة العصرية، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.)

٣. قال الشيخ محمد أبو زُهرة المصري(المتوفّى ١٣٩٤هـ): القرآن بإجماع المسلمين هو حجّة الإسلام الأُولى وهو مصدر له، وهو سجل شريعته، وهو الذي يشتمل على كلها، وقد حفظه الله تعالى إلى يوم الدين كما وعد سبحانه إذ قال: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) وإن إخواننا الإمامية على اختلاف منازعهم يرونه كما يراه كلّ المؤمنين.(المعجزة الكبرى:٢٩٦.)

٤. بسط الشيخ محمد الغزالي(المتوفّى ١٤١٦هـ) الكلام في دفاعه عن الشيعة في القول بعدم تحريف القرآن ننقل منه شيئاً موجزاً، يقول: إنني آسف لأن بعض من يرسلون الكلام على عواهنه، بل بعض من يسوقون التهم جزافاً غير مبالين بعواقبها، دخلوا في ميدان الفكر الإسلامي بهذه الأخلاق المعلومة حتى سمعت واحداً منهم يقول في مجلس علم: إنّ للشيعة قرآناً آخر يزيد وينقص عن قرآننا المعروف، فقلت له: أين هذا القرآن،...

ثم قال: إنّ العالم الإسلامي الذي امتدت رقعته في ثلاث قارات ظلّ، من بعثة محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) إلى يومنا هذا بعد أن سلخ من عمر الزمن أربعة عشرقرناً لا يعرف إلاّ مصحفاً واحداً مضبوط البداية والنهاية معدود السور والآيات والألفاظ، فأين هذا القرآن الآخر؟ ولماذا لم يطّلع الإنس والجنّ على نسخة منه خلال هذا الدهر الطويل؟ لماذا يُساق هذا الافتراء؟ ولحساب مَن تُفتعل هذه الإشاعات وتلقى بين الأغرار ليسوء ظنّهم بإخوانهم وقد يسوء ظنهم بكتابهم.(دفاع عن العقيدة والشريعة:٢١٩.)

٥. قال الدكتور الدراز: ومهما يكن من أمر، فإنّ هذا المصحف هو الوحيد المتداول في العالم الإسلامي ـ بما فيه فِرق الشيعة ـ منذ ثلاثة عشر قرناً من الزمان. ونذكر هنا رأي الشيعة الإمامية (أهم فرق الشيعة) كما ورد بكتاب أبي جعفر الصدوق.(مدخل إلى القرآن الكريم:٣٩، وقد مرّ ذكر كلام الصدوق.)

اهتمام المسلمين بالقرآن يمنع من وقوع التحريف

ما تقدّم من الأدلّة القرآنية أصدق دليل على امتناع التحريف، ويؤيّد ذلك ـ أعني: امتناع التحريف ـ اهتمام المسلمين بتعلّم القرآن وتعليمه وحفظه وكتابته في عصر الرسالة وبعده، ومثل هذا يمنع عن طروء التحريف والتبديل والزيادة والنقصان، وهذا هو الذي ذكره السيد المرتضى في هذا المقام وإليك نصّ كلامه:

قال: إنّ العلم بصحّة نقل القرآن كالعلم بالبلدان والحوادث الكبار، والوقائع العظام، والكتب المشهورة، وأشعار العرب المسطورة، فإنّ العناية اشتدّت، والدّواعي توفّرت على نقله وحراسته، وبلغت إلى حدّ لم يبلغه]غيره[فيما ذكرناه، لأنّ القرآن معجزة النبوّة، ومأخذ العلوم الشرعية والأحكام الدينية، وعلماء المسلمين قد بلغوا في حفظه وحمايته الغاية، حتى عرفوا كلّ شيء اختُلف فيه من إعرابه وقراءته وحروفه وآياته، فكيف يجوز أن يكون مغيّراً أو منقوصاً مع العناية الصادقة والضبط الشديد؟!

وقال: إنّ العلم بتفسير القرآن وأبعاضه في صحّة نقله كالعلم بجملته، وجرى ذلك مجرى ما عُلم ضرورة من الكتب المصنّفة ككتاب سيبويه والمُزَني، فإنّ أهل العناية بهذا الشأن يعلمون من تفصيلهما ما يعلمونه من جملتهما حتّى لو أنّ مُدخلاً أدخل في كتاب سيبويه باباً في النحو ليس من الكتاب، لعُرف ومُيّز وعُلم أنّه ملحق وليس من أصل الكتاب. وكذلك القول في كتاب المُزَني. ومعلوم أنّ العناية بنقل القرآن وضبطه أصدق من العناية بضبط كتاب سيبويه ودواوين الشعراء.

ثم قال: إنّ القرآن كان على عهد رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) مجموعاً مؤلَّفاً على ما هو عليه الآن، لأنّ القرآن كان يُدرَس ويحفظ

جميعه في ذلك الزمان حتّى عيّن النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) على جماعة من الصحابة في حفظهم له، وأنّه كان يُعرض على النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) ويُتلى عليه، وأنّ جماعة من الصحابة مثل عبد الله بن مسعود وأُبيّ بن كعب وغيرهما ختموا القرآن على النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) عدّة ختمات، وكلّ ذلك يدلّ بأدنى تأمّل على أنّه كان مجموعاً مرتّباً، غير مبتور ولا مبثوث.

وقال أيضاً: إنّ من خالف في ذلك من الإمامية والحشوية، لا يعتدّ بخلافهم، فإنّ الخلاف في ذلك مضاف إلى قوم من أصحاب الحديث نقلوا أخباراً ضعيفة ظنّوا صحّتها لا يرجع بمثلها عن المعلوم المقطوع على صحّته.(مجمع البيان:١/١٨ـ ١٩، نقله عن الشريف المرتضى.)

هذا موجز القول في نفي التحريف عن كتاب الله العزيز والتفصيل تجده في مقدّمتنا لهذا التفسير المعنونة بـ: «العلوم القرآنية».

العاشرة إلى الخامسة عشرة(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ... نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ).

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ * وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُول إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ * لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ * وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ).

المفردات

شِيَع: فِرَق، وأصله من المشايعة وهي المتابعة، يقال: شايع فلان فلاناً أي تابعه على أمر، ومنه شيعة عليّ(عليه السلام) وهم الذين تابعوه على أمره ودانوا بإمامته.

نسلكه: السلوك: النفاذ في الطريق، يقال: سلكت الطريق. والمعنى: نُدخله في قلوب المجرمين.

يعرجون: العروج: الصعود في الدّرَج.

سُكّرت: قال الرّاغب: السُّكْر: حالة تعرض بين المرء وعقله، وأكثر ما يُستعمل ذلك في الشّراب، وقد يعتري من الغضب والعشق(المفردات للراغب:٢٣٦، مادة «سكر».)، وأُريد هنا سُدّت وأُغلقت.

مسحورون: أي ما رأيناه هو من تخيّلات المسحور، ليس له واقعية.

التفسير

١٠.(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ):

موقف الأُمم الماضية من رُسل الله

لمّا وصف المشركون النبيَّ الخاتم(صلى الله عليه وآله وسلم) بما مرّ في الآية السادسة، جاء البيان القرآني ليُقرِّر أنّ إطلاق هذا النمط من التُّهم ليس أمراً جديداً؛ بل مارسته الأُمم الماضية، وفي ذلك تطييب لنفس النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)وتسلية له، فقال: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا) حُذف المرسَل لوضوحه أي: رسلاً (مِنْ قَبْلِكَ) يا محمد (فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ): أي فِرَق الأوّلين. والشِّيَع ـ كما قلنا ـ هم الأتباع. والمشايعة إمّا أن تكون عن بصيرة كما في قوله سبحانه: (وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ)(الصافات:٨٣.)، أو عن غير بصيرة ـ كما في المقام ـ وهم الذين شايعوا قادتهم من غير برهان، بل عن عميً. وما ربّما يقال من أنّ الشيعة استُعمل في القرآن في التبعية غير الصحيحة، فهو تحكّم، بل الناس كلّهم شيعة إمّا للحقّ، وهم الذين تبعوا الأنبياء والرُّسل، وإمّا للضلال والباطل، كما لو تبعوا قادة الضلال بلا دليل وبرهان. وسيأتي في تفسير قوله سبحانه:(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ)(البيّنة:٧.)، أنّ النبي الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم)وصف أتباع عليّ بالشيعة وقال:«يا علي أنت وشيعتك هم الفائزون». فانتظر.

١١. (وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُول إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ):

لمّا دلّت الآية السابقة بدلالة خفيّة على موقف الأُمم الماضية السلبيّ من رُسُل الله تعالى، جاءت هذه لتبيّن كيفية معارضتهم قائلة:(وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُول) التنكير في سياق النفي يفيد العموم خصوصاً إذا كان مقروناً بـ«من» كما في المقام، (إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) فتلك هي سبيل الأُمم الماضية مع الرُّسل.. الاستهزاء بهم السخرية منهم. ولفظة (كَانُوا) دليل على استمرار الاستهزاء وأنّه صار سنّة بينهم وسجيّة راسخة لهم.

١٢ و ١٣. (كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ * لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ):

قد فسّرت الآيتان بوجوه، ورفعُ الإبهام رهن بيان أُمور:

١. ما هو المشار إليه بقوله:(كَذَلِكَ)؟

٢. ما هو المرجع للضمير في قوله:(نَسْلُكُهُ)؟

٣. ما هو المرجع في قوله: (لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ)؟

٤. هل الباء في قوله: (لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ) للتعدية، أو للسببية؟

أقول: إنّ الضمائر الثلاثة الأُولى ترجع إلى أمر واحد، وهو الذِّكر المتقدّم في قوله: (يَا أَيُّهَا الذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ) والتفكيك بين الضمائر على خلاف السياق. وعلى هذا فمعنى الآية (كَذَلِكَ)(نَسْلُكُهُ): أي مثل السَّلك الذي سنصفه، نسلك الذِّكر في قلوب المجرمين ونولج القرآن في عقول المشركين حتى يسمعوا ويعقلوا ويدركوا، وما هذا إلاّ إتماماً للحجّة وتأكيداً على البيان والبلاغ، ولكن هؤلاء، بسبب عنادهم واقترافهم للمآثم، لا يؤمنون به كما يقول: (لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ) أي بالذّكر والقرآن (وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ): أي مضت قبلكم عادتهم المألوفة، وهي معارضة الرُّسل و التولّي عن دعوتهم. هذا هو المعنى المتبادر من الآيتين. وهناك قولان آخران:

١. إنّ الضميرين في(كَذَلِكَ) و(نَسْلُكُهُ) يرجع إلى الاستهزاء الذي ورد ذكره في الآية المتقدّمة، والباء للسببيّة، والمعنى: كذلك ننفذ الاستهزاء في قلوب المجرمين، لا يؤمنون بسبب الاستهزاء.

يلاحظ عليه: أنّ إنفاذ الاستهزاء في قلوب المجرمين يسبّب الجبر، الذي ينبغي أن يُنزَّه الله تعالى عنه، خصوصاً إذا فسّر عدم إيمانهم بالاستهزاء الذي أنفذه سبحانه في قلوبهم.

ومنه يظهر ضعف المعنى الآخر وهو:

٢. جعل الضميرين للشّرك، أي يسلك الشّرك في قلوب المجرمين، لا يؤمنون بسبب الشّرك.

وعلى هذا فيكون مفاد الآية قريباً ممّا جاء في سورة يونس:(أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُل مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْق عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ).(يونس:٢.)

١٤ و ١٥. (وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ):

اقتراح المشركين نزول الملائكة

لمّا تذرّع المشركون ـ في عدم إيمانهم بالذّكر ـ بأنّه لو كان صادقاً في نزوله عليه فليأتنا بالملائكة حتى يصدّقوه ويتمّ علينا الحجة، جاء البيان القرآني لإبطال معذرتهم، بأنّا لو قمنا بذلك، ورأوا الملائكة عياناً لبقوا على كفرهم وجحدهم، كما جحدوا سائر المعجزات.

وحاصل الكلام: إنّ ما تذرّعوا به إنّما هو واجهة يُخفون وراءها عنادهم وطبيعتهم الإجرامية، فهم لا يؤمنون حتى لو أتى النبيّ بكلّ آية مبصرة.

هذا هو مفهوم الآية، وأمّا بيان فقرات تلك الآيتين فبالوجه التالي، قال سبحانه:(وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ) ماذا يُريد سبحانه من قوله: (بَابًا مِنَ السَّمَاءِ)، فالسيد الطباطبائي على أنّ المراد: إيجاد طريق يتيسّر لهم به الدخول إلى العالم العلوي الذي هو مأوى الملائكة، وليس كما يُظنّ سقفاً جرمانياً له باب ذو مصراعين يفتح ويغلق.(الميزان في تفسير القرآن:١٢/١٣٦.)

ويحتمل أن يُراد الباب الحقيقي المناسب للمورد ؛ وذلك لأنّ السماء مخزن الرحمة والعذاب، فظاهر القرآن أنّ لكلّ باباً، قال سبحانه: (حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ)(المؤمنون:٧٧.)، وقال سبحانه: (فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ)(القمر:١١.)، وفي آية ثالثة: (إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ)(الأعراف:٤٠.)، كلّ ذلك يدلّ على أنّ السماء بما أنّها تحتوي عظائم الأُمور فلكلّ باب، والكيفية مجهولة.

قوله سبحانه:(فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ) الضميران المتّصلان في كلا الفعلين يرجعان إلى المشركين بقرينة قوله:(وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ) وعلى هذا فالمعنى: لو فتحنا باب السماء واستطاع هؤلاء المشركون، من خلاله، العروج حتى يصلوا إلى مأوى الملائكة ويرَوا بأُمّ أعينهم ما هو المطلوب منهم لَما آمنوا، و(لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا)!! ماذا يراد من قوله: (سُكِّرَتْ)؟ فيه وجهان:

١. من السَكر (بالفتح)، أي سُدّت أبصارنا.

٢. من السُّكر (بالضمّ)، أي ضدّ الصحو.

فعلى الأوّل يعتذرون بسدّ الأبصار فلا ينفذ إليها النور حتّى يدركوا الأشياء على حقيقتها، وعلى الثاني بتخيّلهم. والظاهر هو الثاني بقرينة قوله بعده:(بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ)، فمحمد سَحَرنا كما سَحَرنا بسائر آياته.

ومهما يكن، فما تستهدفه الآيتان، هو وصف شدّة عنادهم ومكابرتهم.

السادسة عشرة إلى الثانية والعشرين(وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا ... وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ).

(وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ * وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ * إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ* وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ * وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ * وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ * وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ).

المفردات

بروجاً: مفرده بُرج، وهو من التبرُّج أي الظهور يقال: تبرَّجت المرأة إذا أظهرت زينتها، قال سبحانه مخاطباً أزواج النبيّ:(وَلاَ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى)(الأحزاب:٣٣.) ويُطلق لفظ «البُرج» على القصر أو البناء المرتفع لأجل ظهور كلٍّ منهما.

رجيم: المرجوم، والرَّجم هو الرمي بالشيء من غير آلة مهيئة للإصابة، وأُريد هنا المطرود.

استرق: من الاستراق (المأخوذ من السرقة)، وهو الاستماع بخفية من المتحدّث، كأن المستمع يسرق من المتكلّم كلامه الذي يخفيه عنه .

فأتبعه: تبعه، فالفعل المتعدّي بمعنى اللازم نظير قوله: أبان بمعنى: بانَ.

مددناها:المدّ: البسط.

رواسي: جمع راسية، يقال: رسا الشيء، أي ثبت، والمراد بها الجبال.

موزون: مقدّر، معلوم.

معايش: ما يعيش به الإنسان والحيوان من مطاعم ومشارب.

لواقح: الظاهر أنّه جمع مُلْقِح وهو الذي يجعل غيره لاقحاً كالفحل إذا ألقح الناقة. وسيجيء ما هو المراد من إلقاح الرّياح.

بخازنين: حافظين.

التفسير

لمّا فرغ سبحانه من بيان التُّهم التي أُلصقت بالذّكر الحكيم ومَن أُنزل عليه، وفنّدها بأوضح الوجوه، انتقل إلى بيان دلائل توحيده سبحانه خلقة وتدبيراً، في محاور ثلاثة:

١. السماء وما فيها من المناظر البهيجة.

٢. الأرض وما فيها من الجبال والنبات وضروريات الحياة.

٣. الرّياح اللّواقح التي تسبّب نزول المطر.

وإليك تفسير ما في هذه المحاور من آيات.

١٦. (وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَ زَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ):

أخبر الله تعالى بأمرين:

أ. خلق في السماء بروجاً، قال: (وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا).

ب. أنّه سبحانه زيّن السماء للناظرين، قال: (وَ زَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ).

أمّا السماء فهي من السُّموّ بمعنى العُلوّ، حتى سمّي المطر سماءً لخروجه منها، قال الراغب: كلّ سماء بالإضافة إلى ما دونها فسماء، وبالإضافة إلى ما فوقها فأرض.(المفردات: ٢٤٣، مادة «سما».)

وعلى كلّ تقدير فقد أريد من السماء في الآية ما يقع تحت أعين الناس ونواظرهم.

إنّما الكلام فيما هو المراد من البروج، ففيه قولان:

١. المراد بالبروج هو النجوم والكواكب لأنّها بمنزلة القصور المترائية من بعيد. ولا بأس بإطلاق البروج على النجوم إمّا لظهورها أو تشبيهاً لها بالقصور لارتفاعها. والغرض هو التدبُّر في قدرة الله تعالى وحكمته، وما في السماء من الدقّة والتنظيم والجمال.

٢. المراد بها منازل الشمس والقمر، وهو خيرة السيد الطباطبائي، قال: سمّيت بها منازل الشمس والقمر باعتبار الحسّ تشبيهاً لها بالقصور التي ينزلها الملوك.(الميزان في تفسير القرآن:١٢/١٣٨.)

توضيحه: أنّ الفلكيّين يطلقون البروج على منازل القمر، حيث إنّه يسير في كلّ برج منها يومين وثلث يوم، فذلك ثمانية وعشرون يوماً ثم يستتر.

وأمّا منازل الشمس، فهي أنّ الشمس في مسيرها خلال سنة تقابل في كلّ شهر مجموعة من الكواكب التي يتخيل أنّها بصورة الحمل أو الثور أو الجوزاء أو السرطان... إلخ، فقال القائل: إنّ المراد بالبروج هو ما ذُكر.

أقول: الظاهر أنّ البروج لها واقعية، قال سبحانه:(أَيْنَ مَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ)(النساء:٧٨.)، وعلى ما ذكر ليس هناك بروج في الحقيقة وإنّما يتخيّل الإنسان أنّ الشمس في كلّ شهر تقابل برجاً على شكل صورة حيوان، وعلى هذا فتفسير الآية بالبروج المتخيَّلة بعيد، بخلاف ما إذا فسّر البروج بمعنى الكواكب، فالكلّ بروج وقصور تتراءى من فوق.

هذا كلّه حول الأمر الأوّل. وأمّا الأمر الثاني، فقد أشار إليه بقوله: (وَ زَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ)، والضمير يرجع إلى السماء، فالله سبحانه زيّن السماء بهذه الكواكب، وهو أمر محسوس، حيث إنّ النجوم الزاهرة والكواكب اللاّمعة على اختلاف لمعانها وفواصلها تشبه مصابيح معلّقة في الهواء، قال سبحانه:(وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ)(السجدة:١٢.)، وقال تعالى: (إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ

الْكَوَاكِبِ).(الصافات: ٦.)

١٧ و ١٨. (وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ * إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ):

يظهر ممّا نقله المفسّرون وغيرهم أنّه كان لكلّ كاهن شيطان يصعد إلى السماء فيستمع من الملائكة ما يتحدّثون به عن أهل الأرض، ثم ينزل الشيطان إلى الكاهن فيخبره به، والكاهن يذكره للناس، وآيتنا هذه كسائر الآيات تدلّ على خلاف ما اشتهر لأنّ الشياطين أعجز من أن يكون لهم هذا الشأن، كما يقول:(وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ) وقد أُشير إلى هذا في آية أُخرى، أعني قوله تعالى: (وَ حِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ * لاَ يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلأِ الأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ * دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ)(الصافات:٧ـ٩.).

ثمّ إنّه سبحانه استثنى صورة واحدة وقال: (إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ)والاستراق ـ كما قلنا ـ الاستماع بخفية، ومع ذلك لا يُمْهَل المُسترق بل يُرجم كما قال: (فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ) وفي آية أُخرى: (إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ).(الصافات:١٠.)

ثمّ إنّ الظاهر ممّا ورد من الآيات في سورة الجنّ أنّهم كانوا يصعدون إلى قريب من ذلك المكان ويسمعون صوتاً وكلاماً ثم ينزلون به، وكان هذا مستمراً إلى بعثة النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) ولكنّهم بعد ذلك مُنعوا من الاستماع بالحفظة والشُّهب، فالحفظة يمنعونهم من ورود ذلك المكان، والشُّهب ترميهم لتهلكهم، وإلى هذا يشير قولهم: (وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ)(الجن:٨.)، وبما أنّ اللّمس باليد أقوى إحساساً فشُبّه إحساسهم بالمنع، باللّمس باليد (فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا)(الجن:٨.) فالحرس يمنعهم من الورود كما هي وظيفة كلّ حارس، والشُّهب ترميهم وتطردهم.

ثمّ إنّ الشّهاب المعروف عندنا عبارة عن شريط لامع من الضوء يُرى لبرهة قصيرة في السماء، وتحدث الشُّهب عندما تدخل قطع معدنية أو حجرية تسمّى (النّيزك)الغلاف الجوي من الفضاء الخارجي ويؤدي احتكاكها بالهواء إلى ارتفاع درجة حرارتها بحيث تتوهّج وتنتج ذيلاً من الغازات المتوهجة الحارّة، وتسمّى النيازك التي تصل الأرض قبل أن تحترق (الرُّجوم).

وهذا هو ابن فارس يفسر الشّهاب بقوله: هو شعلة نار ساطعة.(مقاييس اللغة: ٣/٢٢٠، مادة «شهب».) وفي اللّسان: الشُّهب في الأصل: الشعلة من النار.(لسان العرب:١/٥١١، مادة «شهب».)

وفي المفردات: الشّهاب: الشعلة الساطعة من النار المُوقَدة.(المفردات للراغب: ٢٦٧، مادة «شهب».)

وعلى هذا فتطبيقها على الشّهاب الموجود في الجوّ من باب تطبيق الكلّي على الفرد، لا أنّه وضع لخصوص هذا كما ربّما يتوهّم ؛ بل الموضوع له أعمّ، وهذا من أحد مصاديقه. ومن الممكن أن تكون في الملأ الأعلى شعلة ساطعة تناسب تلك البيئة تحرق كلّ مَن استرق السمع. والآية من الأخبار الغيبية التي يجب الإيمان بها.

إجابة عن سؤال

هذا لما ربما يقال: إنّ موضع هذه الشهب هو الغلاف الجويّ، ولا صلة له بالملأ الأعلى الذي تسكنه الملائكة، فليس هناك أي خبر من الشهب.

والجواب: أنّه فسّر الشهاب بالآية بالمصطلح في لسان العامّة ولا خلاف أنّ محلّه هو الغلاف الجويّ، وأمّا الشهاب في القرآن وفي اللغة هو الشعلة الساطعة من دون تقيّد بكونه في الغلاف الجويّ أو غيره ولا مانع من أن تكون هناك شعلة ساطعة تحرق المسترق.

وسيوافيك تفسير ذلك في سورة الصافات الآية ١٠، والجن الآية ٩.

وبهذا تمّ الكلام في المورد الأوّل.

١٩. (وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ):

هذه الآية تتضمّن تبيين أُمور ثلاثة:

١. مدّ الأرض.

٢. إلقاء الرواسي فيها.

٣. إنبات كلّ شيء موزون في الأرض.

أمّا الأمر الأوّل، وهو بَسْط الأرض ومدُّها، فقد أخبر عنه سبحانه في آية أُخرى وقال:(وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا * لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا)(نوح:١٩ـ٢٠.) وقال أيضاً: (وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا)(النازعات:٣٠.) أي بَسَطها ومدَّها، وهنا سؤالان:

السؤال الأوّل: أثبتت العلوم الحديثة أنّ الأرض كرويّة، أو على شكل كرة، فهل ينافي ذلك قوله: (مَدَدْنَاهَا) ؟ والجواب: لا، لأنّ الجسم ـ سواء أكان كروياً أم لا ـ إذا كبر حجمه كانت كلّ جهة منه ممتدّة ومتّسعة في أبعادها، ولا ينافي ذلك كونها على شكل الكرة. وبمثل هذا يجاب عن قوله سبحانه:(وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ)(الغاشية:٢٠.)، فإنّه لا ينافي كون الأرض كروية أو شبه كروية، لأنّ لكلّ جسم كبير سطحاً، ولا تخلو منه كرة الأرض الكبيرة.

السؤال الثاني: ماذا يراد من المدّ؟ ظاهر الكلام أنّ كرة الأرض كانت بشكل كتلة متماسكة فرفع سبحانه التماسك بالمدّ. وربما يفسّر بأنّه يراد به إخراج القسم اليابس من الأرض من تحت الماء، لأنّ سطح الأرض ـ كما هو معلوم ـ كان مغطّى بالمياه بشكل كامل نتيجة للأمطار الغزيرة، واستقرّت المياه على سطح الأرض بعد أن مرّت السنين الطويلة على انقطاع الأمطار، وبشكل تدريجي ظهرت اليابسة من تحت الماء، وهو ما تسمّيه الروايات بـ «دحو الأرض».(الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل:٨/٤٦.)

وأمّا الأمر الثاني أعني: «جعل الرّواسي»، والرّواسي ـ كما قلنا ـ جمع راسية، أي ثابتة، ولكن غلب في الاستعمال على الجبال، فأشار إليه بقوله: (وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ) ولعلّ وصف جعل الجبال في الأرض بتعبير الإلقاء فيه إشارة إلى أنّ تكوّن الجبال يتمّ بعمليات إلقاء لموادّها الّتي تشكّل كتلاً جبلية أو سلاسل جبلية.(انظر: من آيات الإعجاز العلميّ.. الأرض في القرآن الكريم للدكتور زغلول النجّار: ٢٥٢ .) ودور الجبال الأساسي ـ كما يشير التعبير عنها بالرّواسي ـ هو تثبيت الأرض، والتقليل من درجة ترنّحها في دورانها حول محورها، وبذلك أصبحت صالحة للحياة والعمران. وقد أكّد القرآن على دورها هذا في آيات عديدة، كقوله تعالى: (وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ)(الأنبياء: ٣١ .)، كما أشار إلى هذا الدّور الإمام علي(عليه السلام)بقوله: «وَوَتَّدَ بِالصُّخُورِ مَيَدَانَ أَرْضِهِ».(نهج البلاغة: الخطبة ١.)

وسيوافيك الحديث عن هذا الدور الأساسي للجبال وعن سائر أدوارها، كدورها في تخزين المياه، عند تفسير الآيات الّتي تشير إلى ذلك في السُّور الآتية.(لاحظ : النّحل: ١٥، الأنبياء: ٣١، لقمان: ١٠، ق ٧، المرسلات: ٢٧، وغيرها.)

ما هو المراد من إنبات كلّ شيء موزون؟

وأمّا الأمر الثالث، فأشار إليه بقوله تعالى: (وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ)، فما هو المراد من إنبات كلّ شيء موزون في الأرض؟

قيل في المراد بهذه الفقرة ثلاثة وجوه:

الأوّل: المراد بأنّه مقدّر بقدر الحاجة، قال القاضي: وهذا الوجه أقرب لأنّه تعالى يعلم المقدار الذي يحتاج إليه الناس وينتفعون به، فينبت الله تعالى في الأرض ذلك المقدار.

الثاني: أنّ أهل العرف يقولون: فلان موزون الحركات إذا كانت حركاته متناسبة مطابقة للحكمة، كما يقال: هذا الكلام كلام موزون إذا كان متناسباً بعيداً عن اللّغو، فالموزون كناية عن الحُسن والتناسب، أي أنبتنا فيها من كلّ شيء موزون أي متناسب

محكوم عليه عند العقول السليمة بالحسن واللطافة.(تفسير الرازي:١٩/١٧٢)
الثالث: بما أنّه سبحانه في مقام بيان قدرته فيراد به أنّ كلّ ما ينبت في الأرض له وزن وقدر خاص، وقد ثبت أخيراً أنّ كلّ نوع من أنواع النبات مركّب من أجزاء خاصّة على وزن مخصوص، بحيث لو زيد في بعض أجزائه أو نقص لكان ذلك مركّباً آخر. وإنّ نسبة بعض الأجزاء إلى بعض من الدقّة بحيث لا يمكن ضبطها تحقيقاً بأدنى الموازين المعروفة للبشر.
وبكلمة أُخرى: أنّه قد روعي في خلقة كلّ شيء ما هو اللاّزم من المواد والعناصر، وما هو المناسب من الشكل والصورة، بحيث لو طرأ التغيير في جزء منه لانقلب إلى شيء آخر. والفرق بين المعنى الثاني والثالث هو أنّ الثاني يركّز على اللطافة الخارجية والحُسن الظاهري، بينما يركّز الثالث على ما هو قوام الشيء، والله العالم.
٢٠. (وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ):
الآية تشتمل على فقرتين:
الأُولى: قوله تعالى: (وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ): أي جعل للإنسان في الأرض أسباب العيش من الزراعة والتجارة والصناعة، ومكّنه منها.
الثانية: قوله تعالى: (وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ) وهي تشير إلى أنّ قسماً من الحيوانات يرزقها الإنسان كالحيوانات الأهلية، وهناك ما يعيش بلا رعاية الإنسان، كالوحوش وغيرها، فالله سبحانه يعدّ نفسه رازقاً للإنسان ولمن ليس الإنسان رازقاً له، وعلى هذا فقوله: (وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ)معطوف على الضمير في (لَكُمْ). وتقدير الآية: وجعلنا لكم ولمن لستم له برازقين، فيها معايش.
فإن قلت: كيف يجوز عطف(وَمَنْ لَسْتُمْ) على الضمير المجرور في (لَكُمْ) مع عدم عَود الخافض في حين أن المعروف عند النحويّين أنّ العطف على الضمير المجرور لا يجوز إلاّ بإعادة الضمير؟
قلت: نعم هذا هو المعروف، قال ابن مالك:

وعَود خافض لدى العطف على *** ضمير جرٍّ لازماً قد جُعلا

ومع ذلك، فابن مالك على خلاف هذه القاعدة، حيث يقول:

وليس عندي لازماً إذ قد أتى *** في النّظم والنّثر الصحيح المُثبتا

ويشهد لذلك قوله سبحانه:(وَاتَّقُوا اللّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ)(النساء:١.)، حيث إنّ الأرحام معطوفة على ضمير الجرّ بلا عَود الخافض. على أنّ القرآن ينبغي أن يكون هو المحور في بيان الضوابط لا قول الآخرين.
ثمّ إنّ تصوير كون عيش بعض الحيوانات على الإنسان والقسم الكبير على الله إنّما هو بحسب الظاهر، وإلاّ فالرّازق على الإطلاق حتى للأطفال الرُّضَّع والدّواجن في بيوت الإنسان والأنعام في مرابطها وحظائرها، هو الله سبحانه .
٢١. (وَإِنْ مِنْ شَيْء إِلاَّ عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَر مَعْلُوم):
لمّا تقدّم قوله سبحانه أنّه أنبت في الأرض من كلّ شيء موزون، اقتضى الكلام أن يبيّن منشأ هذه الأشياء الموزونة وآيتنا هذه هي الّتي تكفّلت ببيانه، وهي تشتمل على فقرتين:
١. (وَإِنْ مِنْ شَيْء إِلاَّ عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ).
٢. (وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَر مَعْلُوم).
وكلّ من الفقرتين تستهدف معنىً خاصّاً.

تفسير الخزائن لكلّ شيء

أمّا الفقرة الأُولى فظاهر معناها أنّ الأشياء الموجودة في الأرض لها خزائن وهي عند الله سبحانه .

وأمّا الفقرة الثانية فكأنّها وجود إجمالي لا ينفد، والأرض من الجماد والنبات والحيوان وجود تفصيلي لهذا المجمل، نظير المَلَكة لعلم خاصّ فهي وجود إجماليّ للأجوبة الّتي تصدر عنها، مثلاً إذا سئل عن الفاعل، والمفعول، والمضاف إليه، يقول: كلّ فاعل مرفوع، وكلّ مفعول منصوب، وكلّ مضاف إليه مجرور، فهذه الأجوبة موجودة في الملكة على نحو إجماليّ. هذا هو ظاهر الآية، ومع ذلك اختلفت كلمة المفسِّرين في تفسيرها على أقوال:

الأوّل: ما نقله الرازي عن عامّة المفسِّرين من أنّ المراد من قوله تعالى:(وَإِنْ مِنْ شَيْء إِلاَّ عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ)هو المطر وذلك لأنّه هو السبب للأرزاق ولمعايش بني آدم وغيرهم من الطيور والوحوش، فلمّا ذكر تعالى أنّه يعطيهم المعايش، بيّن أنّ خزائن المطر، الذي هو سبب المعايش، عنده، أي في أمره وحكمه وتدبيره.(تفسير الرازي:١٩/١٧٤.)

يلاحظ عليه:

أوّلاً: أنّ تخصيص (شَيْء) بالمطر لا يناسب ظاهر الآية خصوصاً أنّ النَّكرة في سياق النفي تفيد العموم.

وثانياً: أنّ ذيل كلام الرازي ظاهر في أنّه ليس هناك خزائن، وإنّما الكلّ يوجد بأمره وحكمه وتدبيره.

الثاني: ما اختاره الرازي وقال: إنّ المراد أنّ جميع الممكنات مقدورة له ومملوكة يخرجها من العدم إلى الوجود كيف شاء إلاّ أنّه تعالى وإن كانت مقدوراته غير متناهية، إلاّ أنّ الذي يخرجه منها إلى الوجود يجب أن يكون متناهياً، لأنّ دخول ما لا نهاية له في الوجود، محال.

وعلى هذا، فقوله: (وَإِنْ مِنْ شَيْء إِلاَّ عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ) إشارة إلى كون مقدوراته غير متناهية، وقوله: (وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَر مَعْلُوم) إشارة إلى أنّ كلّ ما يدخل منها في الوجود فهو متناه.(تفسير الرازي:١٩/١٧٤.)

يلاحظ عليه: أن توغّل الرازي في الحكمة والكلام صار سبباً لحمل الآية على قاعدة فلسفية مركّبة من شيئين:

١. عدم تناهي مقدوراته تعالى.

٢. تناهي ما خرج من العدم إلى الوجود.

الثالث: أنّ الآية من قبيل الاستعارة التمثيلية، حيث شبّهت هيئة إيجاد الأشياء النافعة بهيئة إخراج المخزونات من الخزائن على طريقة التمثيلية المَكنية، ورُمز إلى الهيئة المشبّه بها بما هو من لوازمها وهو الخزائن، وتقدّم عند قوله تعالى:(قُلْ لاَ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ)(الأنعام:٥٠.).(التحرير والتنوير: ١٣ / ٢٩.)

وعلى ما ذكره، فليس هناك أي خزينة يخرج منها الشيء المخزون، بل الآية استعارة تمثيلية لبيان واقع سعة قدرة الله سبحانه في إيجاد الأشياء على سعتها كإخراج المخزون من الخزائن.

الرابع: ما نقله السيد الطباطبائي عن بعض معاصريه من المفسِّرين، وحاصله: أنّ المراد بالخزائن: العناصر المختلفة التي تتألف منها الأرزاق وغيرها وقد أعدّ الله منها في عالمنا المشهور كمّية عظيمة لا تنفد بعروض التركيب، والأسباب الكلّية التي تعمل في تركّب المركبات كالضوء والحرارة والرياح الدائمة المنظّمة وغيرها التي تتكون منها الأشياء التي يحتاج إليها الإنسان في إدامة حياته وغيره.

فكلّ من هذه الأشياء مدّخرة بأجزائها والقوى الفعّالة فيها في تلك الخزائن غير القابلة للنفاد من جهة عظمة مقداره ومن جهة ما يعود إليه من الأجزاء الجديدة بانحلال تركيب المركبات بموت أو فساد ورجوعها إلى عناصرها الأوّلية، فالنبات يفسد والحيوان

يموت فتعود عناصرهما بانحلال التركيب إلى مقارّها ويتّسع بذلك المكان لكينونة نبات وحيوان آخر يخلفان سلفهما.

ثم قال: وعلى هذا فمراد الآية بالشيء هو نوعه لا شخصه والمراد بخزائنه مجموع ما في الكون من أُصوله وعناصره وأسبابه العامّة المادّية ومجموع الشيء موجود في مجموع خزائنه لا في كلّ واحد منها، والمراد بنزوله بقدر معلوم كينونة عدد محدود منه في كلّ حين من غير أن يستوفي عدد جميع ما في خزائنه.(الميزان في تفسير القرآن:١٢/١٤١.)

ولو صحّ ذاك الوجه، لاتضح معنى الفقرة الثانية، أعني قوله تعالى: (وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُوم).

٢٢. (وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ):

دراسة كون الرّياح لقواح

يذكر سبحانه هنا، وهو في صدد الاستدلال على كمال قدرته ووحدانيّته في ربوبيّته وامتنانه على عباده، يذكر بعض أسباب الرّزق، فيقول: (وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ)، هل الآية ناظرة إلى لقاح النباتات بوساطة الرياح، أو إلى لقاحها للسَّحاب. وأنّه لا صلة للآية بدورها في تلقيح النباتات وإن كان أمراً ثابتاً؟

أصرّ السيد الخوئي على المعنى الأوّل، قائلاً: إنّ التنبيه على المعنى الثاني ليس فيه كبير اهتمام ولا سيما بعد ملاحظة أنّ الرّياح لا تحمل السَّحاب، وإنّما تدفعه من مكان إلى مكان آخر.(البيان في تفسير القرآن: ١/٧١.)

وممّن ذهب إلى المعنى الأوّل من المفسّرين القدامى، عليّ بن إبراهيم القمّي (المتوفّى بعد ٣٠٧ هـ) الّذي قال ـ في تفسير هذه الفقرة ـ : الّتي تلقّح الأشجار.(تفسير القمّي: ١ / ٣٧٧.)

أقول: إنّ تلقيح النباتات بواسطة الرّياح أمر مسلّم به، حيث تحمل الرياح حبوب اللِّقاح وتنقلها من الازهار الذكور إلى الأزهار الإناث، وربما يقوم الإنسان بهذا العمل كما هو الحال في النخل حيث إنّ عملية التأبير عبارة عن نقل طلع النخيل الذكور إلى النخيل الإناث، ولكنّ الآية ـ على الأرجح ـ غير ناظرة لهذا النوع من اللّقاح بشهادة أنّه ترتّب على قوله:(وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ) قولُه : (فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ)ولو كانت ناظرة إلى لقاحها للنباتات لوجب أن يترتّب عليه ظهور الأثمار والأزهار العطرة.

إذا عرفت ذلك فاعلم أنّ في تفسير الآية وجهين:

الأوّل: أن يقال أنّ لواقح جمع لاقح وهي الناقة الحبلى، وأُطلق على الرّياح المشبعة ببخار الماء لأنّها تحمله وتنقله إلى أجواء باردة، فيتكاثف مشكّلاً السّحاب الّذي تتساقط منه قطرات المطر. وعلى هذا فليس في الآية إشارة إلى اللّقاح المصطلح، وإنّما فيها تشبيه للرّياح بالحوامل لكون المطر من نتائجها .

الثاني: أنّ اللّواقح جمع ملقح وهو الذي يجعل غيره لاقحاً كالفحل إذا ألقح الناقة.

وأمّا عملية اللّقاح فهو أنّ الرّياح تلقِّح السَّحاب بالماء بتوجيه عمل الحرارة والبرودة متعاقبين فينشأ عن ذلك البخار الذي يصير ماءً في الجو ثم ينزل مطراً على الأرض.(التحرير والتنوير: ١٣ / ٣١.)

أقول: تنشأ الأمطار من بخار الماء في الغلاف الجوي، ويتكون بخار الماء عندما تسبّب حرارة الشمس في تبخُّر الماء من المحيطات وغيرها من المسطّحات المائية، فإذا حملته الرّياح وأصبح البخار من الثقل بحيث لا يستطيع الهواء حملها، تسقط على شكل قطرات مطر، فلعلّ العملية الّتي يجري فيها حمل الرّياح البخار وإثارة السّحاب وسقوط الماء منها بشكل قطرات، هو المراد من اللّقاح. وسيوافيك توضيح ذلك في تفسير سورة النور.(لاحظ : النور: ٤٣.)

قوله تعالى:(فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ): أي أسقيناكم ذلك الماء ومكنّاكم منه. ثم أشار سبحانه بقوله: (وَمَا أَنْتُمْ لَهُ

بِخَازِنِينَ)إلى أنّه هو الحافظ والخازن لهذا الماء النازل من السماء، حتى لا يذهب سُدى وذلك أنّه سبحانه يحفظه بعد نزوله في أعماق الأرض ليكوّن بعد ذلك عيوناً وآباراً.

الثالثة والعشرون إلى الخامسة والعشرين (وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ... إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ).

(وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ * وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ).

المفردات

المستقدِمين: المتقدّمين، والسين والتاء للتأكيد، مثل استجاب.

المستأخِرين: المتأخّرين، وحكم السين والتاء كما في المستقدمين.

يحشرهم: يحييهم ويجمعهم.

التفسير

كان الهدف من الآيات الواردة في المجموعة السابقة هو الاستدلال على توحيده سبحانه في الربوبية وأنّه الخالق والمدبِّر، وأمّا هذه المجموعة فهي ناظرة إلى أحد الأُصول التي بُعث بها الأنبياء، وهو حشر الأوّلين والآخرين يوم القيامة، ولذلك ابتدأ بقوله:

٢٣. (وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ):

إنّ ذكر مسألة الإحياء والإماتة والحشر بعد ذكر إنزال المطر لا يخلو من مناسبة، فإنّ الماء ماء الحياة، فناسب أن يذكر بعده ما يرجع إلى الحياة وضدّها.

قوله:(وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ) الفقرة مشتملة على التأكيد، حيث ابتدأت بقوله:(وَإِنَّا) وباستعمال ضمير الجمع (نَحْنُ) مرفقاً باللاّم بين المبتدأ والخبر، كلّ ذلك يدلّ على التأكيد على أنّ الإحياء والإماتة بيد الله سبحانه وأنّه متفرّد بذلك. والظاهر أنّ الفقرة مقدّمة لقوله: (وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ)وذلك بالنفخة الأُولى التي بها يموت الخلق جميعاً، وإليه يشير قوله سبحانه:(إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ).(مريم:٤٠)

٢٤. (وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ):

تقدّم منّا أنّ الغاية من هذه المجموعة هي ذكر البعث وحشر الناس جميعاً، ومن المعلوم أنّ حشرهم على صعيد واحد فرعُ العلم بمن تقدّم موته ومن تأخّر، فعلمه سبحانه يعمّهم، فعلى هذا فالمراد من قوله: (وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ): أي المتقدّمين في الموت (مِنْكُمْ): أي من قريش ولكن المورد غير مخصِّص، فإنّ الناس على صنفين: إمّا متقدّم أو متأخِّر، كما أنّ المراد من قوله: (وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ): أي الذين تأخّر موتهم .

٢٥. (وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ):

هذه الآية هي نتيجة للآيتين السابقتين، فإذا تقرّر كمال علمه سبحانه وأنّه هو المحي والمميت والوارث وأنّه يعلم بمن غبر وحضر، فعلى هذا فالله سبحانه يحشر الجميع كما يقول:(وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ) وإنّما عدل عن خطاب قريش في قوله: (مِنْكُمْ) في الآية المتقدّمة إلى خطاب النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)، للعناية به أولاً، ولعدم اعتقاد قريش بالحشر ثانياً.

وبما أنّ الحشر يتوقّف على الحكمة المقتضية لحساب الأعمال ومجازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، وعلى العلم الواسع بالمسيء والمحسن، أتمّ سبحانه الآية بقوله:(إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ).

السادسة والعشرون والسابعة والعشرون(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ...وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ)

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَأٍ مَسْنُونٍ * وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ).

تقدّم منّا أنّ الغاية من هذه المجموعة هي ذكر البعث وحشر الناس جميعاً، ومن المعلوم أنّ حشرهم على صعيد واحد فرعُ العلم بمن تقدّم موته ومن تأخّر، فعلمه سبحانه يعمّهم، فعلى هذا فالمراد من قوله: (وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ): أي المتقدّمين في الموت (مِنْكُمْ): أي من قريش ولكن المورد غير مخصِّص، فإنّ الناس على صنفين: إمّا متقدّم أو متأخّر، كما أنّ المراد من قوله: (وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ): أي الذين تأخّر موتهم .

٢٥. (وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ):

هذه الآية هي نتيجة للآيتين السابقتين، فإذا تقرّر كمال علمه سبحانه وأنّه هو المحي والمميت والوارث وأنّه يعلم بمن غبر وحضر، فعلى هذا فالله سبحانه يحشر الجميع كما يقول:(وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ) وإنّما عدل عن خطاب قريش في قوله: (مِنْكُمْ) في الآية المتقدّمة إلى خطاب النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)، للعناية به أولاً، ولعدم اعتقاد قريش بالحشر ثانياً.

وبما أنّ الحشر يتوقّف على الحكمة المقتضية لحساب الأعمال ومجازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، وعلى العلم الواسع بالمسيء والمحسن، أتمّ سبحانه الآية بقوله:(إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ).

المفردات

صلصال: الصَّلصال: الطين الذي يُترك حتى ييبس، فإذا يبس بنفسه فهو صلصال، ولو يبس بالنار فهو الفخّار، ولذلك يقول: (خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ)(الرحمن:١٤).

حمأ: الحَمَأ: الطين الأسود الذي تكره رائحته.

مسنون: قال الراغب: قيل: متغيّر، بشهادة قوله تعالى:(فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ)(البقرة:٢٥٩). ويحتمل أن يُراد بالمسنون: المصبوب.

الجانّ: طائفة من الموجودات مستورة عن حواسّنا، ولهم شعور وإرادة وتكاليف يأتي بعضها في سورة النحل، وأُخرى في سورة الجنّ. وإنّما يطلق عليهم الجنّ لأنّه بمعنى الستر، وكأنّها مستورة عن حواسّنا.

السَّموم: الرِّيح الحارّة، تؤثِّر تأثير السُّمّ.

التفسير

مرّت خلقة آدم ونشأته إلى أن صار بشراً سويّاً، في مراحل ثلاث هي:

أ. المرحلة الترابية وتوابعها.

ب. مرحلة التصوير.

ج. مرحلة نفخ الرُّوح.

وآيتنا هذه تذكر المرحلة الأُولى، وتسكت عن المرحلتين الأخيرتين.

٢٦. (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَأٍ مَسْنُونٍ):

يشير سبحانه هنا إلى خلق الإنسان من صلصال، أي طين يابس يُسمع له عند النَّقر صلصلة كالصوت، وذلك الطين اليابس (مِنْ حَمَأٍ مَسْنُونٍ): أي من طين متغيّر، وربما يفسَّر (مَسْنُونٍ) بمعنى مصبوب، كأنّه أُفرغ في قالب ليجِفّ، كما يُصبّ الذّهب والفضّة.

ثم عطف على خلقة آدم خلقة الجانّ، والغرض من ذكره وجود المناسبة بينهما، وقال:

٢٧. (وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ):

خلق سبحانه هذا النوع من المخلوقات (مِنْ قَبْلُ): أي من قبل خلق الإنسان (مِنْ نَارِ السَّمُومِ)والسَّموم: الرِّيح الحارّة، فلعلّ المراد أنّ الجانّ مخلوق هوائيّ ناريّ، فإلى التراب يرجع أصل الإنسان، وإلى النار يرجع أصل الجانّ.

وكأنّ ذكر خلقة النوعين لأجل ما يأتي من عداوة الجنّ، أي الشياطين للإنس عداوة عنصرية ممتدّة إلى يوم القيامة.

وأمّا بقية مراحل الخلقة لآدم، فليرجع فيه إلى كتابنا «القصص القرآنية».(لاحظ: القصص القرآنية:١/٢٥ـ٢٧.)

خلقة آدم ونظرية التطوّر

التدبّر في الآيات القرآنية يدلّ على أنّ آدم خُلق منذ خُلق على هيئة خاصّة وأنّه لم يتحوّل من نوع إلى نوع آخر خلافاً لنظرية تطوّر أصل الأنواع التي طرحها لأوّل مرّة العالم الفرنسي لامارك(١٧٤٤ـ ١٨٢٩م) وبعده چارلس داروِن (١٨٠٩ـ١٨٨٢م) الذي نُسبت له فعرفت بالنظرية الدارونية. وقد اغترّ بهاتين النظريتين بعض الكتّاب من المسلمين، غير أنّ تلك النظريتين قد أكل عليهما الدهر وشرب وجاءت مكانهما نظرية ثالثة وهي نظرية التطوّر الفجائي، وهي بعد ما زالت نظرية، لم تثبت بدلائل واضحة، والتفصيل في محلّه.

إنّما الكلام في استدلال بعضهم على نظرية التطوّر بالآية التالية:(إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْض وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)(آل عمران:٣٣ـ ٣٤.).

ووجه استدلاله أنّ الله سبحانه يذكر أنّه اصطفى نوحاً وآل إبراهيم وآل عمران وأنّه اختاره من بين سائر الناس وأولاد آدم، ثمّ إنّه عطف هؤلاء على آدم بأنّه كان من المصطفين، فبالمقارنة يُعلم أنّه تعالى اصطفى آدم أيضاً وانتخبه من النَّسل الموجود على الأرض، وهذا يعني ـ في زعمه ـ أنّ آدم لم يكن أوّل من وطئ هذه الأرض، بل كان هناك نسلٌ من الإنسان النازل، وقد اختار سبحانه الأفضل وجعله خليفة وأباً للنَّسل الحاضر.

ثمّ إنّه يستقرب انطباعه عن الآية بلفظة العالمين، وأنّ المراد منه الإنسان الموجود في عصر آدم كالإنسان الموجود في سائر الأعصار.

يلاحظ على هذا الاستدلال: أنّه مبنيّ على أنّ المراد من (عَلَى الْعَالَمِينَ)الأشخاص الموجودون في أعصارهم، وعند ذلك يكون اختيار آدم اختياراً طبيعياً من بينهم.

وهذا خلاف الظاهر، فالمراد من العالمين هو مجموع الإنسان، سواء أكان معاصراً لآدم أم لم يكن معاصراً له حتّى الإنسان الموجود في آخر عمر الدنيا، ويدلّ على ذلك استعمال العالمين في الذكر الحكيم في عامّة الناس، قال سبحانه:(وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ)(آل عمران:١٠٨.)، وقال سبحانه:(إِنَّ أَوَّلَ بَيْت وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ)(آل عمران:٩٦.).

فالله سبحانه لا يريد ظلماً لأيّ إنسان وُجد على وجه هذه البسيطة، كما أنّه جعل البيت الحرام مباركاً ومناراً للهداية لعامّة الناس إلى يوم القيامة.

وعلى ضوء هذا، فيكون معنى قوله سبحانه: (اصْطَفَى آدَمَ) ومن جاء بعده من الأنبياء على كلّ من يأتي بعده من البشر، وأين هذا من تخصيصه بمعاصريه؟! فيكون المراد اصطفاءه بالنبوّة وتعليمه الأسماء وأمر الملائكة بالسجود له، إلى غير ذلك من الصفات الّتي بلغ بها آدم إلى الدرجة العليا من الكمال.

الثامنة والعشرون إلى الخامسة والثلاثين(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ ... إِلَى يَوْمِ الدِّينِ).

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَال مِنْ حَمَأ مَسْنُون * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلاَئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ لَمْ أَكُنْ لاِسْجُدَ لِبَشَر خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَال مِنْ حَمَأ مَسْنُون * قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ).

المفردات

سوّيته: صوّرته.

نفخت: نفخ الروح الذي يلازم كونه إنساناً عاقلاً مفكّراً.

روحي: إضافة الروح إلى الله سبحانه إضافة تشريفية ودلالة على عنايته به.

اللّعنة: الطرد من الرحمة.

التفسير

٢٨. (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ):

يذكر سبحانه الحوار الدائر بينه وبين الملائكة في خلقة آدم وأمره لهم بالسجود له وتمرّد إبليس وخروجه عن الطاعة، وتكبّره عن امتثال أمر الله سبحانه، وقد مرّ ذكر القصة في سورتي البقرة والأعراف، ولمّا كانت القصة أمراً عظيماً وأن تمرّد الشيطان كان مبدأ للشرّ، قال: (وَإِذْ): أي واذكر إذ (قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ): أي سأخلق (بَشَرًا) يريد آدم (مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ) وقد عرفت تفسيره في الآيات المتقدّمة.

بقي في تفسير الآية أمران:

الأوّل: عبّر سبحانه عن آدم بلفظ (بَشَرًا)، وللرّاغب فيه كلام، قال: وعُبِّر عن الإنسان بالبشر اعتباراً بظهور جلده من الشَّعَر، بخلاف الحيوانات التي عليها الصوف أو الشَّعَر أو الوَبَر. واستوى في لفظ البشر الواحد والجمع، وثنيّ فقال تعالى: (أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ)(المؤمنون:٤٧.)، وخصّ في القرآن كلّ موضع اعتُبر من الإنسان جثّتُه وظاهرُه، بلفظ البشر، نحو: (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا)(الفرقان:٥٤.) وقال عزّ وجلّ: (إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ)(ص: ٧١.).(المفردات للرّاغب:٤٧، مادة «بشر».)

الثاني: أنّه سبحانه عبّر في هذه الآية بقوله: (إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا)، بينما عبّر في الآية (٢٦) بقوله:(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ)، فما هو وجه اختلاف التعبيرين مع أنّ الموضوع واحد؟

والجواب: أنّ الموضوع وإن كان واحداً ولكنّ المقام مختلف، ففي الآية المتقدّمة يتكلّم الله سبحانه مع الملائكة كتكلُّم العظماء مع وزرائهم وملئهم وعبيدهم، شارحاً لهم خلقة الإنسان، بخلاف المقام في آيتنا هذه، فهو هنا يتكلّم مع الملائكة ويخاطبهم ويأمرهم بالسجود لآدم بعد أن سوّاه ونفخ فيه الرُّوح، فلا يكون المقام مناسباً لخطاب الملائكة بـ(خَلَقْنَا)، بل اقتضى المقام أن يتفرّد بذكر الفعل ويقول:(خالِق).

٢٩. (فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ):

قوله:(فَإِذَا سَوَّيْتُهُ) إشارة إلى المرحلة الثانية من خلقة آدم، أي صوّرته وأكملت خلقته الظاهرية (وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي) وهو إشارة إلى المرحلة الثالثة (فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ): أي اسجدوا له.

إنّ من يقرأ هذه الآيات وما شابهها في القرآن الكريم قد يخطر بباله سؤال وهو: كيف يأمر الله سبحانه الملائكة بالسجود لآدم، مع أنّ السجود عبادة ذاتية، أو أنّه علامة من علامات العبادة، وهذا الأمر يستلزم الشِّرك، وحاشَ لله أن يأمر به؟

والجواب: هو أنّ هناك فرقاً بين سجود الملائكة لآدم الذي يعتبر تكريماً له لا عبادة، وبين سجود عبَدة الأصنام الذي يُعدّ عبادة لها، والفرق يتضح من خلال تعريف العبادة.

فالعبادة هي الخضوع لمن يُعتقد أنّه خالق العالم وموجده، أو أنّه مخلوق لكنْ فُوّض إليه شأن من شؤون الألوهية.

وبعبارة أُخرى: الخضوع لمن هو إله العالم أو الآلهة الصغيرة المخلوقة لله سبحانه لكن يقومون بأعمال الله في مجال ما أو

مجالات، كالإماتة والإحياء والرِّزق والنَّصر والهزيمة، وغير ذلك.

وبهذا يتبيّن وجود الفرق بين سجود الملائكة لآدم وسجود الوثنيّين لأصنامهم، فسجود الملائكة كان مجرَّداً عن كلّ اعتقاد بألوهية آدم، بل سجدوا بما أنّه عالم بالأسماء ومعلمهم، مجرّداً عن كلّ شيء، وهذا بخلاف سجود الوثنيين للأصنام فإنّهم يعتقدون بأنّ مصيرهم في الحياة كلاًّ أو بعضاً بيد الأصنام كالنصر في الحرب، والعزّة، والشفاعة، ونزول المطر، وغير ذلك.

والذي يشهد على ما ذكرنا ـ من مدخلية الاعتقاد بألوهية المسجود له أُلوهية تامّة كما في حقّه سبحانه، أو أُلوهية نسبية كما هي المزعومة عند عبدة الأصنام لآلهتهم ـ ما حكاه سبحانه عن المشركين يوم القيامة حيث يعترفون بالتسوية بين الله والأصنام، كما يقول:(تَاللهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلاَل مُبِين * إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ)(الشعراء:٩٧ـ ٩٨.) وأين هذا من عمل الملائكة وعقيدتهم في آدم؟ وأين هذا من عمل المسلمين الموحّدين الذين لا يرَون للنبيّ ولا لأُولي الأمر شيئاً من مقامات الله سبحانه ولا يسوّونهم بربّ العالمين؟ بل يرَون أنّهم عباد صالحون مطيعون لله آتاهم الله فضلاً عظيماً، ولهم عند الله زلفى وحسن مآب.

بقي هنا شيء، وهو أنّ السجود المجرّد عن الاعتقاد بشيء من الألوهية كان أمراً جائزاً في الأُمم السابقة بشهادة أنّ يعقوب وزوجه وأولاده سجدوا ليوسف كما يقول:(وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا)،(يوسف:١٠٠.) وأمّا في الشريعة المحمّدية فيحرَّم هذا النوع من السجود وإن لم يكن عبادة، روى الكليني بإسناده عن سليمان بن خالد]الأقطع[، عن أبي عبد الله]الصادق[(عليه السلام)، قال: «أنّ قوماً أَتَوا رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) فقالوا: يا رسول الله إنّا رأينا أُناساً يسجد بعضهم لبعض، فقال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم): لو أمرتُ أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها».(الكافي:٥/٥٠٨، كتاب النكاح، باب حقّ الزّوج على المرأة، رقم الرواية٦.)

٣٠. (فَسَجَدَ الْمَلاَئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ):

أطاع الملائكة أمر الله سبحانه، كما يقول: (فَسَجَدَ الْمَلاَئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ)، وفيه توكيدان للتعبير عن سجودهم سجوداً مؤكّداً تكريماً لآدم، ولم يمتنع منهم أحد. ثمّ استثنى إبليس، في الآية التالية، من الساجدين.

٣١. (إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ):

تمرّد إبليس وخالف أمر الله سبحانه كما يقول:(إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ) والاستثناء هنا منقطع، فإبليس لم يكن من الملائكة كما يدلّ عليه قوله سبحانه: (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ).(الكهف:٥٠.)

٣٢. (قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ):

قوله:(مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ) استفهام توبيخ، أي ما هو السبب في عدم كونك مع الساجدين؟

فقوله: (مَا لَكَ) مبتدأ وخبر، أي ما الذي هو كائن لك، وقوله: (أَلاَّ تَكُونَ) من قبيل نزع الخافض والتقدير: في(أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ): أي مع الملائكة.

فأجاب إبليس بما يلي:

٣٣. (قَالَ لَمْ أَكُنْ لاِسْجُدَ لِبَشَر خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَال مِنْ حَمَأ مَسْنُون):

قوله:(لَمْ أَكُنْ لاِسْجُدَ) أشدّ في النفي والجحود، كأنّه يخبر عن طبيعته السابقة وأنّها تأبى السُّجود لبشر خلقته من (صَلْصَال مِنْ حَمَأ مَسْنُون) فزعم أنّه خير من آدم، إذ خُلق من نار وآدم من طين، فتمسّك بعنصريته وقال: أين النار الوضّاءة التي هي أصلي، من الطين المتعفّن الذي هو أصل آدم؟ فلا تصحّ سجدة مثلي لمثله!!

إنّ عدو الله تغافل عن شيء، وهو أنّ وجود آدم مركّب من بدن ماديّ، وروح، فالذي يرجع إلى الطين المسنون هو بدنه، ولكنّه تغافل عن الجزء الثاني وهو الروح المنتسبة إلى الله تعالى، التي بها فُضّل على غيره.

أضف إلى ذلك أنّه لم يستكبر على آدم وإنّما استكبر على الله سبحانه، فمخالفة إبليس لأمر الله تعالى وعدم السُّجود لآدم اغتراراً بأصله، كان استخفافاً بمالك الملك والملكوت، ولذلك نرى أنّه سبحانه يعدّ من يكذّب النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) مكذِّباً لله سبحانه،ويقول:(قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ)(الأنعام:٣٣.) فكأنّ تكذيب النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)له وجهان: ظاهره تكذيب النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)، وباطنه إنكار لآيات الله سبحانه وتكذيب لها. وعلى ضوء ذلك فاستكباره على آدم هو ظاهر القصة، واستكباره على الله باطنها، وكلاهما صحيحان.

التكبّر بوّابة المعاصي

التدبّر في الآيات الواردة حول تمرّد إبليس على أمر الله سبحانه وتعصّبه لأصله، يوقفنا على أنّ الكبْر والغرور والاحتجاج بالأُصول مبدأ الشرور والهلاك، فإنّ الكبر يصنع حجاباً بين المتكبّر والواقع، فيرى نفسه فوق الواقع وأكبر منه، فلو أنّ إبليس رأى الدرجات التي سيبلغها الإنسان بأعماله الاختيارية، وأنّه يمكن أن ينال درجة عالية من القرب من ربّه تعالى، لَما ركبه الغرور، قال سبحانه:(وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا).(النساء:٦٩.)

٣٤. (قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ):

لمّا استكبر إبليس واعتصم بأنانيّته في مكان قدسيّ لا يعصي الله فيه أحد، طرده سبحانه من رحمته وقال: (قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ): أي مطرود من رحمتي.

٣٥. (وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ):

الآية توضيح لقوله: (رَجِيمٌ)، لأنّ حقيقة الرَّجم هي حرمانه من رحمة الله وإيكاله إلى نفسه. وجاء طردُه في آية أُخرى بهذه الصيغة: (قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ)(الأعراف:١٣.) لأنّ اللائق لكلّ من حلَّ بهذا المكان القدسيّ أن يخلع لباس التكبّر، ولذلك أُمر بالهبوط من ذلك المكان.

ثم إنّه سبحانه جعل اللّعنة كلّها على إبليس، ولعلّ الوجه فيه أنّه ما من معصية إلاّ ولإبليس فيها دور بالإغواء والوسوسة، فهو الأصل الذي ترجع إليه كل معصية، ولذلك جعل مطلق اللّعن عليه.

السادسة والثلاثون إلى الرابعة والأربعين(قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى ... كُلِّ بَاب مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ).

(قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ* إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ * قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لاَزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلاَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ * قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ * لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَاب لِكُلِّ بَاب مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ).

المفردات

فأنظرني: أمهلني، وأخّرني.

الوقت المعلوم:النفخة الأُولى.

الغاوين:الضالّين.

التفسير

استمهال إبليس

٣٦. (قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ):

بعد ما طرد الله تعالى إبليس من رحمته استمهله بقوله: (قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي) أي أمهلني(إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ): أي إلى يوم القيامة.

٣٧ و ٣٨. (قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ* إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ):

أجابه تعالى إلى طلبه بوجه آخر وقال: (فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ* إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ) فمع أنّ إبليس استمهل الله إلى يوم القيامة لكنّه سبحانه أمهله (إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ) وذلك لأنّ الموجودات الإمكانية عامّة تذوق الموت في الموتة الأُولى ومنهم إبليس، ثم إنّهم يُبعثون في النفخة الثانية التي تقوم القيامة بعدها.

فإن قلت: إنّ (الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ) استُعمل في الذكر الحكيم في يوم القيامة، قال سبحانه:(قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ)(الواقعة:٤٩ـ ٥٠).

قلت: ما ذكرته صحيح إلاّ أنّ العدول في المقام عمّا عبّر به إبليس بقوله:(إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ) إلى تعبير آخر وهو: (إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ) دليل على التغاير، وإلاّ لما كان هناك وجه للعدول.

وعلى ذلك فما دام التكليف موجوداً والإنسان يعيش على البسيطة، وللشيطان سلطة فيها فهو حيّ، إلاّ إذا ارتفع التكليف بموت الناس كلّهم.

روى الصدوق بسنده عن يحيى بن أبي العلاء الرازي أنّ رجلاً دخل على أبي عبد الله]الصادق[(عليه السلام)فقال: جُعلت فداك، أخبرني عن قول الله عزّ وجلّ لإبليس: (فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ* إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ)، قال: «إلى يوم الوقت المعلوم، يوم يُنفخ في الصور نفخة واحدة، فيموت إبليس ما بين النفخة الأُولى والثانية».(البرهان في تفسير القرآن:٥/٤٨٤، برقم ٥٨٦٢، عن علل الشرائع:١٠٥).

وتسأل: لماذا أمهل الله إبليس بعد أن طرده من حظيرة القدس؟

والجواب بوجهين:

١. أنّ إبليس ممن عبد الله سبحانه ستة آلاف سنة، وإن كان قد أحبط عمله بالكِبْر ساعة واحدة، لكنّه سبحانه أمهله كرماً منه، مكافأة لما عبد.

روى العيّاشي عن الحسن بن عطية، قال: سمعت أبا عبد الله]الصادق[(عليه السلام) يقول: إنّ إبليس عبد الله في السماء الرابعة، في ركعتين ستة آلاف سنة، وكان من إنظار الله إيّاه إلى يوم الوقت المعلوم بما سبق من تلك العبادة».(تفسير العيّاشي:٢/٤٢٨، برقم ١٣؛ بحار الأنوار:٦٣/٢٥٤ برقم ١١٨).

وقال الإمام علي(عليه السلام):«فَاعْتَبِرُوا بِمَا كَانَ مِنْ فِعْلِ اللهِ بِإِبْلِيسَ إِذْ أَحْبَطَ عَمَلَهُ الطَّوِيلَ، وَجَهْدَهُ الْجَهِيدَ (الجميل)، وَكَانَ قَدْ عَبَدَ اللهَ سِتَّةَ آلاَفِ سَنَة، لا يُدْرَى مِنْ سِنِي الدُّنْيَا أَمْ مِنْ سِنِي الأْخِرَةِ، عَنْ كِبْرِ سَاعَة وَاحِدَة».(نهج البلاغة، الخطبة: ١٩٢(القاصعة).)

٢. لقد أمهل الله إبليس ليتميّز من يفتتن بإغوائه عمّن يُدبر عنه ولا يطيعه.

وعلى هذا الوجه يظهر أنّ لإمهال إبليس علّة أُخرى تتعلّق بالإنسان وسنّة ابتلائه وتمحيصه في هذه الحياة، كما يقول تعالى: (لِيمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ)(الأنفال:٣٧). وقوله: (وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ)(آل عمران:١٥٤)، وغيرهما من الآيات الدالّة على أنّ نظام السعادة والشقاء والثواب والعقاب مبنيٌّ على أساس الامتحان والابتلاء، والإنسان واقع بين الخير والشرّ، والسعادة والشقاء، له ما يختاره من العمل بنتائجه.

٣٩ و ٤٠. (قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ):

استثناء المخلَصين من الإغواء

لما أيقن الشقيّ إبليس بتلبية طلبه في الإمهال، أظهر ما في نفسه من العداوة للإنسان و(قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي)و(الباء) في قوله: (بِمَا) للسببية و «ما» مصدرية، أي بسبب إغوائك إيّاي (لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ): أي لأزيننّ الباطل، وأُحسِّنه لهم حتى يقعوا فيه (وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ) وهو وعيد من إبليس لبني آدم كلهم، والإغواء: الإضلال عن طريق الهدى. ثمّ استثنى طائفة خاصّة كما يقول: (إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ)وهم الذين أخلصوا أنفسهم لله فليس لغيره سبحانه فيهم شركة ولا في قلوبهم محلّ، فلا يشتغلون بغيره تعالى، فما ألقاه إليهم الشيطان من حبائله عاد ذكراً لله مقرّباً إليه.

بقي في الآية أمران:

١. هل الاستثناء من كلا الفعلين (لَأُزَيِّنَنَّ) و(لَأُغْوِيَنَّهُمْ)، أو هو من الفعل الثاني فقط؟

الظاهر أنّه من الثاني فقط، لأنّ تزيين الباطل وإظهاره بصورة الحقّ لا يختصّ بغير المخلصين.

٢. أنّ الشيطان خصّ العبودية بجماعة المخلَصين خصوصاً إذا كانت لفظة (مِنْهُمْ) بيانية أي: إلاّ عبادك الذين هم (الْمُخْلَصِينَ) مع أنّ العبودية لا تختصّ بالمخلَص، بل العباد مخلَصهم وغير مخلَصهم كلّهم عباد الله، وهذا أيضاً من تسويلات الشيطان الباطلة.

٤١.(قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ):

الظاهر أنّ اسم الإشارة أشبه بضمير الشأن يقال: هذا ما قاله فلان. ويمكن أن يكون إشارة إلى العباد المخلَصين لكونهم على صراط الله المستقيم، والصراط كناية عن الطريق الذي يوصل الإنسان إلى المطلوب، فقوله: (مُسْتَقِيمٌ) صفة صراط، وأمّا لفظة (عَلَيَّ): أي ثابت عليه تعالى، فحفظُ المخلَصين من الشيطان قد أوجبه تعالى على نفسه نظير قوله تعالى: (كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ)(الأنعام:١٢) وتقدير الآية: أنّ هذا صراط مستقيم، عليّ حماية من سلكه، فالإخلاص في العمل وتنقيته من الهوى والرّياء هو الصراط المستقيم، فمن سلكه نجا، ومن انحرف عنه هلك، وقد ضمن سبحانه حفظه من الانحراف.

٤٢. (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ):

لمّا استثنى إبليس المخلصين من وعيده بإغواء بني آدم كلّهم بقوله:(وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ)وهو إعلانٌ منه بأنّ له سلطاناً على سائر بني آدم، جاء البيان ليردّ عليه ذلك، وأنّه لا يملك سلطاناً قاهراً على إغواء العباد، كلّ العباد، كما قال سبحانه:(إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ) سواء أكانوا مخلصين أم غير مخلصين، ثمّ استثنى تعالى طائفة وقال: (إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ) وهم الذين يستجيبون باختيارهم لدعوة إبليس إلى الباطل بعد تزيينه والإغراء به.

قد تقدّم أنّ إبليس ـ عن طريق الشيطنة ـ خصّ العبودية بجماعة خاصّة، وهم المخلَصون، مع أنّ الناس جميعاً هم عباد الله، ففي آيتنا هذه ردّ على قول إبليس حيث إنّها جمعت الناس كلّهم تحت خيمة العبودية، قال تعالى:(إِنَّ عِبَادِي): أي كلّ من يطلق عليه إنسان، ويشهد على الإطلاق الاستثناء، أعني قوله: (إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ)، فهو دليل على عموم المستثنى منه.

وأمّا مصير هؤلاء فتذكره الآية التالية:

٤٣. (وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ):

أي إنّ جهنم هو المكان الذي وعدهم به من العذاب.

٤٤. (لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ):

لعلّ تعدّد الأبواب باعتبار كون العذاب المُعدّ فيها متنوّعاً، وأنّ كلّ نوع منه قد خُصّص له مكان ينتهي إلى باب.

وظاهر قوله سبحانه:(لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ) وجود الأبواب السبعة لجهنّم، ولكن هل أُريد بالعدد هنا العدد الحقيقي؟ أو هو كناية عن

الكثرة؟

مقتضى التعبّد بظواهر القرآن هو الاقتصار على السبعة، ولعلّ كلّ باب مخصّص لطائفة من العصاة المذنبين فإنّ اختلاف المعاصي والذنوب من حيث البُعد عن الرحمة صار سبباً لاختلاف مراتبها واختلاف جزائها، فكلٌّ يدخل من باب خاصّ، كما أنّ للجنة أيضاً أبواباً خاصّة. قال تعالى: (حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ)(الزمر:٧٣.).

ويجوز أن يُراد من (سَبْعَةُ أَبْوَاب) سبعة أطباق بعضها فوق بعض، وقد روي ذلك عن الإمام علي(عليه السلام) و الحسن البصري وغيرهما.(انظر: التبيان في تفسير القرآن :٦/٣٣٨.)

ومن المعلوم أنّ الأعمال الصالحة مختلفة المراتب، واختلاف مراتبها يقتضي اختلاف درجات الجزاء، فلكلّ من أصحاب الأعمال الصالحة باب خاصّ، قال الإمام علي(عليه السلام):«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الْجِهَادَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، فَتَحَهُ اللهُ لِخَاصَّةِ أَوْلِيَائِهِ».(نهج البلاغة: الخطبة ٢٧.)

قوله تعالى: (لِكُلِّ بَاب مِنْهُمْ): أي من الغاوين أتباع إبليس(جُزْءٌ مَقْسُومٌ) فالأجزاء الرئيسية سبعة، ثم يقسّم كلّ جزء على باب خاصّ.

ما هو الوجه للتعبير عن الفرد بالجزء؟

والسؤال هنا: ما هو الوجه للتعبير عن الغاوين بالأجزاء وعن كلّ فرد بالجزء؟ ولعلّ الوجه هو أنّ الجميع يربطهم شيء واحد وهو التمرّد على أوامر الله سبحانه، فجعل الجميع شيئاً واحداً يقسّم على سبعة أجزاء، فيرِدُ كلّ جزء من باب واحد. ولعلّ للتعبير به نوع إهانة لهم، وكأنّهم ركام من حطب، وكلٌّ حصب جهنم، يُطرح من كلّ باب جزء منه، والله العالم.

إلى هنا تمّ تفسير الآيات بألفاظها وظواهرها، بقي هنا سؤالان:

السؤال الأوّل:هل السجود كان لشخص آدم؟

ظاهر بعض الآيات أنّ السجود كان لشخص آدم حيث قال تعالى:(اسْجُدُوا لِآدَمَ)فكأنّ آدم بشخصه وعينه هو المسجود له دون غيره. وهناك رأي آخر غير بعيد عن ظاهر بعض الآيات الأُخر، وهو أنّ السجود له كان رمزاً للسجود له ولذرّيته، وذلك لوجهين:

١. أنّه يوجد في ذرّية آدم أنبياء ورسل وأولياء وأوصياء، سيرتقون مراتب عالية، فلا بدع أن يكون السجود له سجوداً رمزياً له ولغيره، كلّ ذلك تكريماً لهم في بدء الخليقة.

٢. أنّه تبارك وتعالى ينسب خلقة آدم وتصويره إلى أولاده حتّى ينسب هبوطه إلى الأرض إليهم، ويقول:(وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ)(الأعراف:١١.)، ويقول تعالى: (اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْض عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِين)(الأعراف:٢٤.).

كلّ ذلك يُشعر بأنّ ما وصف به أبونا آدم(عليه السلام) صحّ أن توصف به ذرّيته، والله العالم.

السؤال الثاني: لماذا نسب الشيطان غوايته إلى الله تعالى؟

قال تعالى حاكياً عن إبليس:(قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)، فالله سبحانه لم يردَّ عليه ولم يُجِبْه، فهل ظاهر ذلك أنّه سبحانه هو الذي أغواه وأضلّه وهو أمر قبيح لا ينسب إليه عزّ وجلّ؟

ويمكن الإجابة عن ذلك بوجهين:

١. أنّه سبحانه منزّه عن إضلال خلقه، إلاّ أنّ محاولة إبليس لتبرير ضلاله وتبرئة نفسه، جعلته ينسب ذلك إلى الله سبحانه

وتعالى. وهذا الموقف هو ديدن جميع الأبالسة والشياطين، فهم يلقون تبعة ذنوبهم على الآخرين، ومن ثمّ يسعَون لتبرير أعمالهم القبيحة بمنطق مغلوط، والمصيبة أن مواقفهم تلك إنّما يواجهون بها ربّ العزّة والجبروت، وكأنّهم لا يعلمون أنّه لا تخفى عليه خافية!!

٢. أنّ القبيح هو إضلال الله سبحانه ابتداء منه، وهذا لا يصدر منه سبحانه، وأمّا الإضلال الذي هو مجازاة العبد على عصيانه، بمعنى حرمانه من الهداية الثانية بسبب إعراضه عن الهداية الأُولى، فهو أمر جائز واقع، قال سبحانه:(يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا)(البقرة:٢٦.)، وقال سبحانه:(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)(الصف:٥.). وبما ذكرنا يظهر أنّ المراد من الإغواء هو قَطْع رحمة الله سبحانه عنه وطرْده. ويدلّ على ذلك ظاهر الآية، وهو أنّه سبحانه قال:(وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ) فلمّا شعر إبليس بحرمانه من رحمة الله طلب الإنظار والإمهال، فلما أُجيب طلبه قال: (رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي): أي حرمتني من رحمتك فسأقوم بتزيين المعاصي لعبادك وإغوائهم، ومن المعلوم أنّ تلك الغواية لا تُعدّ قبيحة لأنّها نتيجة عمل العاصي.

وهناك وجه ثالث، وهو أنّ الإغواء بمعنى الخَيبة، ذكره الوزير الحسين بن علي المغربي وقال:(رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي): أي خيَّبتني، كما قال:

فمَن يلقَ خيراً يحمد الناسُ أمرَهُ *** ومَنْ يغوَ لا يعدم على الغيّ لائم[٣]

[٣]المصابيح في تفسير القرآن:٦٢٩.وقائل هذا البيت: المُرقِّش الأصغر، من شعراء الجاهلية.

الخامسة والأربعون إلى الخمسين(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّات وَ عُيُون... وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ).

المفردات

المتقين: ما يقابل الغاوين في قوله: (مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ)، وأريد بهم من اتّقى الكفر والشرك والكبائر والصغائر المكفّرة.

جنّات: بساتين.

عيون:جمع عين، وهو ثقب أرضي يخرج منه الماء من تحت الأرض، وأُريد هنا مطلق الأنهار الجارية على سطح الأرض.

بسلام: بسلامة من الآفات والأمراض.

غِلّ: الغِلّ: الحقد الكامن في القلب.

سُرُر: جمع سرير.

نَصَب: تعب.

نبِّئ: فعل أمر من أَنبأَ بمعنى أخبرَ، ويطلق النّبأ على الخبر المهمّ.

التفسير

جرت سنّة الله تبارك وتعالى في الذكر الحكيم على أنّه كلّما ذكر فريقاً من المؤمنين أو المجرمين يردفه ببيان الفريق الآخر، ويطلق على هذا الأمر «التقابل» وهو من المحسنات البديعية، وفي المقام لمّا تقدّم قوله سبحانه:(إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ) اقتضى المقام أن يذكر شيئاً عمّن يُقابلهم، فقال:

٤٥. (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّات وَ عُيُون):

تقدّم أنّ المراد من المتقين هم من اتّقى الكفر والشرك وكبار المعاصي حتى يكون ممن استثناه الله سبحانه بقوله:(إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ). ومن عجيب القول ما ذكره الرّازيّ في تفسيره، يقول: إنّ المراد الذين اتقوا الشرك بالله تعالى والكفر به، مستدلاًّ بأنّ الآتي بفرد واحد من أفراد التقوى يصدق عليه كونه متّقياً.(تفسير الرازي:١٩/١٣٣.) وهذا عجيب جدّاً وغفلة عن

الآيات الكثيرة التي ذكرت الكبائر التي يستحقّ مرتكبوها النار، وإن كانوا موحّدين غير مشركين.

قال تعالى في وصف المحسنين:(الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَ الْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلاَ تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى)(النجم:٣٢.) وأوصاف هؤلاء تعادل أوصاف المتّقين.

وذكر سبحانه جزاء القاتل عمداً، وهو الخلود في النّار وقال: (وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا).(النساء:٩٣.)

ووصف أَكَلة أموال اليتامى بقوله: (إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا)(النساء:١٠.)، كما وصف أَكَلة الرّبا بقوله:

(الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ)(البقرة:٢٧٥.)، وذكر حُكم الذين يُولُّون الأدبار في مواجهة العدوّ، وقال: (وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِقِتَال أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَة فَقَدْ بَاءَ بِغَضَب مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)(الأنفال:١٦.)، فعلى ما ذكره الرّازيّ فهؤلاء كلُّهم من المتقين الذين يدخلون الجنّة كسائر الناس!! بشهادة أنّهم اتّقوا الشرك والكفر بالله وهو ـ كماترى ـ يعِدُ بالبشرى للفسّاق العتاة!! فلا محيص إذاً من القول بأنّ المراد من المتّقين من استقرّت فيهم ملَكة التقوى، وهي الورع عن محارم الله، فأُولئك هم المقضيّ عليهم بالسعادة والجنّة قضاءً لازماً.

نعم دلّ الدليل من خارج على أنّ الموحّدين لا يُخلَّدون في النار، وهو أمر آخر لا صلة له بالآية.

٤٦. (أُدْخُلُوهَا بِسَلاَم آمِنِينَ):

هذه تحيّة من الملائكة الموكّلين بباب الجنّة، ومعنى الآية: ادخلوا الجنّات بسلامة من الآفات وبراءة من المكاره، آمنين من كلّ ضرر.

٤٧. (وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُر مُتَقَابِلِينَ):

بما أنّ صدور المتقين قد تحمل حقداً بعضهم لبعض، فالله سبحانه يطهّرهم منه، كما يقول:(وَنَزَعْنَا): أي أزلنا (مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلّ): أي عن صدور أهل الجنّة ما فيها من حقد وضغينة (إِخْوَانًا): أي يكونوا إخواناً متوادّين فيصفو لهم عيشهم في الجنّة (عَلَى سُرُر): أي متّكئين على سرر (مُتَقَابِلِينَ): أي متواجهين، يقابل بعضهم وجه بعض، لأنّ ذلك أبلغ في المؤانسة والإكرام.

٤٨. (لاَ يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ):

أي لا يصيبهم في الجنّة (نَصَبٌ): أي عناء وتعب لأنّه من عوارض العمل لقضاء الحاجة، والمقاصد في الجنّة حاصلة لهم، (وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ) إشارة إلى خلودهم في الجنّة، قال تعالى:(خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً).(الكهف:١٠٨.)

٤٩ و ٥٠.(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ* وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ):

إنّه سبحانه بعث أنبياءه مبشّرين، وفي نفس الوقت هم منذرون، فالاعتماد على التبشير فقط يورث الجرأة، كما أنّ التأكيد على الإنذار فقط يورث اليأس، ولذلك جاء التبشير والإنذار مقرونين، فقال:(نَبِّئْ) يا محمد (عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ): أي أستر ذنوب عبادي (الرَّحِيمُ): أي كثير الرحمة (وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ) فلا تعوّلوا على غفراني ورحمتي، بل كونوا على حذر من عقابي ونقمتي.

روايات مختلقة

ذكر سبحانه مصير المتقين وحالهم في الجنّة وأنّهم يعيشون في سلامة وأمن وإخاء، فلا غِلّ بينهم ولا حقد. وأنت ترى أنّ حديث

نزع الغلّ من الصدور ورد في جملة آيات تقصّ ما قضاه الله سبحانه وحكم به يوم خلق آدم وأمر الملائكة وإبليس بالسجود له فأبى إبليس، فرجمه ثم قضى ما قضى إلى أن وصل الكلام بالمتّقين على الوجه الكلّي، ووصفَهم بما وصف، وعلى هذا فالآية لا تتعلّق بأشخاص بخصوصيّتهم، وإنّما هو من قضاء الله سبحانه من أوّل الأمر.

ومن عجيب الأمر أنّ القائلين بعدالة الصحابة كلّهم ـ من أوّلهم إلى آخرهم ـ حتى وإن صدرت منهم كبار المعاصي كقتل النفوس المحترمة والتسبيب في إراقة الدماء، قد قالوا بنزول الآية في حقّ هؤلاء خصوصاً في الذين وقعت الخصومة بينهم وبين الإمام عليّ(عليه السلام)، وحاولوا تطبيقها عليهم لأغراض واضحة دون أن يستندوا في ذلك إلى دليل. وها نحن نذكر من هذه الروايات ما يلي:

١. أخرج ابن أبي حاتم وابن عساكر عن كثير النَّوّاء قال: قلت لأبي جعفر(يعني محمداً الباقر(عليه السلام).): إنّ فلاناً حدّثني عن علي بن الحسين(رضي الله تعالى عنهما) أنّ هذه الآية نزلت في أبي بكر وعمر وعلي(رضي الله تعالى عنهم)(وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلّ) قال: والله إنّها لفيهم أُنزلت، وفيمن تنزل إلاّ فيهم؟ قلت: وأي غلّ هو؟ قال: غلّ الجاهلية إنّ بني تيم وبني عديّ وبني هاشم كان بينهم في الجاهلية فلمّا أسلم هؤلاء القوم تحابّوا، فأخذت أبا بكر الخاصرة فجعل علي (كرّم الله وجهه) يسخن يده فيكوي بها خاصرة أبي بكر، فنزلت هذه الآية.(روح المعاني:١٤/٥٨.)

٢. ما أخرجه سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر والحاكم وغيرهم من طرق عن علي(كرم الله تعالى وجهه) أنّه قال لابن طلحة: إنّي لأرجو أن أكون أنا وأبوك من الذين قال الله تعالى: (وَنَزَعْنَا) الآية، فقال رجل من همذان: إنّ الله سبحانه أعدل من ذلك، فصاح عليٌّ (كرّم الله تعالى وجهه) عليه صيحة تداعى لها القصر، وقال: فمَن إذن إن لم نكن نحن أُولئك؟(روح المعاني:١٤/٥٨، ولاحظ: تفسير الرازي:١٩/١٩٣.)

ترى أنّ الرواية الأُولى تذكر أنّ الواقعة هي سبب نزول الآية مع أنّ مفاد الآية لا ينسجم معها، لأنّها تتضمّن نزع الغِلّ يوم القيامة عند دخول الجنّة لا في الحياة الدنيويّة.

ثمّ إنّ الرواية، من حيث السَّند، ضعيفة، لأنّه ينتهي إلى كثير النَّوّاء، وقد ضعّفه من نقّاد السنّة: أبو حاتم، والنَّسائي، وابن حجر (انظر: تهذيب الكمال:٢٤/١٠٣، برقم ٤٩٣٥.)، كما وردت فيه، من طريق الشيعة الإمامية، ذموم عن الإمامين الباقر والصادق(عليهما السلام).(انظر: رجال الكشّي:٢٠٨، برقم ١١٦و ١١٧ و ١١٨.)

وأمّا الرواية الثانية فهي على طرف النقيض ممّا رواه أبو سعيد الخدري، قال: أمرنا رسول الله بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين، قلنا: يا رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم): أمرتنا بقتال هؤلاء، فمع مَن؟ قال: «مع علي بن أبي طالب».(تاريخ ابن كثير:٧/٣٠٥. وانظر كتاب: بيعة علي بن أبي طالب في ضوء الروايات الصحيحة:٧٨(وفيه مصادر الحديث المروي بأسانيد كثيرة).)

وروى الحاكم قول النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) لأصحابه: «إنّ منكم مَن يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله»، قال أبو سعيد الخدري: فاستشرف لها القوم وفيهم أبو بكر وعمر، قال أبو بكر: أنا هو؟ قال: لا، قال عمر: أنا هو؟ قال: لا، ولكن خاصف النعل ـ يعني علياً]وكان(عليه السلام) يخصف نعل رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)[ـ فأتيناه، فبشّرناه فلم يرفع به رأسه، كأنّه قد كان سمعه من رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم).(المستدرك على الصحيحين:٣/١٢٢ـ ١٢٣، وقد صححه على شرط البخاري ومسلم، ووافقه الذهبي.)

وقد صحّ عن رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) قوله للزبير:«إنّك تقاتل عليّاً وأنت ظالم له». وبهذا الحديث احتجّ أمير المؤمنين (عليه السلام) على الزبير يوم الجمل، وقال: «أتذكر لمّا قال لك رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم):إنّك تقاتلني وأنت ظالم لي» فقال: اللّهم نعم.(انظر: المستدرك على الصحيحين:٣/٣٦٧؛ والكامل في التاريخ:٣/٢٤٠.)

ومورد الرواية وإن كان هو الزبير لكنّه هو وطلحة كانا كفرسي رهان محكومين بحكم واحد، خرجا على الإمام المنصوص على إمامته، والذي اتّفق على خلافته جمهور المهاجرين والأنصار، أفيمكن أن يدخلا الجنة ويجتمعا مع عليّ على سرر متقابلين؟ أيمكن ذلك وقد أشعلا حرباً طاحنة راح ضحيتها الكثير من النفوس الطاهرة من الصحابة والتابعين، وجرّت النّكبات على الأُمّة؟ ما لكم كيف تحكمون!!

الحادية والخمسون إلى الستين (وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ... نَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ).

(وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلاَمًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ * قَالُوا لاَ تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلاَمٍ عَلِيمٍ * قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ * قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ * قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ * قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ * قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ * إِلاَّ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ).

المفردات

ضيف:النَّزيل الذي يحلُّ عند غيره . وهو يقع على الواحد والاثنين والجمع.

وَجِلون: الوَجَل: الخوف، يقال: وَجِل يَوْجَل: إذا خاف.

القانطين:اليائسين.

خطْبُكم:الخطب: الأمر الجليل.

مجرمين:مذنبين.

الغابرين: قال الراغب: الغابر: الماكث بعد مضيّ ما هو معه.(المفردات للراغب:٣٥٧، مادة «غبر».) و يراد به هنا: الباقين في العذاب النازل.

التفسير

تقدّم في الآيتين اللّتين سبقتا هذه المجموعة ذكر رحمته سبحانه وعذابه وأنّه غفور رحيم ولكنّ عذابه، في الوقت نفسه، عذاب أليم، فلأجل هذين الوصفين ذكر سبحانه قصة ضيف إبراهيم(عليه السلام)وبشارتهم له بغلام عليم ليكون مظهراً لرحمته، كما ذكر إخبار الضيوف عن إهلاك قوم لوط ليكون مظهراً لعذابه، ففي هذه المجموعة جاءت قصتان، وإليك البيان.

١. قصة ضيف إبراهيم(عليه السلام)

تزوّج إبراهيم(عليه السلام) من سارة أوّلاً، إلاّ أنّها كانت عاقراً فلم يُرزقا ولداً، حتى تقدّمت بهما السنّ، ثم تزوّج بجارية مصرية اسمها هاجر، فرُزق منها بإسماعيل، ثم شاء الله سبحانه أن يبشّر بواسطة الملائكة إبراهيم(عليه السلام)بأنّه سيُرزق ولداً من سارة رحمة بأهل هذا البيت، وإفاضة لنعمه عليهم، وهؤلاء هم الملائكة الذين نزلوا بيت إبراهيم(عليه السلام) في هيئة الآدميّين، فحيّوا إبراهيم(عليه السلام)بالسلام فردّ عليهم بمثله، ولما حلّ هؤلاء المرسلون بيت إبراهيم ظنّهم بشراً، فقام، على عادته في إكرام الضيف، بتقديم الطعام إليهم وكان عِجلاً مشويّاً، ولكنّه رأى أيديهم لا تمتدّ إلى العجل، فأنكرهم وأضمر منهم خوفاً، حيث إنّ أهل ذلك الزمان كانوا إذا أكل بعضهم طعام بعض آمنه صاحب الطعام على نفسه وماله، ولمّا رأى الملائكة ما به كشفوا عن أمرين:

١. تبشير إبراهيم بأنّه يُرزق ولداً عليماً.

٢. كونهم مرسلين إلى إهلاك قوم لوط.

وما ذكرناه هو ما يستفاد من هذه المجموعة، وإليك تفسير الآيات:

٥١. (وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ):

قوله تعالى:(وَنَبِّئْهُمْ) أي أخبرهم (قريشاً وغيرهم)خبراً مهمّاً (عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ): أي عن الضيوف الذين وردوا عليه، كما يقول:

٥٢. (إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلاَمًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ):

قوله:(إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ) أي وردوا عليه (فَقَالُوا سَلاَمًا) أي سلّموا عليه سلاماً، غير أنّ إبراهيم خاف منهم كما يقول:(قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ) وقد مرّ سبب خوف إبراهيم(عليه السلام) عند ذكر إجمال القصة، وعند ذلك أمّنوا إبراهيم بقولهم:

٥٣. (قَالُوا لاَ تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلاَمٍ عَلِيمٍ):

قوله: (قَالُوا لاَ تَوْجَلْ): أي لا تخف (إِنَّا نُبَشِّرُكَ): أي نخبرك بما يُبشرك(بِغُلاَمٍ عَلِيمٍ): أي بولد يكون غلاماً إذا وُلد، ويكون عليماً إذا بلغ.

٥٤. (قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ):

(قَالَ): أي إبراهيم (أَبَشَّرْتُمُونِي) بالمولود (عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ): أي مع أنّي في حال الكبر الذي لا ينجب (فَبِمَ تُبَشِّرُونَ): أي أبأمر الله تعالى فأثق به، أم من جهة أنفسكم؟ فأجابه الملائكة بما يأتي:

٥٥. (قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ):

(قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ): أي بشارتنا مصحوبة بالحقّ غير منفكّة عنه فلا تستبعد ما بشّرناك به، ثم نهَوه عن الاستبعاد وقالوا: (فَلاَ تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ)أي من اليائسين. نعم كان إبراهيم(عليه السلام) راجياً غير قانط، ولكن لمّا كانت البشارة على خلاف العادة الجارية فكلّ إنسان عندئذ يطرأ عليه التعجّب من سماعها، ويتراءى كونه شاكّاً فلذلك نهَوه عن اليأس، وهو نظير ما مرّ من سؤاله سبحانه عن كيفية إحياء الموتى:(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى)(البقرة:٢٦٠.) فأجابه سبحانه: (قَالَ أَوَ لَمْ تُؤْمِنْ) فأجابه إبراهيم:(قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي)(البقرة:٢٦٠.) والمقام نظير ذلك، حيث إنّ طروء الاستعجاب على قلب الإنسان الهَرِم أمر يصوّر كونه غير قانع ببشارة الملائكة، فلذلك نهَوه عن ذلك.

٥٦. (قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ):

لمّا سمع إبراهيم(عليه السلام) نهي الملائكة إيّاه عن القنوط، عاد يذكر ما في نفسه من عدم كونه قانطاً إذ هو من شيم الضالّين و(قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ): أي ومن الذي ييأس من رحمة الله وحسن إنعامه (إِلاَّ الضَّالُّونَ)عن طريق الحقّ، الجاهلون بقدرته تعالى؟ وكلامه هذا دليل قاطع على أنّه لم يكن قانطاً ولا شاكّاً بل متأكّداً من إمكانه، غاية الأمر أنّه استعجبه لكبر سنّه وسنّ زوجته، لكنّ الملائكة ظنّوا أنّه قانط.

ويظهر من بعض الآيات أنّ سارة شاركت زوجها إبراهيم في هذا الاستعجاب، قال تعالى حكاية عنها: (قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ) فخوطبت بمثل ما خوطب به زوجها: (قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ)(هود:٧٢ـ ٧٣.).

إلى هنا تمّ بيان قصة إبراهيم وزوجه، وإليك بيان القصة الثانية التي وردت في هذه المجموعة.

٢. قصة الاستئصال

٥٧.(قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ):

توسّم إبراهيم(عليه السلام) أنّ الضيوف أُرسلوا لمهمّة أُخرى غير التبشير، فسألهم عن شأنها و(قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ):

أي ما هي المهمّة التي أُرسلتم لأجلها غير التبشير؟ فأجابوا:

٥٨. (قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ):

أخبروه بقولهم:(إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ): أي مذنبين، والتعبير عنهم بكونهم (مُجْرِمِينَ) دليل على أنّ رسالتهم رسالة الإهلاك.

ولعلّ القرينة الحالية دلّت على أنّهم مرسَلون إلى أرض المؤتفكات في بلاد الأردن بقراها الخمس. ولمّا كان فيها آل لوط استثنوهم بقولهم:

٥٩. (إِلاَّ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ):

قوله: (إِلاَّ آلَ لُوطٍ) استثناء منقطع لأنّهم غير مجرمين (إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ) نسبوا الإنجاء إلى أنفسهم، وهذا دليل على أنّ الفعل التسبيبي(الإنجاء) تصحّ نسبته إلى الله سبحانه، وفي نفس الوقت إلى الملائكة.

٦٠. (إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ):

استثنوا امرأة لوط لأنّها كانت من المجرمات، والاستثناء متصل، فأخبروا عن إهلاكها بقولهم: (قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ): أي كُتب عليها بأنّها من الباقين مع الذين يشملهم الهلاك.

إلى هنا تمّ حوار الضيوف المكرمين مع إبراهيم(عليه السلام) في مرحلتين: مرحلة التبشير، ومرحلة الإنذار.

وأمّا بقية القصة وهي مغادرتهم بيت إبراهيم إلى آل لوط ومحادثتهم معه فهذا ما تذكره المجموعة التالية.

الحادية والستون إلى السادسة والستين (فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ...دَابِرَ هَؤُلاَءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ)

(فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ * قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ * قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ * وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ * فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ * وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاَءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ).

المفردات

مُنكَرون:غير معروفين عندي، من أيّ قوم أنتم؟ ولأيّ غرض دخلتم عليّ؟

يمترون: يشكّون ويكذّبون به، حيث كان يُحذِّرهم من العذاب وهم يشكّون.

فأسر بأهلك: أي اذهب بأهلك ليلاً.

بِقِطْع: بقسم من الليل. ولعلّ المراد بعدما يمضي أكثر الليل وتبقى قطعة منه.

واتّبع أدبارهم: أي كن وراء أهلك عند مغادرة المدينة حتى لا يبقى أحدٌ منهم فيها.

قضينا إليه: أوحينا إلى لوط ذلك الأمر.

دابر: آخر.

مقطوع: مجذوذ، مستأصَل.

مصبِحين: داخلين في وقت الصَّباح.

التفسير

خرج الملائكة من بيت إبراهيم(عليه السلام) وتوجّهوا إلى أرض المؤتفكات التي كان أهلها من المجرمين وفيها أيضاً آل لوط، فدخلوا عليه مثل دخولهم بيت إبراهيم، قال تعالى:

٦١. (فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ):

ذكر سبحانه أنّ المرسلين جاءوا إلى آل لوط، وفي الوقت نفسه ذكر في قصة إبراهيم(عليه السلام) أنّهم دخلوا عليه دون أن يقول على آل إبراهيم(عليه السلام)، ولعل الوجه أنّ البيت كان يشتمل على إبراهيم وزوجه فقط، بخلاف بيت لوط فإنّ فيه زوجه وبناته، فكانوا يشكّلون الآل.

٦٢. (قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ):

أي قال إنّكم قوم غير معروفين عندنا، وإنّما نَكِرهم لأنّهم جاءوه على هيئة وجمال لم يُر مثلهم قطّ، على أنّه كان يخشى من قومه الفاسدين إذا اطّلعوا على وجودهم في بيته، فحقّ له أن يقول: (إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ)فعندئذ قام الملائكة بتعريف أنفسهم للوط(عليه السلام).

٦٣. (قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ):

أي جئناك بالعذاب الذي يشكّ فيه قومك ويجادلون فيه عندما خوّفتهم به.

٦٤. (وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ):

ولأجل أن يطمئنّ لوط(عليه السلام) لإخبارهم قالوا:(وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ): أي جئناك بالأمر المحقّق المتيقّن الذي لا مجال فيه للشكّ، وأكّدوا ذلك بقولهم: (وَإِنَّا لَصَادِقُونَ): أي فيما أخبرناك.

وبعد أن اطّلع لوط على أنّ نزول العذاب على قومه أصبح أمراً محقَّقاً لا مرية فيه، اقتضى المقام بيان كيفية نجاته هو وأهله من العذاب، وهذا ما بيّنته له الملائكة بقولهم:

٦٥. (فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ):

رتّب الملائكة خروج آل لوط من المدينة ونجاتهم من الهلاك على تنفيذ أُمور:

١. (فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ): أي سِرْ في بقية من الليل. ولعلّ المراد القطعة المقاربة للصباح.

٢. (وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ): أي كن وراء أهلك، وذلك بأن يجعل الجميع قدّامه ويكون هو من خلفهم، فيصبح كالحائل بين نزول العذاب على قومه وأهله. ولعلّ الأمر بالسير خلف أهله لأجل أن لا يبقى أحدٌ منهم في المدينة.

٣. (وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ): أي لا يلتفت أحد منكم إلى ما وراءه من المدينة، وهذا كما يقول القائل: امضِ لشأنك ولا تعرّج على شيء. وعلى ذلك يكون تأكيداً للأمرين السابقين. والظاهر أنّ المراد هو السرعة في المشي لقرب نزول العذاب، والالتفات إلى هذا الطرف وذاك الطرف يورث التأخير.

٤. (وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ): أي اذهبوا إلى الموضع الذي أمركم الله بالذهاب إليه.

٦٦. (وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاَءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ):

قوله: (وَقَضَيْنَا): أي أوحينا إلى لوط بأنّ ذلك الأمر مقضيّ لا يتخلّف (أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاَءِ): أي آخرهم (مَقْطُوعٌ)مجذوذ مستأصل (مُصْبِحِينَ): أي داخلين في وقت الصَّباح.

ثمّ إنّه سبحانه نجّى آل لوط واستثنى امرأته، وهذا يدلّ على أنّ الصحبة الظاهرية لا تؤثّر في نجاة الشخص حتّى وإن لامس جسده جسد النبيّ المعصوم، وإنّما تؤثّر فيما لو كانت بينهما صلة معنوية ورابطة روحية، فمجرّد الصحبة لا يكفي ما لم يكن هناك إيمان وعمل، كما أنّها لا تؤثّر في نجاة الإنسان ولا تجعل الإنسان معصوماً من الذنب.

نعم لصحبة الكرام ـ فضلاً عن صحبة الأنبياء(عليهم السلام) ـ شرف وكرامة بشرط أن يكون المصاحِب مستعدّاً روحياً وأخلاقياً للاستضاءة بنور المصاحَب والاستنارة بهدايته.

السابعة والستون إلى السابعة والسبعين(وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ.. لآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ).

(وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ * قَالَ إِنَّ هَؤُلاَءِ ضَيْفِي فَلاَ تَفْضَحُونِ * وَاتَّقُوا اللهَ وَلاَ تُخْزُونِ * قَالُوا أَوَ لَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ * قَالَ هَؤُلاَءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ * لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ * فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ * فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيل * إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَات لِلْمُتَوَسِّمِينَ * وَ إِنَّهَا لَبِسَبِيل مُقِيم * إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ).

المفردات

يستبشرون: يفرّح بعضهم بعضاً بنزول ضيوف على لوط.

تفضحون:الفضيحة: إلزام العار والشنار بالإنسان.

تُخزون:الخزي:الإهانة والذُّلّ.

العالَمين:الناس.

لَعمرُك: قسم بحياة النبيّ محمد(صلى الله عليه وآله وسلم).

يعمهون: يتحيّرون ويتردّدون.

مشرقين: داخلين في وقت شروق الشَّمس.

سجِّيل: طين متحجّر، وفي سورة الذاريات: (لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِين)(الذاريات:٣٣).

للمتوسِّمين: العارفين المتّعظين، أي الذين رُزقوا ذكاءً وفراسة.

لَبسبيل:في طريق تجارة قريش إلى الشام.

مقيم: باق يُشاهَد كثير من آثارها.

التفسير

٦٧. (وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ):

لما اطّلع فسقة المدينة على وجود ضيف عند لوط(عليه السلام) فرحوا وبشّر بعضهم بعضاً بهذا الأمر، فقصدوا بيته(عليه السلام)، وبما أنّه لم يكن مطّلعاً على حقيقة ضيفه، قال لقومه الذين قصدوا السُّوء:

٦٨. (قَالَ إِنَّ هَؤُلاَءِ ضَيْفِي فَلاَ تَفْضَحُونِ):

حاول النبيّ لوط(عليه السلام) بما يملك من وسائل الإقناع أن يحمي ضيفه (الذين تصوّر أنّهم بشر بهذا الجمال والحسن)من قومه الفاسقين، فخاطبهم برفق وقال: (إِنَّ هَؤُلاَءِ ضَيْفِي) ولا خير فيمن لا يكرم الضّيف. ثمّ خاطبهم بأُمور ثلاثة:

الأوّل: (فَلاَ تَفْضَحُونِ): أي لا تلزموني فيهم عاراً بقصدكم إياهم بالسوء.

٦٩. (وَاتَّقُوا اللهَ وَلاَ تُخْزُونِ):

الثاني: (وَاتَّقُوا اللهَ) باجتناب معاصيه.

الثالث:(وَلاَ تُخْزُونِ): أي لا تهينوني في ضيفي.

٧٠. (قَالُوا أَوَ لَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ):

أي ألم ننهك عن ضيافتهم وإيوائهم والحيلولة بيننا وبينهم؟! إذ أنّهم كانوا يتعرّضون لكلّ غريب بالسُّوء، وكان لوط ينهاهم عن ذلك على قدر حوله وقوّته ويحول بينهم وبين المارّة، وكانوا قد نهوه عن هذا العمل.

قال الشيخ محمد أبو زهرة المصري، وهو يعلّق على إلقاء هؤلاء القوم تَبِعة فجورهم على لوط(عليه السلام): ولا نرى تبجّحاً من العقلاء

غير الفاسدين إلاّ قول بعض الطغاة، وقد ذُكِّر بأنّه قتل من قال محمد(صلى الله عليه وآله وسلم):«تقتلك الفئة الباغية»، فقال لمن يحطّون على هواه: إنّما قتله من أرسله!!(زهرة التفاسير:٨/٤١٠٠.)

أقول: مراده ببعض الطغاة معاوية بن أبي سفيان، وهو الذي صدر منه هذا القول بعد استشهاد عمّار بن ياسر في وقعة صفّين، وهو يقاتل في جيش الإمام عليّ(عليه السلام).(انظر: المستدرك على الصحيحين:٣/٣٨٦ـ٣٨٧، وقد صحّحه على شرط البخاري ومسلم، ووافقه الذهبيّ.)

٧١. (قَالَ هَؤُلاَءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ):

عبّر لوط(عليه السلام) عن نساء قومه ببناته لأنّ رسول الأُمّة كالأب لجميع أفرادها ذكوراً وإناثاً، وقد عرض لوط على قومه أن يتركوا الذكور ويتزوّجوا الإناث حلالاً طيباً، ولكن نفوسهم لا تطيب إلاّ بالحرام، ولا تميل إلاّ إلى الخبائث والآثام.(التفسير الكاشف:٤/٤٨٥.)

ويحتمل أنّه أراد بهنّ بناته لصُلبه، فطلب منهم أن يتزوّجوهنّ إن كانت لهم رغبة، كما يشير إليه بقوله: (إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ).

وهناك سؤال: أنّه كانت للوط(عليه السلام) بنتان أو ثلاث، فكيف يمكن أن يقتنع بهنّ هؤلاء الفسقة؟

وأجاب عنه أبو علي الجُبّائي المعتزليّ بقوله: ذلك للرؤساء الذين يكفّون الأتباع، وقد كان يجوز في تلك الشريعة تزويج المؤمنة بالكافر.(نقله الشيخ الطوسي في: التبيان في تفسير القرآن:٦/٣٤٧.)

ثمّ إنّه يستفاد من سورة هود أنّه لما سمعت الملائكة الحوار الدائر بين لوط(عليه السلام) وقومه أعلموه بأنّهم بمنأى عن أن يصل هؤلاء إليهم، كما قال سبحانه:(قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ)(هود:٨١.).

٧٢. (لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ):

لفظة (لَعَمْرُكَ) قسم بحياة النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) واللاّم الداخلة عليه (لام القسم) والعَمر والعُمر كلاهما بمعنى واحد، فهو قسم بحياة المخاطب، والغالب في القسم هو فتح العين.

والآية تخاطب النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) وتُقسم بحياته وتقول:(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ): أي في ضلالتهم، والسَّكرة: ذهاب العقل، وأُطلقت هنا وأريد بها الضلال، كأنّ المغلوب لدواعي الهوى يذهب عقلُه.

ويحتمل أن يكون الخطاب للوط(عليه السلام)، ولكنّه بعيد عن سياق الآية.

قوله: (يَعْمَهُونَ): أي يتحيّرون ولا يهتدون بشيء.

الحلف بغير الله

ذهب الوهابيون إلى أنّ الحلف بغير الله شرك(لاحظ: تطهير الاعتقاد للصنعاني:١٤.) أو شرك صغير(لاحظ: الهدية السنية:٢٥.). ومن المعلوم أنّ الإفتاء بالحرمة يجب أن يكون له رصيد من الكتاب والسنّة، لكن الكتاب العزيز على خلاف هذا القول، حيث إنّ الله أقسم في كتابه المجيد، في عشرات المرّات، بغير الله، حيث حلف سبحانه في سورة الشمس وحدها بثمانية أشياء من مخلوقاته، وقال: (وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاَهَا * وَ النَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا * وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا * وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا * وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا * وَنَفْس وَمَا سَوَّاهَا)(الشمس:١ـ٧.)، كما أنّه حلف في آيتنا هذه بعمر النبيّ وحياته، سواء أريد منه نبيّنا محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) أو النبيّ لوط(عليه السلام).

ولو كان الحلف شركاً وظلماً لله سبحانه ـ كما يدّعون ـ لما حلف به سبحانه، فإنّ الشّرك أمر قبيح حتى لو صدر من أيّ مقام.

ثمّ إنّ هؤلاء لمّا وقفوا على أقسام الحلف الواقعة في القرآن الكريم التي تناهز الأربعين قسماً، تأوّلوا الآيات بقولهم: بتقدير الربّ، في المقسم به، مثلاً: وربّ التّين وربّ الزيتون وربّ طور سنين وربّ هذا البلد الأمين!! وأنت ترى أنّ هذا تأويل بلا علم، وتفسير

بلا مصدر، وهو داخل تحت ما أخرجه الترمذي عن النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)، قال: «اتّقوا الحديث إلاّ ما علمتم، فمن كذب عليّ متعمداً فليتبوّأ مقعده من النار، ومن قال في القرآن برأيه فليتبوّأ مقعده من النار». (سنن الترمذي:١٥٧/٢، كتاب التفسير.)

أضف إلى ذلك أنّ النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) حلف بغير الله في موارد عديدة نذكر واحداً منها: روى مسلم بإسناده عن أبي هريرة، قال: جاء رجل إلى النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)فقال: يا رسول الله، أي الصدقة أعظم أجراً؟ فقال: «أما وأبيك لتُنبَّأنّه: أن تَصدّق وأنت صحيح شحيح، تخشى الفقر وتأمل البقاء...». (صحيح مسلم:٩٤/٣، باب أفضل الصدقة من كتاب الزكاة.)

وقد أقسم الإمام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب(عليه السلام) الذي يُعتبر النموذج الأمثل للتربية الإسلامية والقِيَم العالية، بنفسه الشريفة أكثر من مرّة في خُطبه ورسائله وكلماته. (لاحظ: نهج البلاغة: الخطب رقم ٢٣ و ٢٥ و ٥٦ و ٨٥ و ١٦١ و ١٦٨ و ١٨٢ و ١٨٧، و الرسائل رقم ٦ و ٩ و ٥٤.)

هلاك قوم لوط بأُمور:

لمّا تمادى القوم في الضلال ولم يستجيبوا للنصح، عمّهم العذاب، الذي اشتمل على ما يلي:

الأوّل: الصيحة

٧٣. (فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ):

أي أخذت الصيحة السماوية قوم لوط حين دخولهم في وقت شروق الشَّمس.

الثاني والثالث: قلب القرية، والإمطار بالحجارة

٧٤. (فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيل):

أمّا الثاني، فيدلّ عليه قوله تعالى:(فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا) وذلك بحدوث خسف في أرضهم على نحو قُلبت فيه القرية فصار أسفلها أعلاها.

وأمّا الثالث، فيدلّ عليه قوله تعالى: (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيل)فأُهلكوا بالرَّجم بحجارة من سجّيل، والسِّجِّيل: الطين المتحجّر.

٧٥. (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَات لِلْمُتَوَسِّمِينَ):

أُريد أنّ في قصة لوط(عليه السلام) وما جرى على قومه من الهلاك بأسباب مختلفة (لآيَات): أي لعِبَراً (لِلْمُتَوَسِّمِينَ): أي العارفين الذين رُزقوا ذكاءً وفراسة، فالعاقل هو الذي يتّعظ بتاريخ الأقوام السابقين، وما حلّ بهم من الرحمة أو العذاب.

وقد ورد في غير واحدة من الروايات أنّ أوّل المتوسِّمين هو رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) ثم أمير المؤمنين(عليه السلام) من بعده، ثم الحسن والحسين والأئمّة من ولد الحسين(عليهم السلام) إلى يوم القيامة. (لاحظ: عيون أخبار الرضا(عليه السلام):٢٠٠/٢.) ومن المعلوم أنّ الرواية ليست بصدد بيان شأن النزول وإنّما هي بصدد تطبيق الكلّي على المصداق الكامل.

٧٦. (وَ إِنَّهَا لَبِسَبِيل مُقِيم):

الضمير في قوله:(وَ إِنَّهَا) يرجع إلى قرية النبيّ لوط (لَبِسَبِيل مُقِيم): أي على طريق معلوم يشاهدونه. والمراد قرية (سدوم) التي كان يسكنها قوم لوط.

٧٧. (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ):

فالله سبحانه خصّ هذه العبرة بطائفتين. عبّر عن الأُولى بالمتوسّمين، وعن الثانية بالمؤمنين، غير أنّه جمع الآية في الأُولى وأفردها في الثانية، فما هو الوجه؟

أقول: الظاهر أنّه أُريد بالآية جنس الآية فيصدق على المتعدّد أيضاً.

وربما يُراد من الآيات العلامات التي تدلّ على ما حلّ بهذه القرية من العذاب والاستئصال، وكانت هذه العلامات موجودة حاكية عن استئصالهم عند نزول القرآن الكريم.

الثامنة والسبعون إلى الرابعة والثمانين(وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ ... مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ).

(وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ * فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ * وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ * وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ * وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ * فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ).

المفردات

الأيكة: الغيضة من الأشجار الملتفّ بعضها ببعض.

أصحاب الأيكة: هم قوم شعيب.

فانتقمنا:الانتقام: العقوبة لأجل ذنب صادر، ومشتق من النقم بمعنى الإنكار على الفعل، قال سبحانه:(وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا)(الأعراف:١٢٦).

لبإمام: الإمام هنا: الطريق.

مبين: واضح، يمرّون عليه في أسفارهم.

الحِجر: مشتق من الحجارة لأنّهم كانوا ينحتون بيوتهم في الجبال، وقيل: هو المكان المحجور،أي المحظور. وأُريد هنا وادي القرى بين المدينة والشام المعروف اليوم باسم (مدائن صالح) على الطريق من خيبر إلى تبوك.

أصحاب الحِجر: قوم ثمود.

التفسير

تقدّم في قوله سبحانه:(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ)(الحجر:٤٩ـ ٥٠) أنّه سبحانه رحيم بعباده، وفي الوقت نفسه، شديد عقابه، فذكر قصة إبراهيم(عليه السلام) التي جاء فيها ذكر مظاهر رحمته تعالى، ثم ذكر قصة لوط(عليه السلام) والتي فيها مظاهر عقابه، ثم جاء ذكر قومين آخرين لم يختلف مصيرهما عن مصير قوم لوط، وهما: قوم شعيب، وثمود(قوم صالح).

١. قصة قوم شعيب

تحدّث الذكر الحكيم عن هؤلاء القوم في سورتي: الأعراف، وهود على وجه التفصيل، واختصر الكلام هنا وقال:

٧٨. (وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ):

كان قوم شعيب يعيشون في أيكة، أي بقعة ممتلئة بالأشجار الملتفّ بعضها ببعض. ويظهر من بعض الآيات أنّهم كانوا غارقين في الشِّرك غير مراعين الحقوق في المعاملات، يقول سبحانه:(وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَه غَيْرُهُ وَلاَ تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْر وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْم مُحِيط * وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ * بَقِيَّةُ اللهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظ)(هود:٨٤ـ ٨٦)، ولذلك وصفهم سبحانه هنا بالظالمين وقال: (وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ) فقد كانوا يطفّفون في الكيل والميزان ويبخسون الناس أشياءهم.

٧٩. (فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَام مُبِين):

الآية تتضمّن أمرين:

الأوّل: إنزال العقوبة بهم كما يقول: (فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ)، وأمّا كيفية إهلاكهم فأشار إليها في سورة الأعراف بقوله: (فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ)(الأعراف:٧٨ و ٩١، ونظيرها في سورة العنكبوت:٣٧).

الثاني:(وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ) ضمير التثنية يرجع إلى قريتي: قوم لوط وأصحاب الأيكة، والمراد أنّ القريتين في طريق واضح يمرّ عليهما المكيّون في أسفارهم.

وقد تقدّم ذكر مدينة قوم لوط في قوله: (وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ) فلعلّ ذكر مدينة قوم لوط مع مدينة قوم شعيب تأكيد للأوّل.

٢. قصة ثمود(قوم صالح)

٨٠. (وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ):

وصف سبحانه قوم صالح (ثمود) بأنّهم: (أَصْحَابُ الْحِجْرِ)ولعلّه اشتُقّ من الحجارة لأنّهم كانوا ينحتون بيوتهم في سفح الجبل نحتاً محكماً. ويشهد لذلك ما يأتي من قوله: (وَكَانُوا يَنْحِتُونَ...)(الحجر:٨٢).

ثمّ إنّه سبحانه وصفهم بأنّهم كذّبوا المرسلين مع أنّهم كذّبوا رسولهم فقط، ووجهه واضح، فإنّ كلّ مصدّق برسول مصدّق بمن قبله، فإذا كذّبوا به فقد كذّبوا بجميع مَن قبله من الرُّسل، لأنّ دعواتهم جميعاً، في أُصولها، واحدة.

٨١. (وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ):

دلّت هذه الآية على أنّه سبحانه آتاهم آيات كما يقول:(وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا)مع أنّه لم تكن هنا إلاّ آية واحدة وهي الناقة التي خرجت بطريقة إعجازية من الجبل أو الصخرة. ولعلّ التعبير بالجمع (آيَاتِنَا) لأجل أنّها تشتمل على آيات وهي خروجها من الجبل، وحياتها، وشربها، ولبنها الكثير، قال سبحانه: (إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ)(القمر:٢٧).

قوله تعالى: (فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ): أي معرضين عن تلك الآيات والدلائل البيّنات على وجه التكذيب، حيث أقدموا على عقر الناقة مع أنّ نبيهم أوصاهم بأن لا يتعرّضوا لها بشيء من السُّوء، كما قال: (وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)(الأعراف:٧٣).

٨٢. (وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ):

هذه الآية تكشف عن وجود حضارة خاصّة بهم، حيث كانوا ينحتون من الجبال بيوتاً يسكنونها، فقوله: (آمِنِينَ): أي كانوا آمنين من خرابها وسقوطها عليهم، أو آمنين من غزو الأعداء.

نزول عذاب الاستئصال

٨٣. (فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ):

أوعدهم نبيّهم بأنّهم سيهلكون بعد ثلاثة أيّام بعدما عقروا الناقة، فقال: (تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ)(هود:٦٥). فعند ذلك هلكوا بالصيحة كما يقول: (فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ): أي حين دخولهم في وقت الصَّباح.

٨٤. (فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ):

أي ما دفعتْ عنهم العذاب تلك البيوت التي نحتوها من الجبال، وما جمعوا من الأموال والأولاد.

ثمّ إنّ الظاهر من الآيات أنّهم أُهلكوا بالصيحة كما قرأت، غير أنّه يظهر من آيات أُخرى أنّهم أُهلكوا بالرَّجفة، قال تعالى: (فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ)(الأعراف:٧٨). ويظهر من آية ثالثة أنّهم أُهلكوا بالصاعقة، قال سبحانه: (وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ * فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ)(الذاريات:٤٣ـ ٤٤).

والجواب: أنّ العذاب الذي استأصل الله به ثمود كان صاعقة سماوية، وسائر التعابير وصف لها ولآثارها، لأنّ الصاعقة تقترن عادة بصوت شديد مدوّ(الصَّيْحَةُ) فارتجفت من هوله قلوبهم وارتعدت فرائصهم (الرَّجْفَةُ) أو رافق ذلك اهتزاز في الأرض واضطراب وانهيار فيها، فالتصقوا بالأرض وانكبّوا على وجوههم صرعى (جَاثِمِينَ).

والصاعقة كما يعرّفها علماء الطبيعة، استفراغ كهربائي يحصل بين كهربائيتين متخالفتين بالإيجاب والسَّلب فيحصل من ذلك البرق الشديد ثم الرّعد بسبب اضطراب الهواء وتدافع أجزائه في كلّ مكان، الاستفراغ، وذلك هو الصيحة.(قصص الأنبياء للنجّار:٦٦.)

الخامسة والثمانون إلى آخر السورة(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ ... وَ اعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ).

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ * وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ * لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ * وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ * كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ * الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ * فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ * الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ * وَ اعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ).

المفردات

فاصفح: قال الراغب: الصفح: ترك التثريب(اللوم) وهو أبلغ من العفو، ولذلك قال: (فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ).(البقرة:١٠٩.)

الصفح الجميل: العفو الخالي من العتب.

المثاني: من التثنية، وهي التكرير، وهو جمع مَثنى بمعنى اثنين اثنين، قال سبحانه:(مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ)(النساء:٣.). وأريد هنا مطلق التكرير. وقيل جمع «مثنّى» من «ثنّي»: إذا كرر تكريراً.

لا تمدّن عينيك:لا تطمح ببصرك طموح راغب فيه.

أزواجاً: أصنافاً، جمع زوج.

اخفض جناحك: خفض الجناح يُراد به التواضع واللّين. وأصل ذلك هو أنّ الطائر إذا أراد أن يضمّ فراخه إليه بسط جناحه لتجتمع فراخه تحت جناحيه.

عِضين: جمع عِضَة، وهي الجزء والقطعة من الشيء. والمعنى: فرّقوه مثل الأعضاء.

فاصدع: اجهر به، من صَدَع بالحجّة.

اليقين:الموت.

التفسير

إنّ أساس دعوة الأنبياء هو توحيده سبحانه وحشر الناس يوم المعاد، وقد مرّ ذكر أقوام كذّبوا أنبياءهم كأصحاب الأيكة والحِجر، فلو كانوا مؤمنين بالمعاد ويوم الجزاء والحساب لَمَا مارسوا كلّ هذا الظلم وارتكبوا تلك الجرائم الهائلة، وهنا جاء البيان القرآني لتثبيت هذا الأصل وأنّ لخلق السماوات والأرض غاية تسبّب كون الخلق بالحقّ، وليست هي إلاّ الساعة، قال:

٨٥. (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ):

وصف سبحانه خلْقَ السماوات والأرض وما بينهما بالحقّ وقال:(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ)، وأريد من قوله:(بِالْحَقِّ)أنّ الكون خُلق لغاية، ولم يُخلق باطلاً، ويفسّره قوله سبحانه في آية أُخرى: (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا

بَاطِلاً)(ص:٢٧.). وفي آية ثالثة:(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ)(الدخان:٣٨ـ ٣٩.)
فالغاية من خلق ذلك هي الساعة بقرينة قوله:(وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ)، وعلى هذا فلولا الساعة لكان خلقهما أمراً عبثاً. ولمّا كان سبحانه يجزي كل إنسان وفق عمله يوم القيامة، أمر النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)بقوله:(فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ): أي أعرض عنهم إعراضاً جميلاً واحلُم عنهم فإنّ لهم يوماً يحاسبون فيه، وقد فسّر الإمام الرضا(عليه السلام)الصفح الجميل بالعفو من غير عتاب.(لاحظ: تفسير نور الثقلين:٣/٢٧.)

وهكذا غدا الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم)،بفضل التوجيهات الربّانية، المثل الأعلى في الحلم والصفح وحسن العفو عن المسيئين، وفي سعة الصدر واحتمال أذى الجاهلين. وقد زخرت كتب السيرة والمناقب بروائع الصور الدالّة على رسوخ هذه السجيّة الشريفة فيه، والتي عاش في ظلالها حتى الخصماء اللُّدّ، أو كما قال أحد المعاصرين:«سعة الصدور ميدان رحيب لالتقاء الأصدقاء والأعداء».(التعايش السلمي للدكتور محمود الموسوي:٦٨.)

وبما أنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) ـ مهما كان له من العصمة والعزيمة ـ يحتاج إلى شدّ عزيمته وتقوية روحه من جانب الله سبحانه، فلذلك تأتي الآيات التالية كلّها في هذا المسار.

٨٦. (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ):

والدليل على أنّ الآية بصدد تطييب نفس النبيّ وشدّ عزيمته يخاطبه سبحانه ويقول:(إِنَّ رَبَّكَ) مكان إنّ الله (هُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ)، ولازم هذين الوصفين أنّه يعرف هؤلاء ويخبرهم فيجزيهم حسب ما عملوا.

بطلان الاستدلال بالآية المتقدّمة على الجبر أو التفويض

بقي الكلام في قوله سبحانه:(وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ) فقد استدلّ المجبّرة على أنّه سبحانه هو الخالق لجميع أعمال العباد؛ لأنّ الآية تدلّ على أنّه تعالى هو الخالق للسماوات والأرض ولكلّ ما بينهما، ولا شكّ أنّ أفعال العباد بينهما، فوجب أن يكون خالقها هو الله سبحانه.

كما أنّ المعتزلة استدلّوا بالآية على التفويض، ونقل الرازي عن الجبّائي أنّ في الآية بطلان مذهب الجبرية؛ لأنّ المعاصي وقبائح الأعمال من الباطل، فلو كانت مخلوقة له لكانت مخلوقة بالحقّ، والباطل لا يكون مخلوقاً بالحقّ.(انظر: تفسير الرازي:١٩/٢٠٦.)

والظاهر أنّ الاستدلال بالآية على كلّ من المذهبين، باطل من رأس، وذلك لأنّه لم يُشاهد ولم يُعرف في القرآن الكريم نسبة الخلق إلى الأفعال، فلا يقال: خلقت الأكل، أو خلقت المشي، أو خلقت الكلام، إلاّ في آية واحدة وهي بضرب من المجاز، أعني قوله سبحانه:(إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا)(العنكبوت:١٧.)، وما في كتب هؤلاء من أنّ أفعال العباد مخلوقة لله أو لأنفسهم من كلام المولّدين الذين لا يُعتدّ بتعبيرهم، فعلى هذا فالآية ناظرة إلى الجواهر والأعراض في السماوات والأرض وما بينهما دون أفعال العباد، فالاستدلال من كلا الجانبين غير صحيح. على أنّ الجبر والتفويض باطلان، والحقّ هو الأمر بين الأمرين، والتفصيل في محلّه.

٨٧. (وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ):

اختلفت كلمة المفسرين في تفسير هذه الآية من جهات:

١. ما هو المراد من قوله: (سَبْعًا)؟

٢. هل لفظة (مِنَ) للتبعيض أو للتبيين؟

٣. ما هو المفرد للفظة المثاني؟

٤. ما هو وجه تسمية القرآن بالمثاني؟

أمّا الأوّل: هل المراد هو سبعاً من الآيات أو سبعاً من السُّوَر؟ فالمرويّ من طرق الفريقين هو الأوّل، وأُريد فاتحة الكتاب (سورة الحمد)، التي تشتمل على آيات سبع، مع البسملة، ولذلك اتّفق المفسرون على أنّ البسملة جزء من فاتحة الكتاب، وإلاّ تكون السورة ست آيات، لا سبعاً. وروي من طرق السنّة غير هذا، أعني سبعاً من السُّوَر، كما سيوافيك.

وممّا ورد من الروايات على أنّها فاتحة الكتاب:

١. روى الشيخ الطوسي بإسناده عن محمد بن مسلم قال: سألت أبا عبد الله]الصادق[(عليه السلام) عن السبع المثاني والقرآن العظيم هي الفاتحة؟ قال:«نعم».(تهذيب الأحكام:٢/٢٨٩، الحديث١٣.)

٢. روى الصَّدوق بإسناده عن الحسن بن علي]العسكري[عن آبائه(عليهم السلام)، عن أمير المؤمنين(عليه السلام) أنّه قال: (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمن الرَّحِيم)آية من فاتحة الكتاب، وهي سبع آيات تمامها(بِسْمِ اللهِ الرَّحْمن الرَّحِيم) سمعت رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) يقول: إنّ الله تعالى قال لي: يا محمد(وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ) فأفرد الامتنان عليّ بفاتحة الكتاب، وجعلها بأزاء القرآن العظيم».(عيون أخبار الرضا(عليه السلام):١/٢٧٠ برقم ٦٠، مؤسسة الأعلمي، ١٤٠٤هـ ـ١٩٨٤م.)

فخصّ فاتحة الكتاب بالذكر امتناناً واهتماماً بها، ولذلك عطف القرآن الكريم عليها، وما ربّما يقال: من أنّ المعطوف يجب أن يكون مغايراً للمعطوف عليه، فوجب أن تكون السبع المثاني غير القرآن، غير تامّ، إذ ربّما يعطف الكلّ على الجزء ويخصّ الجزء بالذكر اهتماماً به، قال سبحانه:(وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا)(الأحزاب:٧.)، وقال سبحانه: (مَنْ كَانَ عَدُوًّا للهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ)(البقرة:٩٨.) .

٣. روى ابن جرير الطبري بإسناده عن عبد خير]ابن يزيد الخَيواني الهَمْداني[، عن عليّ(عليه السلام)، قال: السَّبع المثاني: فاتحة الكتاب.

وروى بإسناده عن ابن سيرين، قال: سئل ابن مسعود عن سبع من المثاني، قال:فاتحة الكتاب.

وروى بإسناده عن أُبيّ بن كعب، أنّه قال: السبع المثاني: الحمد لله ربّ العالمين.

وروى نحو ذلك عن: ابن عباس، والحسن البصري، ومجاهد، وغيرهم.(انظر: جامع البيان(تفسير الطبري):١٤/٦٩ـ ٧٣، أرقام الروايات:٢١٣١٤ـ ٢١٣٤٤.)

٤. وفي حديث أبي سعيد بن المعلّى، وأُبيّ بن كعب، وأبي هريرة، عن رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم): «أنّ أُمّ القرآن هي السبع المثاني».(انظر: التحرير والتنوير:١٣/٦٤.)

وقيل: إنّ المراد هو السُّور السّبع الطوال: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، ويونس، أو الأنفال والتوبة(على القول بأنّهما سورة واحدة لعدم وجود البسملة في الثانية.) بدل يونس، وقد أورد الطبري في ذلك مجموعة من الروايات(. انظر: جامع البيان:١٤/٦٥ـ٦٨، أرقام الروايات: ٢١٢٨٢ـ٢١٣١١.)، ومع ذلك فهذا القول غير تامّ، لوجهين:

١. قد عرفت أنّ القول بأنّ المراد هو سورة الفاتحة، مرويٌّ من طرق السنّة والشيعة، دون القول الثاني.

٢. أنّ قسماً من هذه السُّور مدنيّ وآيتنا مكيّة، فكيف يخبر سبحانه النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) بهذه السُّور التي لم ينزل بعضها بعدُ؟! ولو كان النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) عالماً فما حال غيره الذين يتعلّمون القرآن منه(صلى الله عليه وآله وسلم) بعد نزوله؟!

وقد نبّه إلى ذلك التابعيّ أبو العالية رُفيع بن مهران الرّياحي، فقد روى الطبري بإسناده عن الرَّبيع بن أنس، أنّه قيل لأبي العالية: إنّ الضحّاك بن مزاحم يقول: هي السبع الطُّوَل، فقال: لقد نزلت هذه السورة سبعاً من المثاني، وما أُنزل شيء من الطُّوَل.(جامع البيان :١٤/٧١، برقم ٢١٣٢٩.)

وأمّا الثاني: فالظاهر أنّ (مِن) للتبعيض أي (سَبْعًا) هو جزء من (الْمَثَانِي) وأريد بالمثاني مجموع القرآن، والمثاني من أسماء القرآن كما في قوله :(اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ)(الزمر:٢٣). والله سبحانه وصف القرآن في هذه الآية بوصفين:(مُتَشَابِهًا)، يشبه بعضه بعضاً.(مَثَانِيَ) لتكرّر مضامينه، والآيات السبع أعني سورة الفاتحة جزء منه وبعض من مجموع القرآن، أعني المثاني.

قال الإمام علي(عليه السلام):«وَيَنْطِقُ بَعْضُهُ بِبَعْض، وَيَشْهَدُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْض».(نهج البلاغة، الخطبة١٣٣).

وأمّا الثالث: فالظاهر أنّ المثاني جمع مَثنى، أو مثنّى بمعنى المكرّر.

وأمّا الرابع: أي وجه تسمية القرآن بالمثاني فقد مرّ وجهه.

ثمّ إنّه سبحانه عطف على قوله: (سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي) قوله: (وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ) مع أنّ فاتحة الكتاب جزء من القرآن العظيم، وما ذلك إلاّ لتعظيم أمر الفاتحة وجلالتها وعظم شأنها بحيث قوبلت بالقرآن العظيم.

وبما ذكرنا تبيّن أنّ الآية أيضاً في سياق الدعوة إلى الصفح في مقابل أنّه سبحانه أنعم عليه بهذه الموهبة العظيمة التي تشتمل على المعارف الإلهية الواردة في القرآن العظيم.

٨٨ و ٨٩. (لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ):
٨٨ و ٨٩. (لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ * وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ):
ذكر تعالى في هاتين الآيتين أحكاماً أربعة، تشتمل على نَهيين، وعلى أمرين.

ذكر تعالى في هاتين الآيتين أحكاماً أربعة، تشتمل على نَهيين، وعلى أمرين. أمّا النّهيان، فقوله:

١. (لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ).

٢. (وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ).

وأمّا الأمران فقوله:

١.(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ).

٢. (وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ).

فلندرس الجميع، واحداً بعد الآخر.

ابتدأ سبحانه بقوله: (لاَ تَمُدَّنَّ) دون أن يقول: ولا تمدّن، وكأنّ المضمون بمنزلة النتيجة المترتّبة على الآية السابقة، ولولا ذلك لعطف الآية بالواو، كما عليه في سورة أُخرى، يقول سبحانه:(فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى * وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى).(طه:١٣٠ـ ١٣١).

ووجه قولنا إنّ الآية بمنزلة النتيجة المترتّبة على ما سبق، هو أنّه سبحانه لمّا أنعم على النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)بنعمة كبرى، وهي السّبع من المثاني والقرآن العظيم، فهو بهذه النّعمة، التي تعدّ أكبر النّعم التي تفضّل بها سبحانه على نبيّه، مستغن عمّا عليه مشركو زمانه من الغنى والتّرف، فلذلك ينهاه سبحانه عن مدّ عينيه إلى ما تمتّعوا به وقال: (لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ)، ومن المعلوم أنّ المدّ عبارة عن بسط الجسم كمدّ اليد إلى الطعام، واستعير هنا للتحديق بالنظر إلى ما أُوتي مشركو عصره من أسباب النعيم وأهمها هو كونهم يعيشون على شكل أصناف وجماعات وأزواج، لأنّ العيش بهذا النحو تمتع.

ثمّ إنّه سبحانه أردف هذا النهي بنهي ثان، فقال:(وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ): أي لا تحزن على إصرارهم على الكفر والشِّرك. ويدلّ عليه قوله سبحانه:(فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا)(الكهف:٦.)، والآية تدلّ على حرص النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) على هداية المشركين، إلى حدٍّ قد يُهلك نفسه في سبيل ذلك.

وأمّا الأمران: فالأوّل منهما قوله سبحانه: (وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ) أمر سبحانه نبيّه(صلى الله عليه وآله وسلم) بخفض الجناح والتواضع، وهذا يقابل ما سبق، أعني قوله تعالى: (وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ)، حيث يأمر النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) بالإعراض عن المشركين وعدم الاكتراث بهم، والاهتمام بالمؤمنين، والتحنّن عليهم والرّفق بهم.

يقول الشريف الرضيّ: قوله:(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ) استعارة، والمراد بها أَلِن كَنَفَك لهم، ودُم على لطفك بهم، وجعل تعالى خفض الجناح هاهنا في مقابل قول العرب إذا وصفوا الرّجل بالحدّة عند الغضب: قد طار طَيرُه، وقد هفا حلمه، وقد طاش وَقارُه، فإذا قيل: قد خفض جناحه، فإنّما المراد به وصف الإنسان بلين الكنَف والكظم عند الغضب، وذلك ضدّ وصفه بطَيرة المُغضب ونزوة المتوثِّب.(تلخيص البيان في مجازات القرآن:٨٨.)

وأمّا الأمر الثاني، فهو إنذار المشركين من عذاب الله، فأمر نبيّه أن يقول:(وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ) من العذاب. وبذلك تبيّن أنّ الإعراض عنهم ليس بمعنى تركهم على الإطلاق، بل عليه إنذارهم حيناً بعد حين، ولكن لا يُذهب نفسه حسرات عليهم لرفضهم الاستجابة لدعوته، فهم لا يستحقّون ذلك.

وبهذه الوصايا الأربع التي أوصى بها تعالى نبيّه، تكتمل الفضائل في شخصيّته(صلى الله عليه وآله وسلم)، فمن جانب لا يمدّ نظره إلى ما عليه الكفّار والمشركين من الغِنى والتَّرف، وفي الوقت نفسه لا يحرص على هدايتهم إلى حدّ يعرّض فيه نفسه للخطر، ومن جانب آخر عليه أن يعطف على المؤمنين ويُلين لهم جانبه ويتواضع لهم، ومع ذلك لا يترك الكفّار بحالهم بل يقوم بإنذارهم حيناً بعد حين.

٩٠ و ٩١.(كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ * الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ):

رفع الإبهام عن الآيتين يتوقف على بيان أمرين:

١. أنّ «الكاف» يفيد التشبيه، فما هو المشبّه؟ وما هو المشبّه به؟ وما هو وجه الشَّبه؟

٢. ما هو المراد من (الْمُقْتَسِمِينَ) مصداقاً، وإن وصفهم سبحانه بقوله:(الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ). فلنبحث هذه الأُمور:

أمّا الأوّل:

أمّا الأوّل: فالمشبَّه هو إنزال العذاب. توضيحه: لمّا تقدّم قوله سبحانه: (وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ)فيكون قد أنذركم بعذاب ينزل عليكم (كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ)، وعلى هذا فالمشبّه هو العذاب المطلق، والمشبّه به هو العذاب النازل على المقتسمين.

وبذلك تبيّن وجه الشَّبه أيضاً.

وأمّا الثاني:

وأمّا الثاني: فالله سبحانه وصف المقتسمين ولكنّه لم يبيّن المصداق، غير أنّ شأن النزول بيّن لنا مَن هم هؤلاء.

يقال: إنّ المقتسمين هم الذين كانوا يصدّون الناس عن رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)والإيمان به، وهم ستة عشر رجلاً، وقيل اثنا عشر وهم: حنظلة بن أبي سفيان، وعتبة وشَيبة ابنا ربيعة، والوليد بن المغيرة، وأبو جهل، والعاص بن هشام، وأبوقيس بن الوليد، وقيس بن الفاكه، وزهير بن أُمية، وهلال بن عبد الأسود، والسائب بن صيفي، والنضر بن الحارث، وأبو البختري بن هشام، وزمعة بن الحجّاج، وأُميّة بن خلف، وأوس بن المغيرة. وكان على رأسهم الوليد بن المغيرة أمرهم ليقفوا على مداخل طرق مكة

لينفّروا الناس عن الإيمان برسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) فانقسموا على هاتيك المداخل، يقول بعضهم: لا تغترّوا بالخارج فإنّه ساحر، ويقول الآخر: كذّاب، والآخر: شاعر، إلى غير ذلك من هذيانهم.(روح المعاني:١٤/٨١.)

وإلى هذا يشير سبحانه بقوله:(ٱلَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ): أي قسّموا القرآن إلى أقسام فتارة زعموا أنّه سحر، وأُخرى أنّه كذب، وثالثة أنّه شعر، ورابعة أنّه كهانة، وخامسة أنّه أخذه من غيره، فهؤلاء أهلكهم الله تعالى يوم بدر، ولعلّ بعضهم هلك قبل بدر، وهذا هو المرويّ عن أحد الصادقين(عليهما السلام).(لاحظ: البرهان في تفسير القرآن:٥/٥١٦.)

وقد أخبر سبحانه عن عذابهم بالفعل الماضي وقال:(كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ)، بالرغم من أنّ هلاكهم أو هلاك كثير منهم وقع بعد ذلك، لأنّه كان أمراً محقّقاً.

التفسير الثاني

كان التفسير الأوّل يدور حول نزول العذاب، وأمّا التفسير الثاني فيدور الحديث فيه على نزول الآيات، بالبيان التالي:

إنّ قوله: (كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ) متعلّق بما قبله، أعني قوله تعالى: (وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ)، والمعنى: آتيناك سبعاً من المثاني إيتاءً (كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ): أي أهل الكتاب (ٱلَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ) فقسّموه إلى حق وباطل، حيث قالوا ـ عناداً وعداوة ـ : بعضه حقّ موافق للتوراة والإنجيل، وبعضه باطل مخالف لهما. وقد روي هذا التفسير عن ابن عباس، قال: هم أهل الكتاب جزّؤوه فجعلوه أعضاءً، فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه.(جامع البيان (تفسير الطبري):١٤/٧٩ برقم ٢١٣٧٤. ولاحظ: تفسير الكشاف:٢/١٩٥، وروح المعاني:١٤/٨١.)

يلاحظ على هذا التفسير أنّ السورة مكّية، ولم يكن في تلك الفترة أي حديث عن أهل الكتاب (اليهود والنصارى) حتى يعترضوا على القرآن ويقسّموه.

ثم إنّ الزمخشري ذكر وجهاً ثالثاً وقال: يجوز أن يراد بالقرآن ما يقرأونه من كتبهم وقد قسّموه بتحريفهم وبأنّ اليهود أقرّت ببعض التوراة وكذبت ببعض، والنصارى أقرّت ببعض الإنجيل وكذّبت ببعض.(تفسير الكشاف:٢/١٩٥.)

يلاحظ عليه: أنّه لم يُعهد إطلاق القرآن على التوراة والإنجيل.

٩٢ و ٩٣. (فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ):

«الفاء» للتفريع، و«الواو» للقسم، فالآية متفرّعة على قوله:(وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ)(الحجر:٨٥.)، والآيتان تؤكدان أنّ الصفح عنهم ليس بمعنى تركهم بحالهم إلى نهاية الأمر، ولذلك يقسم ويقول: (فَوَرَبِّكَ)يا محمد، وفي ذلك تشريف له (صلى الله عليه وآله وسلم)، إنّا نحشرهم، ثمّ (لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) من الصدّ عن الإيمان بالقرآن والاستضاءة بأنواره، وفي هذا تطييب لنفس النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)وتسلية له، حيث إنّ هؤلاء سوف يُؤخذون ويُسألون سؤال توبيخ وتقريع ويُجزَون.

٩٤. (فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ):

أمر الله سبحانه نبيّه في هذه الآية بأمرين:

١. الإجهار بما أُمر به، كما يقول: (فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ): أي أظهِر وأعلِن وصرِّح برسالتك. روى الصّدوق بسنده عن عبيد الله بن علي الحلبي عن أبي عبد الله[الصادق](عليه السلام) يقول: «مكث رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) بمكّة بعدما جاءه الوحي عن الله تبارك وتعالى ثلاث عشرة سنة، منها ثلاث سنين مختفياً خائفاً لا يظهر حتّى أمره الله عزّ وجلّ أن يصدع بما أمره به، فأظهر حينئذ الدعوة».(كمال الدين وتمام النعمة:٣٤٤، الباب(٣٣)، برقم ٢٩.)

وقال محمد بن إسحاق بن يسار: كان(صلى الله عليه وآله وسلم) يدعو الناس خفية بعد نزول (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ)، ثلاث سنين.(نقله زيني دحلان في: السيرة النبوية:١/١٩٦.)

وبذلك يظهر وجه التفريع في قوله:(فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ) حيث إنّه مترتّب على قوله: إنّه سبحانه سيحشرهم ويجزيهم، وعلى هذا فعليك الإجهار بالحقّ.

٢. الإعراض عن المشركين كما يقول: (وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ): أي أعرض عن إبائهم الإيمان، ولا تخاصمهم.

ثمّ إنّه سبحانه علّل الإعلان بالحقّ والخروج عن الاختفاء بقوله:

٩٥. (إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ):

أي كفيناك أعداءك المستهزئين فلا يصل شرُّهم إليك، والله سبحانه قد حفظ نبيّه(صلى الله عليه وآله وسلم) طوال فترة دعوته في مكّة إلى أن غادرها إلى المدينة. وقد اختُلف في عدّة هؤلاء المستهزئين، وأكثر الروايات على أنّهم خمسة من قريش، فقد روى الصدوق بإسناده عن أبان بن عثمان الأحمر رفعه، قال:«المستهزئون برسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)خمسة: الوليد بن المغيرة المخزوميّ، والعاص بن وائل السهميّ، والأسود بن عبد يغوث الزُّهريّ، والأسود بن المطّلب، والحارث بن الطلاطلة الثقفيّ».(الخصال:٢٧٨، باب الخمسة، برقم ٢٤. وروى نحوه ابن جرير الطبري بإسناده عن سعيد بن جبير، إلاّ أنّه قال: الحارث بن عيطلة، بدل ابن الطُّلاطلة. انظر: جامع البيان(تفسير الطبري):١٤/٩٠، برقم ٢١٤٢٢.) وروي أنّهم هلكوا جميعاً قبل وقعة بدر.(انظر: جامع البيان(تفسير الطبري):١٤/٩٠، برقم ٢١٤٢٣، وص٩٢، برقم ٢١٤٣٤.)

ثمّ إنّه سبحانه يصف هؤلاء المستهزئين بأوضح صفات:

٩٦. (الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ):

عرّف الله هؤلاء المستهزئين بالشِّرك الذي هو بوابّة المعاصي والجرائم، فإنّ المشركين يعدُّون الموت نهاية الحياة ولا يعتقدون بحياة أُخرى يُحاسَبون فيها على أعمالهم وأفعالهم، ولذلك لا يكترثون لما يصدر عنهم من قول أو فعل، ولكنّهم سوف يعلمون وبال ذلك يوم القيامة.

٩٧. (وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ):

لمّا كان المستفاد من قوله:(فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) أنّ الله سبحانه يُمهلهم مدّة، وهذا يعني استمرار إيذائهم للنبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) بتكذيبه والاستهزاء به وبما جاء به، وكان ذلك يُحرجه، جاء البيان القرآني ليسلّي النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)ويقول:(وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ): أي بما يفترون عليك من كلمات التكذيب والاستهزاء، فأعرض عنهم، وقم بالأعمال الثلاثة الآتية:

١. التسبيح المقترن بالحمد.

٢. الإكثار من الصلاة.

٣. المداومة على العبادة.

أمّا الأوّل والثاني، فأشار إليهما بقوله تعالى:

٩٨. (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ):

أمره سبحانه بالتسبيح والتنزيه المصحوب بالحمد، وقال: (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ): أي مصحوباً به، فالتسبيح تنزيه عن النقائص، والحمد تعريف له بصفات الكمال والجمال. ولم يقتصر على التسبيح والتحميد بل أمره بشيء ثان: (وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ): أي من

المصلّين. وذكر الصلاة باسم أفضل أجزائها وهو السجود، وفي الحديث: «كان رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) إذا حَزَبه أمر، فزع إلى الصلاة»(بحار الأنوار:٧٩/١٩٢). قال سبحانه:(وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ)(البقرة:٤٥).

وأمّا الثالث، فأشار إليه بقوله:

٩٩. (وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ):

لقد أمره سبحانه هنا بالمداومة على العبادة، وقال: (وَ اعْبُدْ رَبَّكَ): أي دُم على ما أنت عليه من عبادته سبحانه (حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ): أي الموت، فبحلول الأجل ونزول الموت يتبدّل الغيب إلى الشهادة ويصير الخبر عياناً، فالنبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) ومن على دينه مأمورون بعبادة الله سبحانه حتى يدركهم الموت وينتقلوا إلى عالم آخر ليس فيه تكليف.

نعم نُقل عن بعض مَن يدّعون الكشف والشهود أنّ العبد متى حصل له ذلك سقط عنه التكليف بالعبادة، وليست العبادة إلاّ للمحجوبين، وهو لا يستحق الردّ، لأنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)عبدَ الله سبحانه حتى أتاه الموت، ووصيّه الإمام علي(عليه السلام) استشهد في محراب عبادته، وهذا الرأي يصدر ممّن لم يعرف حقيقة العبودية فإنّها حالة مستمرّة على طول حياة الإنسان مهما عاش.

أقول: إنّ هذا الإنسان الذي يدّعي رفع الحجب هل يعيش في الغابات أو في رؤوس الجبال أو أنّه يعيش في المجتمع الإسلامي؟! فمعنى رفع التكليف عنه يعني عدم التزامه بما أمره سبحانه في أبواب العبادات والمعاملات، وعليه فالمحرّمات تكون محلّلة، فشرب الخمر يعدل شرب الماء، والوفاء بالعقود يكون أمراً غير لازم، فهل يمكن أن يلتزم به مَن يدّعي الوصل؟

وللسيد الطباطبائي هنا كلام يقول فيه:

ربّما يتوهّم أنّ الغرض من التكليف تكميل الإنسان وإيصاله غاية وجوده، فإذا كمل لم يكن لبقاء التكليف معنى.

وجه الفساد: أنّ تخلّف الإنسان عن التكليف الإلهي ـ وإن كان كاملاً ـ في المعاملات يفسد المجتمع وفيه إبطال العناية الإلهية بالنوع، وفي العبادات يستلزم تخلّف الملَكات عن آثارها، وهو غير جائز، ولو جاز لكان فيه إبطال الملَكة وفيه أيضاً إبطال العناية. نعم بين الإنسان الكامل وغيره فرق في صدور الأفعال وهو أنّ الكامل مصون عن المخالفة لمكان الملَكة الراسخة بخلاف غير الكامل، والله المستعان.(الميزان في تفسير القرآن:١٤/٢٠٠).

***

تمّ تفسير

سورة الحجر

الفهرس